



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلماء



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُؤْتَمِرًا

الحمد لله رب العالمين

آية الله الشيخ عبدالله جوادى قمى

ترجمة: عبدالرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحج رموز و حكم

كاتب:

عبدالله جوادى آملى

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٣	الحج رموز و حكم
١٣	اشارة
١٣	اشارة
١٤	كلمة المجلة
١٥	مقدمة الترجمة
١٧	مقدمة المؤلف
٢٧	القسم الأول أبعاد الحج
٢٧	الفصل الأول الإسلام دين عالمى دائم
٣١	الفصل الثانى مكانة الحج فى الإسلام
٣٦	الفصل الثالث معالم الحج فى القرآن الكريم
٣٦	اشارة
٣٧	وقفات مع الخطاب الإلهى الخاص بالحج
٤١	معالم الحج فى الروايات
٤٦	سعة رحمة الحج
٤٧	عظمة الحج فى أذعية شهر رمضان
٤٩	الشرف الزمانى للحج
٥٠	تنظيم العقود باسم الحج
٥١	أبرز اتفاقات أيام الحج وموآثيقها
٥٣	الفصل الرابع الحج، تجسد الأصول العقائدية
٥٣	مظهر التوحيد
٥٤	الوحى المجتمع
٥٦	المعاد المجتمع

٥٩	الفصل الخامس الولاية روح الحج
٥٩	تمهيد:
٥٩	منشأ حرمة الكعبة وعزتها
٦١	ارتباط الحج وشؤونه بالولاية
٦٣	عرفات دون معرفة الإمام
٦٨	الفصل السادس الحج و الوجه السياسي
٦٨	الحج مظهر الحكومة الإلهية السامية
٧٢	المظهر التام للتبزي من الطاغوت
٧٤	محور البراءة من المشركين
٧٧	القسم الثاني أماكن الحج
٧٧	الفصل الأول الميقات
٧٧	وجوب الإحرام من الميقات
٨٢	الفصل الثاني الحرم الإلهي
٨٢	اشارة
٨٣	أمن الحرم
٨٣	اشارة
٨٥	١- الأمن التكويني
٨٨	٢- الأمن التشريعي
٨٩	ساحة أمن ولاية المعصومين:
٩٠	الخصائص الفقهيّة للحرم
٩٣	الفصل الثالث مكة المكرمة
٩٣	مكة، أنموذج المدينة الفاضلة
٩٨	بعض الخصوصيات الفقهيّة لمكة
١٠٠	الفصل الرابع المسجد الحرام

- ١٠٠ الحرمة الخاصة للمسجد الحرام -
- ١٠١ إدارة المسجد الحرام وولايته -
- ١٠٥ الفصل الخامس الكعبة المشرفة -
- ١٠٥ الموضع المركزي للكعبة -
- ١٠٦ المحاور الأصيلة للوحدة -
- ١٠٦ اشارة -
- ١٠٧ ١- عالمية القرآن الكريم -
- ١٠٧ ٢- عالمية رسالة الرسول الأكرم -
- ١٠٨ ٣- المركزية العالمية الخالدة -
- ١٠٩ خصائص الكعبة -
- ١٠٩ اشارة -
- ١١٠ ١- تجلى العرش -
- ١١٠ اشارة -
- ١١١ المراحل الأربع لأركان الدين ومعارفه -
- ١١٤ ٢- قيام أسس الكعبة على التوحيد المحض -
- ١١٦ ٣- تشييد أركان الكعبة على الخلوص الأصيل -
- ١١٦ ٤- مركز الطهارة ومطاف الطاهرين -
- ١٢١ ٥- محور القيام والقيامة -
- ١٢١ اشارة -
- ١٢٣ دور الاعتقاد والاقتصاد فى قوام المجتمعات الإنسانية -
- ١٢٣ ٦- بيت الأحرار ومحور الحرّية -
- ١٢٣ اشارة -
- ١٢٥ إذا جاهدت وسعيت غدوت ملكاً -
- ١٢٥ ٧- مظهر المساواة -

- ١٢٦ ٨- الكعبة مرجع الخلق جميعاً
- ١٢٧ ٩- مركز الاتحاد
- ١٢٩ ١٠- أقدم المعابد العامة
- ١٣١ ١١- أفضل المعابد
- ١٣٢ ١٢- منشأ البركة
- ١٣٢ ١٣- الكعبة وسيلة الهداية
- ١٣٣ ١٤- حماية الكعبة
- ١٣٤ ١٥- الولاية روح الكعبة
- ١٣٧ ١٦- علامة القبلة
- ١٤٠ القبلة هي البعد الذي لا يتغير للكعبة
- ١٤١ قبلة الأنبياء:
- ١٤٢ الكعبة أشرف من بيت المقدس
- ١٤٣ الخصوصيات الفقهية للكعبة
- ١٤٥ عقب من تاريخ الكعبة
- ١٤٩ الفصل السادس الحجر الأسود
- ١٤٩ السر في تشبيه الحجر الأسود بمقام الرسول الأكرم (ص)
- ١٥٠ نزول الحجر الأسود من الجنة
- ١٥٢ شهادة الحجر الأسود يوم القيامة
- ١٥٤ الفصل السابع ألحطيم وحجر إسماعيل
- ١٥٧ الفصل الثامن مقام إبراهيم
- ١٥٧ اشارة
- ١٦٠ كيفية تكون مقام إبراهيم
- ١٦٣ الفصل التاسع زمزم
- ١٦٣ اشارة

١٦٤	من أسماء زمزم
١٦٦	الفصل العاشر
١٦٨	الفصل الحادى عشر عرفات
١٧٠	الفصل الثانى عشر المشعر الحرام
١٧١	الفصل الثالث عشر منى
١٧٣	القسم الثالث مناسك الحج
١٧٣	الفصل الأول سرّ العبادة
١٧٣	العبادة، غاية الخلق لا الخالق
١٧٥	العبادة، وسيلة الشهود الوحيدة
١٧٦	كشف سبيل سرّ العبادة
١٧٧	حقيقة الإنسان الكامل سرّ العبادات كافة
١٧٩	الفصل الثانى سرّ الحج وثمراته
١٧٩	الصورة الباطنية للحج
١٨٢	سرّ الحج فى السير إلى الله
١٨٢	زاد سفر الحج
١٨٤	تزكية الروح فى ضوء معرفة الأسرار
١٨٦	التناغم بين سيرة الحاج وسرّ الحج
١٨٨	السيرة اللا إنسانية لبعض الحجّاج
١٩٢	الفصل الثالث الإحرام
١٩٢	اشارة
١٩٥	حقيقة الإحرام
١٩٦	غسل الإحرام
١٩٦	صلاة الإحرام
١٩٧	ارتداء لباس الإحرام

- ١٩٧ النية
- ٢٠٠ حقيقة النية
- ٢٠١ التلبية
- ٢٠١ رهبانية أمة الإسلام
- ٢٠٢ تجلى التوحيد فى التلبية
- ٢٠٣ طرد الجاهلية القديمة والحديثة
- ٢٠٤ سر التلبية
- ٢٠٥ مراتب التلبية والملتين ودرجاتهما
- ٢٠٧ محرمات الإحرام
- ٢١٠ الفصل الرابع الطواف
- ٢١٠ أدب الدخول إلى المسجد الحرام
- ٢١١ أدب الحضور
- ٢١٣ الطواف
- ٢١٥ الطواف الجاهلى
- ٢١٧ استلام الحجر الأسود
- ٢١٩ الفصل الخامس صلاة الطواف
- ٢١٩ اشارة
- ٢٢٠ التبرك بماء زمزم
- ٢٢٢ الفصل السادس السعى
- ٢٢٢ اشارة
- ٢٢٣ أسرار السعى
- ٢٢٥ الفصل السابع التقصير
- ٢٢٥ اشارة
- ٢٢٦ تساوى الرجل و المرأة فى تحصيل الكمال

- ٢٢٧ الفصل الثامن الوقوف فى عرفات
- ٢٢٧ اشارة
- ٢٢٧ أسرار الوقوف
- ٢٣١ عرفات أرض الدعاء
- ٢٣٢ قرب الله من عباده
- ٢٣٥ مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع)
- ٢٣٧ حضور إمام الزمان فى الحج
- ٢٣٩ الفصل التاسع الوقوف فى المشعر الحرام
- ٢٤١ الفصل العاشر الإفاضة إلى منى والمبيت فيها
- ٢٤١ اشارة
- ٢٤٢ تصفية المناسك من العادات الجاهلية
- ٢٤٥ الحج فياض بإسم الله وذكره
- ٢٤٦ تفاوت مراتب الحجاج
- ٢٤٨ الفصل الحادى عشررمى الجمرات
- ٢٥٠ الفصل الثانى عشرذبح الأضاحى
- ٢٥٠ اشارة
- ٢٥١ وقفات حول التضحية و أسرارها
- ٢٥٥ الفصل الثالث عشرحلق شعر الرأس
- ٢٥٥ اشارة
- ٢٥٦ استحباب دفن شعر الحاج فى منى
- ٢٥٧ الفصل الرابع عشرنهاية الحج
- ٢٥٧ الدخول والخروج الصادق
- ٢٥٨ الحج المقبول
- ٢٦٠ ارشادات النبى (ص) فى حجة الوداع

٢٦٤	القسم الرابع الزيارة
٢٦٤	الفصل الأول إتمام الحج والعمرة بالزيارة
٢٦٤	اشارة
٢٦٦	فضيلة التشرف بزيارة المدينة بعد الحج
٢٦٨	الفصل الثاني الزيارة حضور في مقام الإنسان الكامل
٢٧١	الفصل الثالث الزيارة مظهر المحبة
٢٧٣	الفصل الرابع أدب الحضور
٢٧٥	الفصل الخامس ضيافة النبي (ص)
٢٧٨	الفصل السادس بيوت الحق الرفيعة
٢٨٠	تعريف مركز

الحج رموز و حكم

اشارة

سرشناسه : جوادى آملی، عبدالله، ١٣١٢ -

عنوان قراردادى : صهبای حج .عربى

عنوان و نام پدید آور : الحج رموز و حكم / عبدالله جوادى آملی؛ مترجم حيدر حب الله.

مشخصات نشر : تهران: مشعر، ١٣٨٩.

مشخصات ظاهرى : ٢٩٢ص.

شابك : ٤٠٠٠٠ ريال: ٩٧٨-٩٦٤-٥٤٠-٢٧٢-١

وضعيت فهرست نویسى : فیا

موضوع : حج

شناسه افزوده : حب الله، حيدر، مترجم

رده بندى كنگره : BP١٨٨/٨/ج٩ص٩٠٤١ ١٣٨٩

رده بندى ديويى : ٢٩٧/٣٥٧

شماره كتابشناسى ملی : ٢١١٤٠٥٤

ص: ١

اشارة

الحج مدرسة فكرية وروحية و تربوية عظيمة، يستلهم الفرد منها القيم والإرشادات، كما تستنير الأمة بها فى سلوك طريق تكاملها وترقيها.

إنّ موسم الحج فرصة عظيمة وقرتها الشريعة الإسلامية للموحدین كى يستلهموا منها مختلف المعانى وألوان المفاهيم التى تعينهم على المضى قدماً فى مسيرة الارتقاء والصالح.

وقد أخذ مركز أبحاث الحج على عاتقه مسؤولية الترويج لثقافة الحج والزيارة، عبر إنتاج الأبحاث وتأليف الكتب والدراسات، وإصدار النشريات العلمية الرصينة، فكان سباقاً فى هذا المضمار، يقتفى أثره سائر المراكز والمؤسسات البحثية والثقافية فى العالم الإسلامى.

كلمة المجلة

ص: ٢

ومن بركات هذا المركز إصدار مجلة «ميقات الحج» باللغتين العربية والفارسية، حيث نشرت فيها مئات الدراسات والأبحاث العلمية والتحقيقية المتعلقة بالحج والعمرة والزيارة والتراث الإسلامي في أرض الحرمين وغيرها من الملفات والمحاور الهامة. لقد تولت مجلة (ميقات الحج) باللغة العربية رصد أهم الموضوعات ومتابعة المستجدات الفقهية المتصلة بقضايا الحج والعمرة، فبنت جسوراً مع كبار الفقهاء وثمة من أفاضل العلماء ونخبة من الأساتذة والباحثين، فتركت حتى الآن اثنين و ثلاثين عدداً متميزاً، تصلح مرجعاً هاماً في هذا المضمار.

وقد ارتأت أسرة تحرير المجلة إصدار كتابها الثالث الذي جمعت فيه ما كانت ترجمته من أبحاث أخلاقية وفقهية ووجدانية وعرفانية للعلامة الجليل سماحة آية الله الشيخ عبدالله جوادي آمل حفظه الله تعالى، حيث عبّرت هذه الأبحاث عن جولة كاملة في مفاهيم الحج ورحلة شيقه في معانيه ودلالاته.

إنّ أسرة التحرير إذ تقدّم هذا الكتاب بين يدي القارئ العزيز تأمل منه الاستفادة بتقديم ملاحظاته ومقترحاته حول كل ما يرتقى بعمل المجلة ويوفر لها مناخاً مساعداً.

والله من وراء القصد

مقدمة الترجمة

يمكن لمن يدرس ظاهرة الحج أن يطالعها من زوايا متعددة؛ تنطلق من الزاوية الفقهية الشرعية، لتمرّ بالزوايا التاريخية والأخلاقية والتربوية والسياسية والاجتماعية والفكرية، وصولاً إلى الزاوية الروحية والعرفانية والرمزية.

يغصّ الحج بدلالات ومعاني تجعل منه مادة خصبة للتحليل والتأمل والغوص والاستغراق، وبقدر ما كانت دراسات الحج على المستوى الفقهي واسعة ومعقدة كما يعرف ذلك المتخصصون بدراسة فقه الحج والعمرة، كذلك كان تحليله الروحي والعرفاني معقداً أيضاً، نظراً لغزارة الدلالات الرمزية التي يكتنفها.

قد يكون التخصّص في علم الفقه كافياً لدراسة فقه الحج، إلا أن معرفة أسرار الحج ورمزياته تظلّ بحاجة إلى عدد معرفية أخرى، من الوجدان الصافي إلى العرفان العملي والنظري إلى التجربة الروحية والأخلاقية، من هنا كانت هذه المهمة مسؤولة العرفاء وأهل القلب والمعنى.

ومن رموز مدرسة المعرفة القلبية والفلسفية ووجه الاتجاه الرمزي في عصرنا سماحة الأستاذ آية الله الشيخ عبدالله جوادي آملی حفظه الله، فقد خاض في هذا الكتاب صولات وجولات في ممارسة تحليل رمزي وعرفاني وروحي لهذه الفريضة العظيمة، وسعى لربطها بمختلف الدلالات المساعدة.

لقد أبرز الشيخ الأستاذ قدراته في التفسير الرمزي للعبادات، وكانت له طريقته

ص: ٤

الخاصة في ذلك، والتي قد يتخلف العلماء فيها، إلا أنها تظل شكلاً من أشكال فهم العبادات في الإسلام، تسعى لكي تتخطى الوقوف على الأبعاد الظاهرية للأمور لتلامس معاني باطنية ذات مضامين سامية.

إنني إذ قمت بجهود متواضعة في ترجمة هذا الكتاب لابد لي أن أشكر أسرة تحرير مجلة ميقات الحج، وبالأخص سماحة السيد قاضي عسكر، ممثل الولي الفقيه في شؤون الحج والزيارة- رئيس التحرير- وسماحة الأخ العزيز الشيخ محمد علي مقداي- مدير التحرير- على رعايتهم هذا الجهد المتواضع ونشره على صفحات المجلة ثم في هذا الكتاب.

ولا يفوتني أن أشكر الأخ العزيز الأستاذ صالح البدر اوي على مساعدتي في ترجمة الموضوعات المتعلقة بالحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم والصفاء والمروة وعرفات ومنى والمشعر الحرام والتي تقدر بحوالي الخمس عشرة صفحة، حفظاً لحقه المعنوي وتقديراً له.

إنني أقدم جهدي المتواضع هذا هدية مزجاء لأستاذي- الذي تشرفت بحضور درس التفسير القرآني عنده- سماحة الشيخ جوادى آملی وأضعه عربون وفاء لحقه عليّ في التعليم.

والله وراء القصد

حيدر حب الله

ص: ٥

مقدمة المؤلف

مقدمة المؤلف

الكتاب الذى بين يديك قارئنا العزيز «الحج رموز و حكم» ثمره جهود وإشراقات نورانية لسماحة آية الله العلامة الشيخ عبد الله جوادى آملى حفظه الله تعالى، وقد تولت مجله «مقات الحج» تقديمه إلى القارئ الكريم، تعميقاً لمعانى الحج، و توضيحاً لدلالاته. وقد قدمنا هذا الكتاب بعد إعداده إلى مؤلفه الكريم، ففضل - مشكوراً - بكتابة مقدمة للطبعة العربية له، تحوى المزيد من الالتماعاات التى مازال يتحفنا بها سماحته دام عزه.

إننا نأمل بنشر هذا الكتاب - مزيناً بمقدمة الطبعة العربية هذه - أن تزدان المكتبة الإسلامية بمثل هذه البحوث والقراءات المعمقة لفريضة الحج العظيمة، ونسأل الله تعالى التوفيق وتقبل عملنا هذا، كما نأمل أن يحظى هذا العمل برضا المؤلف والقارئ معاً، إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

*** الحمد لله الذى جعل الكعبة قياماً للناس، و الصلاة والسلام على جميع الأنبياء، سيما الخليل (ع) الذى رفع قواعدها، و الحبيب (ع) الذى طهرها من الصنم، و عترته

ص: ٦

المعصومين، سيما خاتمهم المهدي الموجود الموعود (عجل الله تعالى فرجه الشريف) الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً؛ بهم نتولى ومن أعدائهم نتبرأ إلى الله.

إن الله سبحانه خالق كل شيء ممكن و يكون خلقه إياه بالتجلى كما قال مولانا أمير المؤمنين على بن ابي طالب (ع): «أ لحمدُ الله المتجلى لخلقهِ بِخلقهِ». (١) أى فتجلى الله سبحانه بالخلق لكل مخلوق فكل مخلوق يعرف الله سبحانه و يسبحه و يحمده و يسجد و يأتيه طائعاً كما فى غير واحدة من الآيات، فلا- الخلق بالتجافى بل بالتجلى، و لا المخلوق محجوب عن خالقه المتجلى له، إذ ليس المتجلى له هو خصوص الانسان، و إن كان هو أقوى مخلوق تجلى الله له.

فهذا أصل إلهى، و هو أن الله متجل في خلقه و أن مخلوقه متجلى له بلا استثناء فى شيء من هذين المطالبين.

إن كمال الخالق و حسنه الوجودى (لا- الاعتبارى) يتجلى فى خلقه و إن كمال المخلوق و حسنه الوجودى يكشف كمال الخالق و حسنه الوجودى، و لا- يختص ذلك فى خلق الإنسان الذى له أحسن تقويم؛ فما ورد فيه من قوله تعالى: فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

(٢) إنما هو تمثيل لا تعيين، لأنه جار بعينه فى إنزال القرآن الحكيم الذى هو أحسن الحديث و أبلغ الموعظة، و حيث إن الله سبحانه نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى. (٣) فهو أحسن المتكلمين و أحسن المحديثين، و ما إلى ذلك من الأشباه و النظائر.

إن الله سبحانه رفيع الدرجات ذو العرش، و يرفع الذين آمنوا درجةً والذين أوتوا العلم درجات، و يرفع الأوحدي منهم مكاناً علياً.

١- نهج البلاغه، الخطبة: ١٠٨.

٢- المؤمنون: ١٤.

٣- الزمر: ٢٣.

ص: ٧

فجميع ذلك مصداق خلقه المتجلى به للمخلوق، فأى مخلوق عَرَفَ نفسه يعرف ربّه بمقدار معرفته، و لا- خصيصه لهذا الأصل بالإنسان، و إن كان له حظٌّ وافٍ، و لا يمكن أن لا يعرف مخلوقٌ أى مخلوقٍ كان نفسه إلّا بسوء عمله الذى يختلف باختلاف المخلوق شدةً و ضعفاً، و كلّ مخلوق عرف نفسه يعرف خالقه المتجلى له بالضرورة.

و حيث إن درجات التجلى متفاوتةٌ فكلّ مقدارٍ نَقَصَ منه ينتزع من القدر الناقص عنوان التجافى المقابل للتجلى، إذا الميز بينهما بأن المتجلى يكون جامعاً بين الدرجات بنحوٍ إذا هبط إلى الأرض يكون موجوداً فى السماء أيضاً، و إذا نزل إلى السفلى يكون موجوداً فى العلو و يصير مظهراً لله الذى هو دان فى علوه و عالٍ فى دنوه، بلا اتّحاد و لا حلولٍ، و بأنّ المتجافى لا يكون كذلك، حيث إنّه إذا كان عالياً لم يكن سافلاً، و إن كان هابطاً لم يكن صاعداً، و ذلك كالمطر حيث إنّه مادام فى سحاب السماء لا يكون فى بحر الأرض أو نهرها، و مادام هبط إلى البرّ أو البحر لا يكون فى سحابها.

مع أنّ كل شىء مسبوقةٌ بوجوده فى خزائن الله سبحانه، و أنّ هبوطه إلى الأرض ليس بمعنى خلوّ المخزن عما اخترن فيه؛ فما أفاده سبحانه بقوله: **وإن من شىءٍ إلّا عندنا خزائنه و ما ننزلهُ إلّا بقدر معلوم.** (١) **حقّ لا ريب فيه، إلّا أنّ بين أنحاء التنزيل فرقاً.** إنّ القرآن قد نزل من لدن على حكيم، و إنّ المطر أيضاً نزل من مخزنه، و لكن بينهما تفاوتاً من البدء إلى الختم، و من كيفية الانزال و ما إلى ذلك؛ فالقرآن نزل بالتجلى الخاص كما أفاده مولانا أمير المؤمنين (ع): «فتجلى لهم سبحانه فى كتابه من غير أن يكونوا رأوه». (٢) **والمطر نزل بالتجافى فالقرآن بمثابة الجبل الممدود من الصدر**

١- الحجر: ٢١.

٢- نهج البلاغه، الخطبة: ١٤٧.

ص: ٨

إلى الساقفة بلا طرح ولا نبذ، والمطر مُلقى و مُنبود فأين أحدهما من الآخر؟
 فالقرآن من أدله الذى يكون بيد الله إلى آخره الذى بأيدى الناس كلام الله حيث قال تعالى: إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ
فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ. (١) والتفصيل موكول إلى موطنه المعدّ لبيان كيفية نزول القرآن و ميّز نزوله عن نزول غيره.
 إن الكعبة التى هى قبله المسلمين، و مطاف الطائفين، و مزار الزائرين، قد نزلت إلى الأرض قرب نزول القرآن إليها، لا كنزول المطر
 إليها، و يشهد له ما ورد فى شأن الحجر الأسود، من أنه يمين الله فى الأرض، فمن استلامه فكأنه بايع يمين الله الذى كلتا يديه يمين،
 مع نزاهته عن الجسم، و برأته عن المادة، و طهارته عن لوث الجسمية، و ما إلى ذلك؛ سُبُوْحُ قَدُوسٍ رَبَّنَا وَ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحِ.
 إن الكعبة هى متن القبلة فمن دَخَلَهَا فهو فى عين القبلة بحيث أينما يتوجه فتم وجهه الله و لا ميّز هناك بين الأمام و الخلف و اليمين و
 اليسار و الفوق و التحت إلّا بالاعتبار، و إلّا فالجميع قبله و البيت الذى هذا شأنه فهو مَجَلِّيّ لَهِ اللهُ المتجلى فيه، لأنّه تعالى يكون مع الإنسان
 أينما كان، و كيف كان، و حيث كان، و لا يعمر هذا البيت إلّا الموحد الخالص: إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ. (٢)
 و لا يطوف حوله إلّا العتيق عن حُبِّ غير الله، و لا يستقبله إلّا المستدبر ما سوى الله.
 إن الكعبة رقيقة للبيت المعمور الذى يعمره الملائكة الذين لا يعصون الله ما يأمرهم و هم بأمره يعملون، و لا يسبقونه بالقول و يخافون
 ربهم من فوقهم، و يسبحونه و يقُدّسونه، و هم المدبرون العالم بأمره تعالى، و حيث إن البيت المعمور بالملائكة أقوى درجة من
 الكعبة فهو بتمامه أى داخله و سطوحه الخارجة كلها

١- الزخرف: ٣ و ٤.

٢- الأنفال: ٣٤.

ص: ٩

بحيث أينما يتوجه إليه ملكٌ من الملائكة فثم وجه الله.

والسرّ في تماثل الكعبة والبيت هو أنّ ذلك البيت حقيقةً لرقية الكعبة، و هي رقية لتلك الحقيقة صوتاً للتجلى عن التجافى، فجميع ما في البيت المعمور حاصله للكعبة ضعيفاً، و جميع ما في الكعبة حاصله للبيت المعمور شديداً.

إنّ البيت المعمور رقية للعرش الإلهي، و ذلك حقيقة لهذه الرقية كما أشير في التماثل بين الكعبة والبيت المعمور، و العرش معمورٌ بمن يستولى عليه و هو الله سبحانه: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. (١) و لكنه تعالى إنما يعمر عرشه بأسمائه الحسنی، و أوصافه العليا، و كلماته التامة التي تحكيها التسيحات الأربع و هي:

سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر

كما دلّت عليها الرواية الدالة على أنّ تربع العرش و كونه ذا أركان أربعة إنّما هو لأنّ تلك الكلمات التي بنى عليها العرش أربع، فلو أمكن لأحد أن يصعد إليه بإذن الله تعالى فهو يرى نفسه محفوفاً بالتوحيد المشار إليه تارةً بالتسيح، و أخرى بالتحميد، و ثالثةً بالتهليل، و رابعةً بالتكبير، و هي و إن كانت كثيرة لفظاً و مفهوماً و لكنّها متحدةً مصداقاً.

فهذا الصاعد الذي عرج بروحه إلى ذلك المستوى، فهو يرى قلبه، إنّما يتوجه فثم وجه الله، و حيث إنّ هذا السعيد الصاعد ذو قلب سليم ليس فيه غير حبّ الله، فيصير بذلك بمنزلة العرش، الذي مبناه، و بناؤه، و جداره، و سقفه، و بابه، و ميزابه، و كلّ ما يتعلّق به توحيداً خالصاً لله الذي ليس كمثلته شيء.

ثمّ إنّ تلك الكلمات الطيبة حقيقة العرش الذي هو رقيقتها، و يكون العرش حقيقة البيت المعمور الذي هو رقيته، و يكون البيت المعمور حقيقة بيت الله في الأرض (الكعبة) الذي هو رقيته، و من هنا يتبين أنّ نزول الكعبة إلى الأرض

ص: ١٠

بالتجلى الخاص لا التجلى العام الذى يصحبه التجافى أحياناً، و أن معنى ما قد يقال: إن الكعبة من تخوم الأرض إلى عنان السماء قبله، له معنى دقيق فى الفقه الأكبر والأوسط، كما أن له معنى رائجاً فى الفقه الأصغر، و أن صغر الفقه و كبره يرجعان إلى المحتوى الناظر إلى الجهاد الأصغر و الأكبر، إذ لا يمكن الفتح فى الجهاد الأكبر بسلاح الفقه الأصغر، لأن لكل جهاد سلاحاً، و ظفراً، و غنيمه، كما أن له هزيمه و غرامه، و أن قلب المؤمن إنما يصير عرش الرحمن، إذا التزم بجميع ما فى الفقهاء الأصغر و الأكبر، و عرفه و اعترف به، و آمن بذلك، و عمل به خالصاً لله، البرىء من الرياء، و السمعه، و ما إلى ذلك من هوى النفس، فلا بد من تضحيتها، و تزكية الروح، و تزكية العقل، حتى يليق بأن يصعد، و يصير بنفسه بمنزله عرش الرحمن، فحينئذ إذا أفيض على قلبه شىء من المعارف العلميه، أو العمليه، يصير ذلك كلمه عرشيه، لأنها أفيض على عرش الرحمن و استقر عليه، و كل ما يستقر على العرش يصير عرشياً، فتلك المعارف تصير حكماً عرشيه، كما هو المعهود لدى أبناء التحقيق؛ لا أن كل مطلب عريق عميق دقيق يستحق بأن يُعبر عنه بالحكمه العرشيه؛ لأنه أفيض على قلب الغير، و أى مطلب أفيض على الغير فهو عاربه ترجع إلى صاحبها، و لا مساس لها بالمستعير، فليس له أن يتفوه بذلك إلا بعد التصريح بالاعارة و الاستعاره، لأن ذلك المطلب السامى، و إن كان مشهوداً للعارف، أو معقولاً للحكيم، إلا أن نقله ليس عرفاناً و لافلسفه، إذ الناقل المستعير لا يكون عارفاً شاهداً، و لا حكيماً عاقلاً، إذ نقل الشهود و العقل أجنى عنه منقوله.

فكما أن قارىء القرآن له أن يقرأ و يرقى، حيث يقال له: «إقرأ و ارق» (١) ولا يختص ذلك بالآخرة، و إن كان هنالك بنحو أتم، بل يجرى فى الأولى أى الدنيا أيضاً، فكل الحاج و المعتمر و الزائر، و كل من يتجه إلى الكعبة و يصلّى نحوها يقال

ص: ١١

له: طُفٌّ، زُرٌّ، صَلٌّ و أَرْقٌ من الكعبة إلى البيت المعمور، و منه إلى العرش، و منه إلى محتوى التسيحات الأربع، و صير عبداً خالصاً ذا قلب سليم ليس فيه شىء سوى حُبِّ الله، و حُبِّ آثاره القِيَمَةِ من القرآن، و العترة (ع) الذين ورد فيهم أنهم بمثابة الكعبة تُؤتى و لاتأتى؛ لأنَّ الإمام لا يكون إلّا كذلك.

إنَّ الكعبة التى لم يذكر إلّا بضعه مِّمًا ورد فيها هى مدار حياة الأُمِّة و مماتهم و جوباً أو ندباً، من الصلاة، و الذبح، و النحر، و الاحتضار، و التصليّة، و الدفن، و ما إلى ذلك؛ فلذا يقال حيّاً و ميتاً: إنَّ الكعبة قبلتى، كما يقال فى الحالتين: إنَّ القرآن كتابى و إنَّ محمداً (ص) نبيّ و رسولى، و إنَّ عليّاً و أولاده المعصومين الأحد عشر: أئمّتى، و ما إلى ذلك من الأمور الدينيّة؛ فيلزم معرفتها بحيث لا يضيع شىء من حقّها أوّلًا، ثمَّ تجعل سلماً للصعود إلى البيت المعمور هكذا ثانياً، و من هنا يصح أن يقال: «الكعبة! و ما أدراك ما الكعبة؟! حيث إنَّ الطائف لا يرى منها إلّا حجراً لا يضرّ و لا ينفع» كما أن قارئ القرآن لا يسمع إلّا لفظاً عربياً، و لكنه لا يدري من أين تجلّى؟ و من أين نزل فى القوس النزولى؟ و إلى أين يصعد و يترقى فى القوس الصعودى؟

إنَّ كلمة «بَاء» التى أضيف إليها لفظ البيت فى قوله تعالى: طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ... (١) ليست إضافةً اعتباريةً، بل تحكى الإضافة الإشراقية التى يكون المضاف فيها تابعاً للإضافة، بخلاف ما فى الاعتبارية منها، حيث إنَّ الإضافة فيها تابعة للمضاف، كما أنّها تابعة للمضاف إليه.

والحاصل أنّ إضافة البيت إلى الله تشرifiّة، تحكى شرافة المضاف تكويناً لاعتباراً صرفاً، و أنّ التشرifiّة التشريعى يساوق التكوين، إذ الشريعة الإلهية عين

ص: ١٢

الحكمة بلا جزافٍ، و متن الواقعية بلا تسامحٍ و لاتساهلٍ.

و إن شئت فقل هذه الإضافة و الإضافة التي في قوله تعالى: وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي. (١) إذ المضاف هناك أى الروح موجود مجرد ملكوتى من أمر الله، و له شأوٍ قاصٍ تحكيه الإضافة المذكورة و إن يكن بين الروح الإنسانى المنفوح فيه من الله، و بين ظاهر الكعبة المنبئة من أحجار لاتضرر و لا تنفع (٢) فرق، و لكن بعد التدبر فى باطنها يعترف بإمكان التشابه، و من هنا قيل فى نعت الكعبة باللغة الفارسية المقاربة للعربية فى غير واحد من المعارف و الحكم عدا ما فيها من القرآن الحكيم و كلام أهل بيت الوحي: كعبه را جامه کردن از هوس است ياء بيتى جمال كعبه بس است. (٣)

أى لا- تحتاج الكعبة إلى تزيينها بالثوب الحريرى و نحوه؛ لأن جمالها إنما هو فى لفظه الياء فى كلمة بيتى فى قوله تعالى: طَهَّرْنَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ. (٤) حيث إن جمال المخلوق بإضافته إلى الخالق الجميل الذى كل جماله جميل، و إن نسأله بأجمله فى «دعاء السحر» حسب ما علمنا مولانا أبو جعفر الباقر (عليه و على آباءه الأطيبين و أبناءه الأنجيين آلاف التحية و الثناء).

إن الكعبة سبب قيام الناس للتوحيد و العدل، على الإلحاد و الظلم، فهو موجب لمقاومتهم تجاه الباطل، أى باطل كان، و سبب لإقامة الحق، أينما كان، فهى أى الكعبة تهدى الناس إلى أن يدوروا مع الحق حيثما دار، و تهدموا الباطل أينما ظهر،

١- الحجر: ٢٩.

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢.

٣- ديوان الحكيم السنائى الغزنوى.

٤- البقرة: ١٢٥.

ص: ١٣

لأنَّ معها لا يُبدئ الباطل و لا يعيد: قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ. (١) والدليل على كونها أى الكعبة عاملة للقيام هو قوله سبحانه: قِيَاماً لِلنَّاسِ. (٢) فهي محور المقاومة والوحدة الإسلامية من مشارق الأرض و مغاربها، و من يُرد فيها بظلم أو إلحاد يذقه الله عذاباً أليماً.

و لعلَّ بناء الخليل (ع) - الجذاذ للأوثان و الأصنام - جعل الكعبة سبباً للقيام على كسر أصنام الجاهلية بإذن الله، و الشاهد على أن هذا البيت الرفيع بناؤه، هو استقرار مقامه فيه من أبعده عهد إلى اليوم كما قال سبحانه: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ. (٣) والعربي الجاهلي جعله مأمناً للقاتل و كان يحفظه مادام هو فيه، و ليس ذلك لكونه معبداً للصنم، إذ لم يعهد إجلال معبده أصلاً، حيث إنه كم من معبد في شرق الأرض و غربها للصنم و الوثن لا يعهد فيه مثل ذلك؛ والحاصل أن الكعبة سبب قيام الناس للاعتقاد.

وأنَّ المال سبب قيام الناس للاقتصاد حسبما يستفاد من قوله تعالى: وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً. (٤) فإذا قام الناس بالكعبة للاعتقاد، يتم لهم القيام بالمال للاقتصاد، و إذا قعدوا عنها و لا يقوموا بها للاعتقاد صار المال وبالاً و دولةً بين الأغنياء منهم، و يصيرون شيعاً يستضعف الغنى منهم الفقير، و يستأثرون لأنفسهم ما الناس فيه شرعٌ سواء، و يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، و يحومون حوم الثيل والمعتلف، أعاذ الله الأمة الإسلامية من هؤلاء، و من يحذو حذوهم.

١- سبأ: ٤٩.

٢- المائدة: ٩٧.

٣- آل عمران: ٩٧.

٤- النساء: ٥.

ص: ١٤

فالحج والعمرة سير إلى سبب القيام للاعتقاد، وتعديل لما هو عامل القيام للاقتصاد، إذ: ما جاع فقيرٌ إلّا بما مُتّع به الغنى. إنَّ التحقيق حول معنى التجلّي الممتاز عن التجافى، و حوم الحقيقة و الرقيقة يزيج أى شكّ يمكن أن يختلج ببال من لا يؤمن إلّا بما يراه جَهْرَةً، فيقول: لو كانت الكعبة بحذاء البيت المعمور للزم سكون الأرض و السماء معاً، أو حركتهما من مبدأ خاص إلى منتهى مخصوص على سرعه خاصية، حفظاً للمحاذاة، ذهولاً عن معنى التحاذي المعنوي، و غفلةً عن التقابل الملكوتي، و ما إلى ذلك مما يناسب تحاذيهما كمحاذاة البيت المعمور العرش المحاذي للكلمات الأربع.

إنَّ الإنسان المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه و بصره، كما يُبدل هويته، و يجعل فؤاده كالحجر أو أشدَّ قسوةً، يجعل أول بيتٍ وُضع للناس بيت العنكبوت، و لا تكون عبادته لديه إلّا مكاءً و تصديعاً، فمن دسى نفسه و خاب بتدسيسها، يُبدل أقوى البيوت بأوهنها، و أما من عرف نفسه و زكّاه، يعرف قدرها و يفتح له بذلك أبواب المعارف و الحكم، و ينكشف له سرّ التعبير عن الكعبة بالبيت، مع أنّه لا- بيتوته هناك لأحدٍ، و السرّ هو أنَّ عنوان البيت يحكى الليل التي إليها بركات، لا توجد في النهار كما قال تعالى: **إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا. (١)** و المرجو أن تتبرك الأمة الإسلامية على اختلاف مذاهبها بركة الكعبة ما هو خير لها.

آمين يا ربّ البيت الحرام

القسم الأول: أبعاد الحج

ص: ١٥

القسم الأول أبعاد الحج

الفصل الأول الإسلام دين عالمي دائم

ص: ١٦

لابد لكل إنسان من دين إلهي، ولا دين كذلك سوى الإسلام (١)، كما لا يُقبل دين سواه، (٢)، فالإسلام هو الدين الوحيد الجامع النازل من جانب الحق تعالى، والمشمول على تمام الكمالات الإنسانيّة، والمهيمن على الأديان الباطلة كافّة، وهو الديانة الفريدة القابلة للإجراء والتطبيق لتكون مورداً لاستفادة الإنسان.

وبناءً عليه، لابد لهذا الدين أن يحوى برامج وآليات يمكن توظيفها والاستفادة منها عبر التاريخ، وتظهر وتنجلي في مناخ تعالى الإنسانيّة انجلاءً كاملاً وتاماً.

الشمولية والدوام من أكبر أوصاف الإسلام وأهمّها، أي إنه يستوعب في داخله أفراد الإنسان كافّة من السود والبيض والحمير وسائر الأعراق و ... كما يستوعب امتداد الزمان، في ماضيه ومستقبله، إلى يوم القيامة.

وللإسلام، بوصفه أمراً إلهياً غالباً على الزمان والحركة والمادة مصوناً من الزوال والاندثار، علّة تامّة، مثله في ذلك مثل سائر الممكنات، وهذه العلّة التامة مكوّنة من

١- آل عمران: ١٩.

٢- آل عمران: ٨٥.

ص: ١٧

علّتين: إحداهما العلّة الفاعلة والأخرى العلّة القابلة، فالعلّة القابلة للإسلام هي الإنسان نفسه، والإنسان إنسان لا يتغيّر ولا يتبدّل بما جبل عليه من الفطرة الخاصّة والطبنة المخصوصة (١). وأما العلّة الفاعلة له فهي الله الذي لا تناله يد التغيرات ولا تحظى بكرامته شباك التحولات، فإنّ ذاته منبع الحياة والنور والعلم والقدرة، ولا سبيل فيها أبداً للموت والظلمة والجهل والاعتلال، فهي الذات العليمة- إذن- بمصالح الإنسان ومفاسده، والأقدر على تعليمه وهدايته إلى المدارج الرفيعة وتحذيره من السقوط في المهوى السحيقة، وتبيين درجاتها والإعلام بدرجاتها.

على هذا الأساس، فإنّ سرّ عالميّة الإسلام يكمن في:

أولاً: إنّ نزوله كان لتفتيح براعم الفطرة الإنسانيّة، تلك الفطرة التي لا ترتهن لأرض خاصّة ولا لتاريخ معيّن، كما لا مسير زمنيّ لها، بل لا- تنالها التأثيرات العرقية والقوميّة ولا الظواهر الجغرافيّة، ومن هنا تمثل البنية التحتيّة الراسخة للتربيّة، والأساس المحكم للإرشاد والتعليم.

ثانياً: إنّ معلّم الإنسان ومربّي البشريّة هو الإله الذي لا رخصه للجهل في الولوج إلى حريم علمه المطلق اللامتناهي، ولا فسحة للسهو والنسيان إلى حرم أمن حضوره وشهوده الدائم. من هنا كان الدين المرضيّ عنده هو الأساس الثابت والبناء الدائم الذي لا يعرف الزوال في هداية المجتمعات الإنسانيّة جمعاء.

والنتيجة المستخلصة أنّه لا مجال لتوهم التغيير في الإسلام، لا من ناحية الفاعل ولا من ناحية القابل، وهو ما تشهد له الآية الكريمة: (

(٢)

١- الروم: ٣٠.

٢- الشورى: ١٣.

ص: ١٨

أما اختلاف الشرائع والمناسك والمناهج فيما تحدّث الله تعالى عنه في قوله سبحانه: (١)، فإنما يرجع إلى التخصيص لا إلى النسخ، بمعنى أنّ الظروف الخاصية التي تعرض على المجتمع الإنساني تستدعي حكماً فرعياً وقانوناً جزئياً محدوداً يتأطر في حدود تلك الظروف نفسها، ومن ثمّ فانتهاه أحد تلك الظروف وحصول تغيير في الأوضاع يفضي تلقائياً إلى انتهاء عمر هذا القانون أو الحكم. إنّ الحجج - كما سنوضحه فيما بعد وبوصفه أحد أهمّ مظاهر الإسلام - مظهر تام للمبدأين المشار إليهما، عنيت: الشمولية والدوام.

الفصل الثاني مكانة الحج في الإسلام

للإسلام مبادئ وأركان، ومن أركانه الحج، كما قال الإمام الباقر (ع): «بنى الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية». (١)

وعليه، فمن لا يقيم الحج عمداً، يكون قد ترك ركناً من أركان دينه الإلهي، ومن ثمّ يؤدى ذلك إلى زوال الإسلام الكامل، من هنا عبّر الله تعالى عن الترك العمدي للحج بالكفر حين قال: (٢).

وحيث كان الإسلام ديناً عالمياً، يعلن دائماً عن مبدئه غير الفانيين أي «الشمولية» و «الدوام»، لذا كان لابد لبرامجه أن تكون عالميّة أيضاً، وتبدو معلماً حياً ومثالاً نابضاً بالشمولية والدوام.

إنّ الحج أحد أبرز مظاهر البرامج الإسلاميّة العالميّة، من هنا يمكن اعتبار دوامه وشموليته شاهداً ناطقاً على دوام هذا الدين الإلهي وشموليته، ولكي نبين عالميّة الحج، وأنه عبادة دنيّة تتمتع بالدوام والشمولية، نشير إلى بعض الشواهد القرآنيّة على ذلك:

١- الكافي ١٨: ٢.

٢- آل عمران: ٩٧.

ص: ٢٠

١- الحجّ هو قصد الكعبة وزيارتها، وإنجاز مناسك خاصّة، والكعبة أوّل بيت وضع لعامة الناس، وهي المركز الأوّل الذي يجذب إليه العابدين: (*...). (١)

إنّ التعبير عن بناء الكعبة بـ «بَكَّة» التي تعنى الازدحام يدلّل على أنّ الكعبة كانت محوراً عالمياً يُرجع إليه من مختلف نواحي العالم عبر الزمن، وأنّه على إثر تعاظم حجم الوافدين إليه أطلق على هذا المكان «بَكَّة». (٢)

٢- تؤمّن الكعبة الهداية للناس أجمعين، قال سبحانه: () وبناء عليه لا تختصّ الكعبة بأيّ فئة أو قوميّة أو عرق، ومن هنا يجلّ الناس من ملل العالم المختلفة، أعمّ من الهنديّة والفارسيّة

١- آل عمران: ٩٦-٩٧.

٢- ذكرت حول كلمة «بَكَّة» وجوه عدّة نشير هنا إلى بعضها:

أ- بَكَّة تعنى مكة، غايته أنّه أبدلت ميمها بالباء، تماماً ككلمتي «لازب» و «لازم». انظر: مجمع البيان ١- ٧٩٧: ٢.

ب- البك يعنى الدك، وحيث يتدافع الناس في أطراف الكعبة ويصطدمون ببعضهم البعض، ويزاحم بعضهم بعضاً، أطلق على ذلك المكان «بَكَّة»: «لأنّ الناس يبكّ بعضهم بعضاً». انظر: بحار الأنوار ٧٧: ٩٦.

ج- سمّيت بَكَّة لأنها تخضع الجابرة والمتكبرين وتذلّهم، وتدكّ الاستكبار وتحطّمه، كما قال أمير المؤمنين الإمام على حول النسبة ما بين مكّة وبكّة: «مكّة أكناف الحرم وبكّة موضع البيت». ثمّ يتحدّث عن سبب تسمية ذلك المكان ببكّة فيقول: «لأنّها بكت رقاب الجبارين وأعناق المذنبين». انظر: بحار الأنوار ١٢٧: ١٠.

د- يجب الإمام الصادق عن سؤال حول سبب تسمية الكعبة بكّة؟: «لبكاء الناس حولها وفيها». بحار الأنوار ٧٨: ٩٦.

لكن حيث إنّ التعليل المذكور في هذه الرواية لا ينسجم مع القواعد اللغويّة، حيث إنّ «بكّ» كان مضعفاً فيما كان بكى ناقصاً، يمكن أن يكون مراد الإمام أنّ الناس يلجؤون لعبادة الله والتضرّع في كنف حضرته إلى ذلك المكان فيزدحمون عنده، ويتسبب ذلك في تدافعهم وتصادمهم، ومن ذلك سمّيت «بَكَّة»، ومعه فيكون منشأ التسمية بـ بكّة هو ذلك الازدحام لا تلك الدمعات أو ذاك البكاء.

هذا وقد ذكرت وجوه أخرى لتسمية هذه البقعة بـ بكّة.

ص: ٢١

والكلدانية واليهودية والعرب، هذه الكعبة (١)، إن الله تعالى يتكلم في ذلك لخليله إبراهيم ٧ فيقول: (٢).
 ٣- ومن الشواهد الأخرى على المطلب المذكور قوله تعالى: (٣). ويتضح من ملاحظة ذيل هذه الآية: (٤)، أن الناس لم تدع إلى زيارة الكعبة بعد نزول القرآن فقط، وإنما كانت تقصدها قبل قرون سالفه من نزول الوحي على النبي (ص)، ذلك أن العهد الإلهي لإبراهيم وإسماعيل كان تطهير البيت لزواره والطائفين فيه والمعتكفين والراكعين الساجدين.
 ٤- شاهد قرآني آخر هو قوله تعالى: (٥). فإذا كان هدف الأنبياء الإلهيين كافة إقامة العدل والقسط بين الناس، كما قال تعالى: (٦). فإن الكعبة تمثل العامل المهم والعنصر الفاعل الذي يمكنه سوق تمام الخصوصيات العرقية والجغرافية والاختلافات المكانيّة والتباعدات الزمانيّة واللغوية ... سوقها جميعاً نحو جهة واحدة ومقصد فارد، وكذلك كشف الأجانب والغرباء، وتهيئة الأرضية المناسبة لقيام الناس كافة بالقسط والعدل.

١- الميزان ٣٥٨: ٣- ٣٦٣.

٢- الحج: ٢٧.

٣- البقره: ١٢٥.

٤- المصدر السابق.

٥- المائدة: ٩٧.

٦- الحديد: ٢٥.

ص: ٢٢

من هنا، يقول الإمام الصادق (ع): «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة». (١)

٥- لا اختصاص في الثقافة القرآنية لشعب خاص أو قاطنى منطقة معينة في امتثال القوانين الإلهية، لا سيما منها زيارة الكعبة، فليس أبناء منطقة خاصة أليق من غيرهم في القيام بمناسك الحج، فبعد المنزل في هذا السفر المعنوى كقربه لا فرق أبداً.

قال تعالى: (٢).

٦- وكما كانت زيارة الكعبة في الإسلام هجرة عامة جسمانية إلى الله تعالى (٣)، ضرورية في بسط العدل وإقامته، كذلك الحال في الأديان الأخرى، حيث كان الحج قانوناً رسمياً قائماً.

والشاهد على شهرة الحج: أنهم كانوا ينظمون توارىخهم وأرقام سنينهم بالحج، تماماً كما حصل في قصة موسى وشعيب (ع)، حيث ورد التعبير عن السنوات الثماني (٤)، ب- (٥).

وطبقاً لما أرشدتنا إليه الشواهد المذكورة أعلاه فإن الحج يمثل أحد أبرز مظاهر الإسلام التي تتحقق فيها وتليق بها مبادئ الدوام والشمولية، من هنا حصل لنبينا محمد (ص) ما حصل من قبله لإبراهيم الخليل، ومن قبلهما لآدم (ع). (٦)

من هنا، لم يكن الحج منسكاً خاصاً مميزاً لملء من الملل أو عصر من العصور، وإنما هو حج دائم وعام، وانطلاقاً من ذلك دام وجوده محمياً بين

١- وسائل الشيعة ١٤: ٨.

٢- الحج: ٢٥.

٣- انظر: وسائل الشيعة ٥: ٨.

٤- انظر: الكافي ٤١٤: ٥، وبحار الأنوار ٦٤: ٩٦.

٥- القصص: ٢٧.

٦- راجع: وسائل الشيعة ١٦٠: ٨- ١٧١.

ص: ٢٣

الأمم والشعوب المختلفة فيما مضى من سالف الأزمان مع تطاول السنين والأيام.

الفصل الثالث معالم الحج في القرآن الكريم

إشارة

١- الحج- بماله من كرامة خاصة- عهد إلهي يُتَشَرَّفُ به، من هنا، جاء التعبير عن وجوبه بلغة الميثاق والعهد الإلهي الخاص: (١). (١) ولانجد مثل هذا العهد في سائر العبادات، عهدٌ جاءت فيه كلمة الجلالة منضمَّةً إلى اللام (ل-)، ومقدَّمةً على متعلقها. لقد قال الله سبحانه في أمر الصيام: «الصوم لى وأنا أجزي به» (٢)، والحج يستوعب الصيام، ذلك أن الحاج الذي لا يملك هدياً يجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد عودته، قال تعالى: (٣). (٣) وهكذا كانت الصلاة مشرَّعةً في الحج بالطواف؛ إذ «الطواف بالبيت صلاة» (٤)، علاوةً على وجود فريضة الصلاة في الحج، ذلك أن الطائف يقف بعد طوافه خلف أو جنب مقام إبراهيم (ع) لإقامة صلاة الطواف، قال سبحانه: ()

١- آل عمران: ٩٧.

٢- وسائل الشيعة ٢٩٠: ٧.

٣- البقرة: ١٩٦.

٤- سنن النسائي ٢٢٢: ٥.

ص: ٢٥

(١). وبالصلاة هناك يُنال تمام ما للصلاة من مزايا وخصائص.

من هنا، جاء في الرواية أنّ الحج أفضل من الصلاة والصيام. (٢)

وهكذا، ينال الحاجّ بركات الزكاة في حجّه، ذلك أنّ في الحجّ إنفاقاً مالياً ونثاراً وإيثاراً يُعَدُّم البخل ويبدّده، فيحفظ الحجّ بذلك الأرواح والنفوس عن التلوّث بكدورات البخل ويحميها منه، وكل من كان محفوظاً من البخل فهو من الصالحين المفلحين، قال سبحانه: (٣).

وحصيلة الكلام، إنّ الحجّ تركيبة من عبادات متنوّعة، تشمل فضائل كثيرة تحتويها تلك العبادات (٤)، ليس هذا فحسب، بل مع ذلك كلّ، في الحجّ ميزته الخاصّة به، تلك التي لا يعثر عليها في غيره، وهذه الميزة عبارة عن كون الحجّ عهداً وmithaqاً خاصاً بين العبد وربّه سبحانه.

من هنا، جاء في الرواية عن الصادق (ع): «ودّ من في القبور لو أنّ له حجّةً بالدنيا وما فيها». (٥)

وقفات مع الخطاب الإلهي الخاصّ بالحج

تذكر آية: (٦). وجوب الحجّ وتنصّ عليه، في جوّ من التوكيدات الكثيرة، التي نشير هنا إلى بعضها:
أ- إن الجملة المشار إليها جملة خبرية، ودلالاتها على الإنشاء أقوى من دلالة

١- البقرة: ١٢٥.

٢- من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٢١.

٣- الحشر: ٩.

٤- وسائل الشيعة ٧٧: ٨-٨٣.

٥- المصدر السابق: ٨٢.

٦- آل عمران: ٩٧.

ص: ٢٦

الجملة الإنشائية نفسها عليه.

ب- إنها جملة إسمية، وهى جملة يعدّ توكيدها على معنى الثبوت أكبر من الجملة الخبرية الفعلية.

ج- إن الوجوب قد بين فيها مرفقاً بلام التكليف فى كلمة «الله»، وهو تكليف قدّم- بسبب أهميته- على المبتدأ وهو «حجّ».

د- ولمزيد من التوكيد، جاءت «على» فوراً، وبدون فصل، عقب كلمة «الله»، وهو ما يدلّ هنا على الوجوب ويرشد إليه.

ه- ورد ذكر المكلفين (١) فى الآية مرتين: ابتداءً بصورة الإجمال والعموم، واستمراراً بصورة التفصيل والخصوص.

ووجه التأكيد فى هذا السياق بيان الموضوع مع البدل، ثم ذكر البدل بمثابة التكرار، فبدل أن يقال: لله على المستطيع، قال: (... ..)،

فقد جاء بدل بعض عن الكل فى الآية موضع كلمة «الناس».

و- ولم تذكر الآية فى تاركى الحج: «ومن ترك الحج»، بل عبرت عنهم بكلمة (وَمَنْ كَفَرَ...)، وهو تعبير يقوم- كما تفيد الروايات-

مقام ترك الحج. (٢)

ومن الواضح أنه ليس المقصود بالكفر هنا الكفر الاعتقادى، بل الكفر العملى، وفى هذا المجال يقول الإمام الصادق (ع): «من مات

ولم يحجّ حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به، أو مرض لا يطيق فيه الحج، أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو

١- إن سعة مفهوم الحج وشموله بلغ حدّاً غدت فيه إطفاء المولود الصغير مشروعاً ومستحجاً، على خلاف سائر العبادات، التى يرى

بعض الفقهاء أن القيام بها فى سن الصغر إنما هو للتمرين.

٢- بحار الأنوار ٩٣: ٩٣، ٦٩، ١١٠.

ص: ٢٧

نصرانياً. (١)

ز- إن جملة: () في ذيل الآية جاءت لإبراز عدم الاعتناء بتارك الحج، أي أن الله سبحانه ليس مستغنياً عن تارك الحج فحسب، بل هو في غنى أيضاً عن العالمين بأجمعهم.

٢- لقد عدَّ الله سبحانه زمان الحج والعمرة ومكانيهما، وكذلك الحجاج والمعتمرين، بل حتى الذين يقصدون الحج والعمرة من أقصى نقاط العالم دون أن يكونوا قد وصلوا بعدد إلى الميقات، وكذلك أضاحى الحج، بل حتى ذاك الحذاء المتدلى - معلقاً - من رقبة الحيوان المصحوب، دلالةً على صيرورته أضحياً في الحج ... عدَّ سبحانه ذلك كله من الشعائر الإلهية، فقد قال: (٢). كما تحدت عن الصفا والمروة فقال: (٣).

ولكى يحث الآخرين ويرغبهم في تعظيم الشعائر وحفظ الحدود الإلهية، تحدت عن آثار تعظيم الشعائر فقال: (٤).

١- وسائل الشيعة ١٩: ٨، تدلّ فاء التفريع في «فليمت يهودياً أو نصرانياً» على الوجوب الفوري للحج، ذلك أن أحداً لا يعرف زمان موته، وهو في كل لحظة عرضة لهذا الخطر المحتمل الهائل، لذا لا يمكن للمستطيع أن يكون نائباً عن غيره، ذلك أنه ليس لأحد حق تأخير الحج عن سنة الاستطاعة.

أمّا تأخير المسلمين حجهم عن عام فتح مكة، وهو عام ٨هـ، لمدة عامين، ليحجوا في السنة العاشرة، فقد كان ذلك بسبب عقد عقده مع المشركين قبل فتح مكة أن لا يردوا مكة، أي أن الحج لم يكن واجباً على المسلمين بسبب انعدام الاستطاعة السريعة تخلياً الطريق من هنا، أرسل رسول الله في العام التاسع للهجرة، بعد فتح مكة، على بن أبي طالب مع جمع من المسلمين.

٢- المائة: ٢.

٣- البقرة: ١٥٨.

٤- الحج: ٣٠.

ص: ٢٨

وقال: (١). (١)

٣- وتعد الآيه المباركه: (٢). أنموذجا آخر من الدوال على أهميه الحج، فرغم أن كلمه «الناس» تشمل تمام الأمور التى يواجهها الناس ويتعاملون معها، إلا أن ذكر الحج مستقلا بعد ذلك، إنما جاء من باب ذكر الخاص بعد العام لبيان أهميه الخاص، ليقول: إن تغير أوضاع القمر وأشكاله جاء لكى يسهل على الإنسان تحديد أشهر الحج، حتى يتسنى للناس المبادره إلى إقامة الحج فى هذه الأشهر.

٤- ومع كثرة الآيات القرآنيه الحاكيه عن دلالة كل شىء على الله سبحانه وحكايته عنه، إلا أن موضوع الحج جاء التعبير عنه ب- (١). (٣) و (٤) نظراً لما فى الحج من خصوصيات متنوعه، زمانياً ومكانياً، ففى الحج آيات إلهيه، كالكعبه والحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وزمزم وغير ذلك من أمثاله مما هو واضح مشهود. فأرض قاحله لا- تقبل الزراعه، تغدو بدعاء النبى إبراهيم (ع): (٥). كعبه للمشتاقين، هى فى حد ذاتها من الآيات الإلهيه، كسائر بركات الحج وأسراره، مما لا يشاهد الكثير منها سوى أولياء الحق.

١- الحج: ٣٢.

٢- البقره: ١٨٩.

٣- آل عمران: ٩٧.

٤- لمكّه والحرم آداب وسنن، تنشأ جميعها من حرمة المسجد الحرام، وهكذا كانت للمسجد الحرام أيضاً آداب وأحكام وسنن، منشؤها احترام الكعبه، ولدى البحث عن مرجع الضمير فى «فيه» و «دخله» فى الآيات الشريفه: فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً و الحج: ٢٥، يلاحظ أنه يعود تارةً- بتناسب الحكم والموضوع- إلى أرض مكّه أو إلى دائرة الحرم، فيما يرجع أحياناً إلى المسجد الحرام، وأخرى إلى الكعبه، وهى القبلة والمطاف، وعليه فلم يكن مرجع الضمير واحداً، ذلك أنه- وكما جاء فى أبحاث عديده متنوعه- ليس من التهافت عود الضمير المذكور إلى أكثر من مرجع، نعم الكعبه بما لها من خصوصيه بوصفها القبلة والمطاف تبقى مكانتها محفوظه.

٥- إبراهيم: ٣٧.

ص: ٢٩

٥- إضافة إلى الآيات المذكورة آنفاً، ثم آيات أخرى طبقت في الروايات على الحج أيضاً، ومن بين هذه الروايات، ثلاث روايات نقلها هنا هي:

أ- معاوية بن عمّار قال: «سألت أبا عبدالله (ع) عن رجل له مال ولم يحج قط؟ قال: هو ممن قال الله تعالى: (. (١) قال: قلت: سبحان الله! أعمى؟ قال:

أعماه الله عن طريق الحق». (٢)

ب- عن أبي بصير قال: «سألت أبا عبدالله (ع) عن قول الله عز وجل: (. (٣) قال: ذلك الذي يسوّف نفسه الحج - يعني حجة الإسلام - حتى يأتيه الموت». (٤)

والمستفاد من هذين الحديثين أن باطن تارك الحج أعمى في الدنيا، وأنّ هذا الباطن، سيغدو ظاهراً في الآخرة، ولهذا سوف يحشر هذا الإنسان فاقد البصر يوم القيامة.

ج- طبقت في بعض الأحاديث الآيه المباركة: (. (٥) على الحج، منها ما قاله الإمام الباقر (ع) في تفسير المراد منها: «حجّوا إلى الله». (٦)

معالم الحج في الروايات

يعدّ الحج من أهم مظاهر الإسلام، نظراً لاشتماله على الكثير من السنن

١- طه: ١٢٤.

٢- وسائل الشيعة ١٧: ٨.

٣- الإسراء: ٧٢.

٤- وسائل الشيعة ١٧: ٨.

٥- الذاريات: ٥٠.

٦- وسائل الشيعة ٥: ٨.

ص: ٣٠

والأسرار، ولهذا وردت في أهميته، ومكاته، وأبعاده المختلفة، وأسرار تشريعه .. الكثير من الروايات عن المعصومين (ع)، ونحاول هنا الاكتفاء ببعض ما جاء عنهم (ع) في ذلك.

١- عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله (ع) عن أبيه، عن آباءه (ع): «أن رسول الله (ص) لقيه أعرابي فقال له: يا رسول الله! إني خرجت أريد الحج ففاتني، وأنا رجل مميل، فمرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاج.

فالتفت إليه رسول الله (ص) فقال: أنظر إلى أبي قبيس، فلو أن أباقبيس لك ذهباً حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما يبلغ الحاج. ثم قال: إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه.

قال: فعّد رسول الله (ص) كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه، ثم قال: أنى لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج، قال أبو عبدالله (ع): ولا تكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، وتكتب له الحسنات، إلا أن يأتي بكبيرة» (١).

ولعل مراد النبي (ص) من التأكيد على خروج الحاج من ذنوبه عقب أداء كل من المناسك، الإشارة إلى أن كل واحد من هذه الأعمال له دور في غفران نوع خاص من الذنوب، ولهذا كان واجباً لتحصيل هذه المغفرة الإلهية، أو أن المراد أن الذنوب حيث تراكمت و خزنت حتى غدت حجاباً يغطى قلب المذنب الخاطيء كان كل منسك من هذه المناسك موجباً لإنقاصها، ورفع هذا الغطاء تدريجياً عن صفحة

ص: ٣١

القلب.

٢- جاء في وصايا النبي (ص) لأمير المؤمنين (ع): «يا على! تارك الحج وهو مستطيع كافر، يقول الله تبارك وتعالى: (١)».

٣- وعن أمير المؤمنين (ع): «... وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبله للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولوة الحمام، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه شجاعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يُحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرتة، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائدين حرمًا، فَرَضَ حَقَّهُ، وأوجب حجّه، وكتب عليهم وفادته». (٢)

٤- ويقول على (ع) أيضاً حول فضيلة الحج والعمرة: «إن أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله ... وحج البيت واعتماره، فإنهما ينفيان الفقر، ويرخصان الذنب...». (٣)

٥- ويحتل الحديث عن الكعبة وأرض مكة وبيان سر كون بيت الله هناك قسماً أساسياً من الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين (ع)، ففي هذه الخطبة يشير الإمام (ع) إلى تاريخ الحج، وإلى دوره في خلق روح التواضع وتحطيم التكبر والاستكبار، إنه يقول في مطلع هذا القسم من خطبته: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرب ولا تنفع، ولا تبصر

١- آل عمران: ٩٧.

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ١.

٣- المصدر السابق، الخطبة: ١١٠.

ص: ٣٢

ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً...».

وفي ختام هذا القسم من الخطبة جاء: «... ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبد بهم بأنواع المجاهد، وبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتدلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحة إلى فضله، وأسباباً دُللاً لعفوه». (١)

٦- ويقول على (ع) أيضاً: «الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا». (٢)

(ع)- ويقول الإمام الباقر (ع): «بنى الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية- وبعد ذكر فضائل الخمسة قال:- قال رسول الله (ص): لحجة مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة» (٣)، رغم أن الصلاة عمود الدين و معراج المؤمن.

٨- ويتحدث الإمام الباقر (ع) أيضاً عن جامعية الحج وقدمه فيقول: «أتى آدم هذا البيت ألف آتية على قدميه، منها سبعمائة حجة، وثلاثمائة عمرة». (٤)

٩- وفي رواية منقولة عن الإمام الصادق، جاء عن زرارة: «قلت لأبي عبد الله (ع): جعلني الله فداك، أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، قال: يا زرارة! بيت حج إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسائله في أربعين عاماً». (٥)

١- المصدر السابق، الخطبة: ١٩٢ القاصعة.

٢- نهج البلاغة، الرسالة: ٤٧.

٣- الكافي ١٨: ٢- ١٩.

٤- وسائل الشيعة ٩٤: ٨، وقد ذكر أن عمر آدم كان من ٩٣٠ إلى ١٠٣٠ عاماً، فراجع ٢٦٨: ١١- ٢٦٩.

٥- وسائل الشيعة ٧: ٨، وثمة بحوث يمكن طرحها تخصّ جملته «ألفي عام قبل آدم»، كما توجد بحوث تتعلّق بالأجيال البشرية القديمة، ولكنها خارجة عن طاقة هذه الدراسة، وإنما نشير هنا إلى جملته «أربعين سنة سؤالاً وجواباً» الواردة في هذه الرواية، فقد ولد الإمام الصادق عام ٨٣ هـ، وتولى منصب الإمامة عام ١١٤ هـ، وقد توفي عام ١٤٨ هـ، وبهذا تكون مدّة حياته المباركة ٦٥ عاماً، فيما تكون مدّة إمامته ٣٤ عاماً، وبناءً عليه، فمقصود زرارة من كلمته «أربعين سنة» ما هو أعمّ من فترة الإمامة وما سبقها، ذلك أن الإمام كان عالماً بالأحكام الدينية حتى قبل إمامته، عندما كان تحت زعامة الإمام الباقر، أو أن المراد فترة إمامته البالغة ٣٤ سنة، وجاء التعبير بأربعين سنة على سبيل المتعارف، حيث لا يحسب العرف كسور العقود الزمنية، مكتفين بذكر الرقم التقريبي.

ص: ٣٣

١٠- وعن الإمام الصادق (ع) حول علمه وجوب الحج: «فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ... ولتعرف آثار رسول الله (ص) وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى». (١)

١١- ويوجب الإمام الصادق (ع) أيضاً عن سؤال وجه إليه عمّن أنجز حجّه الواجب عليه، فهل التصدّق في السنوات اللاحقة بدل الحج أفضل له أم لا؟ فيقول: «كذبوا، لو فعل هذا الناس لعطل هذا البيت، إن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس». (٢)

١٢- وحول الكعبة، يقول الإمام الصادق (ع) في إحدى الروايات: «جعلها الله لدينهم ومعاشهم» (٣)، تماماً كما جاء في رواية أخرى: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة». (٤)

والأصل هنا قيام الدين وقوامه، فالحج الذي لا يؤدي للدين ولا يُقام له لائمه من ورائه.

من هنا، قال النبي (ص): «يأتي على الناس زمان يكون فيه حج المملوك نزهة، وحج الأغنياء تجارة، وحج المساكين مسألة». (٥)

١٣- وعن آثار الحج وبركاته، يقول الإمام علي بن موسى الرضا (ع): «إنما أمروا بالحج لعلّ الوفاة إلى الله عز وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترب العبد، تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل...».

إلى أن قال: «وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه،

١- المصدر السابق: ٩.

٢- وسائل الشيعة ١٤: ٨.

٣- المصدر السابق: ٤١.

٤- المصدر السابق: ١٤.

٥- المصدر السابق: ٦٠: ١١.

ص: ٣٤

مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة (ع) إلى كل صقع وناحية». (١)

١٤- وما ورد في الحج بوضوح من الحق وسعة الرحمة لم يرد في أي من العبادات الأخرى، فالله تعالى يتحدث عن وضوح الحق في الحج بالقول: (٢) ذلك أن أسرار الحج، وهي آيات الله تعالى، ستكون واضحة بينة هناك.

سعة رحمة الحج

أما فيما يخص سعة رحمة الحج:

أ- فيتحدث الإمام الباقر (ع) عن خرج قاصداً الحج الواجب ثم مات وهو في الطريق: «إن مات في الحرم فقد أجزأت عنه حجة الإسلام...». (٣)

وهذا مظهر من مظاهر سعة الرحمة، وأدب الضيافة الإلهية.

ب- ويقول رسول الله (ص) في حجة الوداع، عند الوقوف بعرفات قريب الغروب: «إن ربكم تطول عليكم في هذا اليوم، وغفر لمحسنكم، وشفع محسنكم في مسيئكم، فأفيضوا مغفوراً لكم». (٤)

ج- ولعله لما في الحج من خصوصيات كهذه قال الإمام الصادق (ع) لعيسى ابن أبي منصور: «يا عيسى! إنى أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تتهيأ للحج». (٥)

د- وفي رواية أخرى عنه (ع): «ليحذر أحدكم أن يعوق أخاه عن الحج، فتصيبه

١- المصدر السابق ٧: ٨-٨.

٢- آل عمران: ٩٧.

٣- وسائل الشيعة ٤٧: ٨.

٤- المصدر السابق ٦٥: ٨.

٥- المصدر السابق: ١٠٦.

ص: ٣٥

فتنة في دنياه مع ما يُدخر له في الآخرة». (١)
 ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يمنع عن غيره خيراً كالحج، بل إن على المسلمين الذين أقدموا بأنفسهم على تأدية فريضة الحج أن يشجعوا الآخرين عليها ويحثوهم على أدائها.

عظمة الحج في أدعية شهر رمضان

ويكفي لإبراز أهمية الحج، مع أحكامه وحكمه الخاص، مطالعة ما جاء بصورة مكررة- في طلب الحج في أدعية شهر رمضان المبارك (٢)، بحيث لانجازف إذا قلنا: إن صيام هذا الشهر، وأدعيته الليلية، ومناجاته السحرية، وأوراده اليومية تهىء الإنسان للحج، ودرك ما قيل فيه من حكم ومفاهيم و... من قبيل: «الساجد بمكة كالمشحط بدمه في سبيل الله». (٣) و «تسيحه بمكة أفضل من خراج العراقيين ينفق في سبيل الله». (٤) و «من ختم القرآن بمكة لم يمت حتى يرى رسول الله (ص)، ويرى منزلته في الجنة». (٥) و «النظر إلى الكعبة حبا لها يهدم الخطايا هداماً». (٦)
 إن طلب التوفيق لإدراك الحج في أدعية شهر رمضان المبارك ملفت للنظر، إلى

١- المصدر السابق: ٩٨.

٢- مفاتيح الجنان، الأعمال المشتركة، أعمال ليالى وأيام شهر رمضان المبارك، دعاء أبى حمزة الثمالى، أدعية ليالى القدر و... وقد جاء فى قسم من الدعاء الأول فى الأعمال المشتركة: «اللهم ارزقنى حج بيتك الحرام، فى عامى هذا وفى كل عام ... اللهم إنى أسألك فيما تقضى وتقدر ... أن تكتبنى من حجاج بيتك الحرام، المبرور حجهم ...».

٣- وسائل الشيعة ٣٨٢: ٩-٣٨٣.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق: ٣٤٠.

٦- المصدر السابق: ٣٦٥.

ص: ٣٦

حدّ ربما يمكن القول بأنّ الله سبحانه كان يريد توفير الأرضية المناسبة لهيئة بذلك ضيافته عبر أشهر متعدّدة، لا سيما العشر الأوائل من ذى الحجة.

وبناءً عليه، يكون شهر رمضان المبارك بداية الضيافة الإلهية، فيما يكون ذوالحجة منتهاها، وذلك في موسم أداء مناسك الحج. إن الحج ضيافة الله، والحجاج - كالصائمين - ضيوف الرحمن، تماماً كما قال الإمام الصادق (ع): «إنّ ضيف الله عزّوجلّ رجل حجّ واعتمر، فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله». (١)

ويقول الإمام على (ع) في ذيل جوابه عن سؤال: لماذا حرم الصوم في أيّام التشريق؟ (٢): «لأنّ القوم زوّار الله فهم في ضيافته، ولا يجمل بمضيف أن يصوم أضيفه». (٣)

إنّ هذه الضيافة ذات الأشهر المتعدّدة تقع على مرحلتين:

الأولى: يقول فيها المضيف لضيفه: أطلب ما تريد.

الثانية: إعطاء المضيف ضيفه ما كان طلبه منه.

فالضيافة الخاصّة بشهر رمضان المبارك توفر أرضية مناسبة لضيافة الحج، ففي شهر رمضان، يقول المضيف، وهو الله سبحانه، لعباده الصائمين: «اطلبوا منّي الحج»، أما في الضيافة الثانية، أي في مراسم الحج ومناسكه، فإنّ الحديث يكون عن العطاء لا الطلب.

ملاحظة

حيث كانت الولاية من أركان الإسلام والحج، جاء في أدعية شهر رمضان المبارك - إلى جانب طلب الحج وزيارته بيت الله الحرام - طلب آخر، وهو التشرّف بزيارة

١- وسائل الشيعة ٤٥٨: ١٠.

٢- أيام التشريق هي اليوم الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، ويحرم على الحاضرين في منى في هذه الأيام الصيام.

٣- وسائل الشيعة ١٥٩: ٨ - ١٦٠.

ص: ٣٧

العبات المقدسة وزيارة الحرم المطهر لرسول الله ٩ والأئمة المعصومين (ع): «اللهم ... ارزقني ... زيارة قبر نبيك والأئمة (ع)، ولا تخلني يا رب من تلك المشاهد الشريفة». (١)

الشرف الزماني للحج

«ما من أيام أزكى عند الله تعالى، ولا أعظم أجراً من خير في عشر الأضحى». (٢)

و «ما من أيام، العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من أيام العشر، يعني عشر ذي الحجة ...، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع بشيء من ذلك». (٣)

يعتبر العارف الجليل الميرزا جواد آقا ملكي الحديث الثاني من هذين الحديثين النبويين أكثر أهمية، وهو الحديث الناظر إلى عظمة العشر الأوائل من ذي الحجة وشرفها. (٤)

وسر هذه الأهمية في الرواية الثانية حديثها عن المحبة، لا عن العظمة، ومجيء كلمة «أحب» فيها، وهي أكثر دلالة واختزاناً للمعاني من «أزكى» و «أعظم».

والظاهر أن أفضلية الحج وأيامه الخاصة لم تنشأ فقط من البعد العبادي الذي فيه، وإنما ذلك من جوانب عدة أخرى لها الدور في هذه الأفضلية، فأهم حادثة وقعت في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وهو أحد أشهر الحج، دحو الأرض، طبقاً لبعض الروايات، يعني دحو الأرض ظهور أرض الكعبة وحرم الله واتساعهما. (٥)

وفي العشر الأوائل من ذي الحجة كان نزول سورة البراءة وإبلاغها بيد أمير التبري علي بن أبي طالب (ع) أهم حادثة تاريخية حصلت، فقد كان الآخرون على

١- مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

٢- وسائل الشيعة ٢٢١: ١٠.

٣- وسائل الشيعة ٢٢١: ١٠.

٤- التبريزي، المراقبات: ٣٢٦، الفصل: ١٢.

٥- وسائل الشيعة ٣٣١: ٧-٣٣٢، و ٣٤٧: ٩-٣٤٨.

ص: ٣٨

أمل في أن يكلفوا إبلاغ البراءة وقراءتها، إلا أن الوحي الذي جاء بسورة البراءة وبلاغاتها، أعطى بنفسه أمراً لكي يبلغ تبرّيها على يد شخص يكون بنفسه مظهراً للتولى والتبرّي.

«لا يؤدّيها إلا أنت أو رجلٌ منك».

من هنا، كان أمير المؤمنين على (ع) - وهو الرسول نفسه (١) - المكلف بتليغها. (٢)

إنّ هذه الأحداث ونظائرها تدلّل بوضوح على أنّ زمان الحج له من هذه الجهات المذكورة فضيلة أيضاً، فكل زمان يمنحه مظهره الشرف، وكل مكان يمنحه المكين فيه الفخر، وإلا فلا فرق بين الأزمنة في الجوهر، من حيث أجزائه، كما لا فرق في المكان وجوهره بين الأبعاد الهندسية، أي: الطول، والعرض، والعمق أو الارتفاع.

نعم، إذا ما كان لشيء في مخزن الغيب تعين، فمن الممكن أن يحتوى على خصوصية، تظهر بعد التنزل، أمّا لو لم يكن لهذا الشيء في رتبة الغيب أيّ تعين، إنّما حاز تعينه في المرتبة اللاحقة، فإن خصوصيته إنّما تظهر في مرتبة التعين تلك.

تنظيم العقود باسم الحج

ولكى تبقى السنة الإبراهيمية في الحج حيّة في ذاتها واسمها، كان الأنبياء الإبراهيميون: ينظمون عقودهم واتفاقاتهم من أبسطها إلى أهمّها في موسم الحج أو باسمه، تماماً كان الحال في الاتفاق الذي وقع بين موسى وشعيب (ع) إجارةً واستئجاراً، فقد استخدم تعبير «ثمانى حجج» بدلاً من ثمانى سنوات: (٣).

إنّ تسمية هذا الشهر واشتهاره حتّى في العهد الجاهلي بذي الحجة إنّما كان لأداء

١- في سورة آل عمران، الآية ٦١، جاء:

٢- بحار الأنوار ٣٠٣: ٣٥.

٣- القصص: ٢٧.

ص: ٣٩

«حج البيت» فيه، وهذه التسمية والشهرة تدلّ على شهرة مراسم الحج كما تدلّ على أهميتها.

أبرز اتفاقات أيام الحج ومواعيها

إن نيل الكمال المعنوي والوصول إلى المقامات السامية يحتاج في الحد الأدنى إلى أربعين ليلةً ونهاراً متواصلهً من الجهاد والسعي المخلص، «ما أخلص عبد الله عزوجل أربعين صباحاً إلّا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». (١)

إن شهر ذي القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة، وهي من أبرز مصاديق (٢)، أبرز فرصة لاتخاذ الأربعين المشار إليها. فعندما تشرف موسى الكليم (ع) بمقام النبوة الرفيع، عقد الله تعالى معه أهم اتفاق في أشهر الحج: (٣) و (٤)

وقد بدأت هذه الأربعين من بداية شهر ذي القعدة حتى العاشر من ذي الحجة، حيث تبلغ مراسم الحج وزيارة بيت الله الحرام مبلغها، وقد كان موسى الكليم (ع) صائماً على الدوام خلال هذه الأربعين، ليلاً ونهاراً. (٥)

وفي هذه الأربعين، ارتوى موسى (ع) تماماً من شوق لقاء الحقّ تعالى، وكانت حصيلتها، إضافةً إلى شهود الحق سبحانه (٦)، تلقى التوراة. (٧)

١- بحار الأنوار ٢٤٢: ٦٧.

٢- الفجر: ٢.

٣- الأعراف: ١٤٢.

٤- راجع: الكافي ٧٨: ٤؛ وتفسير العياشي ٢٥: ٢.

٥- الدرّ المنثور ٥٣٥: ٣- ٥٣٦.

٦- الأعراف: ١٤٣.

٧- الأعراف: ١٤٥.

ص: ٤٠

والمقصود هنا أنّ هذه المواهب والعطاءات كانت نصيب موسى (ع) في أيام إقامة مناسك الحج. إن هذا العهد والاتفاق، واحد من أبرز الاتفاقات والموائيق التي وقعت بين الخلق (موسى) والخالق، فيما كان عقد الإجارة بين المخلوقين (موسى وشعيب (ع)) من أبسط العقود والاتفاقات الواقعة.

الفصل الرابع الحج، تجسد الأصول العقائدية

مظهر التوحيد

الخلوص شرط معتبر في تمام العبادات، إلاً أن تجليه في بعضها يبدو أكثر ظهوراً، كما وطرد الشرك أكثر قوةً ووضوحاً، ومن بين هذه العبادات الحج، الذي يتجسد فيه التوحيد، ويظل من بدايته وحتى نهايته، أنموذجاً للتوحيد ونفي الشرك، من هنا كان تركه كفراً. (١)

ومعنى تجلى التوحيد في الحج أن تنزله في درجاته يصيره حجاً، كما أن صعود الحج كذلك يبلغ به الله تعالى أو يتحول إلى التوحيد. يقول الإمام الصادق (ع) فيما ينقل عنه من دعاء سفر الحج: «... بسم الله دخلت، بسم الله خرجت وفي سبيل الله...» إلى أن يقول: «فإنما أنا عبدك وبك ولك». (٢)

وعلى أساس هذه الرواية، يغدو الحج سيراً نحو الله سبحانه، ورحلةً إلى لقائه، وسعياً للقرب منه، ومن الواضح أن العبد لا يقدر على التقرب من مولاه إلاً

١- آل عمران: ٩٧.

٢- وسائل الشيعة ٢٧٩: ٨.

ص: ٤٢

بالتوحيد الدائم الأصيل، ونفى الشرك الجلي والخفي.

الشاهد الآخر هنا كلام النبي (ص) في سفر الحج بعد حمل الجهاز على الراحلة: «هذه حجة لا رياء فيها ولا سمعة»، ثم قال: «من تجهز وفي جهازه علمٌ حرام لم يقبل الله منه الحج». (١)

وعليه، فالحج توحيد مجسم وأنموذج من التوحيد الجامع، والتوحيد هو تلك الفطرة التي خلق الله الناس عليها، والتي لا تبديل لها ...

الوحي المجسم

الحجّ تمثيل للوحي، ذلك أن مناسكه تجلّت بالوحي وظهرت، وقد أخذها الأنبياء عن الملائك الأمين على الوحي جبريل (ع). وتوضيح ذلك أن النبي إبراهيم (ع) طلب من الله سبحانه بعد بناء الكعبة أن يُبدي له كيفية العبادة في هذا البيت: (٢)، وبعد هذا الطلب جاءه جبرائيل، وأنجز أمامه أعمال الحجّ، ودلّه على مناسكه بصورة عينية خارجية، ليقوم الخليل (ع) بتكرار هذه الأعمال بعده.

(٣)

إنّ هذه الإراءة والتعليم لم يكونا شيئاً جديداً ولا من مختصات إبراهيم (ع)، بل قد تقدّمه آدم (ع) في هذا المضمّار، حيث ظهر له جبرئيل، كما ظهر أيضاً على أفضل الأنبياء وخاتمهم (٤)، فأخذ منه الرسول الأكرم (ص) مناسكه.

يقول الإمام الصادق (ع) في هذا المجال: «إنّ الله بعث جبرئيل إلى آدم، فقال: ... إن الله أرسلني إليك لأعلمك المناسك التي تطهر بها ...». (٥)

١- وسائل الشيعة ١٠٣: ٨.

٢- البقره: ١٢٨.

٣- وسائل الشيعة ١٦٠: ٨- ١٧١.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

ص: ٤٣

ويقول الإمام الصادق (ع) أيضاً: «كنت أطوف مع أبي، وكان إذا انتهى إلى الحجر مسحه بيده، وقبله، وإذا انتهى إلى الركن اليماني التزمه، فقلت: جعلت فداك، تمسح الحجر بيدك وتلزم اليماني؟ فقال: قال رسول الله (ص): ما أتيت الركن اليماني إلّما وجدت جبرئيل قد سبقني إليه يلتزمه». (١)

وبعد أن اتضح أنّ الحجّ وحى ممثل، وأنّ باني الكعبة قد تعلّم مناسكه بالمشاهدة والعيان، لزم أن يكون الناس مأمورين بإقامه هذه المناسك التي ورثوها عنه، علّهم يرون بعضاً قليلاً مما كان رآه (ع)، قال تعالى: (٢)؛ ذلك أن ما يفهم من كلمة (يأتوك) في هذه الآية هو مجيء الناس عند إبراهيم (ع)، وبلوغهم ما كان (ع) قد بلغه من قبل، لا مجرد السفر إلى مكّة وزيارة الكعبة، ذلك أنّ هذا التعبير لا ينحصر بدائرة عمل المناسك والقيام بها.

فالمحيدون الذين يأتون إبراهيم (ع) هم أولئك الذين كانوا مثله في الوقوف بوجه عابدى الهوى والأصنام (٣)، والتبرّى من الكفر والنفاق وما يعبدون من دون الله (٤)، مهيشين لتلقى ألوان المخاطر (٥)، بعقيدة حنيفية وسلوك كذلك (٦)، وقلب سليم (٧) حاضر في محضر الله تعالى.

ومع الأخذ بعين الاعتبار هذه الخصوصيات، قال تعالى: (٨)، من هنا قدّم رسول الله (ص)

١- وسائل الشيعة ٤١٩: ٩.

٢- الحج: ٢٧.

٣- الأنبياء: ٦٧.

٤- الزخرف: ٢٦.

٥- الأنبياء: ٦٨.

٦- الأنعام: ٧٩.

٧- الصافات: ٨٤.

٨- آل عمران: ٦٨.

ص: ٤٤

قربانه الذى لم يقدّمه إبراهيم (ع) نفسه، ألا وهو الحسين بن على (ع). ومع ملاحظه النقاط المشار إليها، يتضح أمامنا سرّ عرض إمام الزمان (ع) نفسه فى بداية نهضته ضدّ الظلم ولأجل العدل على أنّه أولى الناس بالأنبياء سيما إبراهيم الخليل ورسول الله (ع): «إن القائم إذا خرج، دخل المسجد الحرام فيستقبل الكعبه، ويجعل ظهره إلى المقام، ثم يصلّى ركعتين، ثم يقوم فيقول: يا أيها الناس! أنا أولى الناس بآدم، يا أيها الناس! أنا أولى الناس بإبراهيم...» (١). ومن ذلك كلّ يتضح البعد السياسى للحج، أى البراءة من المشركين وتجافيتهم وإعلان الانزجار منهم، وقطع أيديهم وتدخلاتهم، ذلك كلّ بشكل واضح وعلنى هو ما يمثل المناسك السياسيه للحج.

المعاد المَجَسَّم

لا يُعثر على الحج بمناسكه الخاصه به فى أى عباده أخرى، ولا يعلم تأويلها غير الله سبحانه، فهو معاد مجسّم، وحكاية عن يوم البعث والنشور، وكاشف واضح عن يوم الحشر، ذلك أن الناس تلبى هناك نداءً واحداً على ما بينها من اختلاف فى اللغات والألوان، فتجيب أمراً واحداً، وتستجيب لصرخه واحده، ولا أمر يُصدر أو امره لهم عدا الله الواحد القهار. إن مناسك الحج أنموذج حى لأحداث القيامة والحشر الأكبر، وتمثّل جلى لحشر الناس يوم القيامة عراه فى يوم معاد. ونشير هنا إلى نماذج من تجلّى المعاد فى الحج:

- ١- اجتماع الحجاج فى المواقيت وعند المواقف.
- ٢- انفراد كل إنسان لوحده فى ظلّ هذا الجمع، تماماً كما هو الحال يوم

ص: ٤٥

المعاد، فهو وإن كان «جمعاً» تلتئم الناس فيه وتلتف حول بعضها: (١)، (*) (٢)، إلّا أنّه يوم يعود الجميع فيه إلى الله فرادى، كما قال تعالى: (٣).

٣- فرار الناس من غير الله إلى الله تعالى، كما يقول الإمام الباقر (ع) في تفسير قوله تعالى: ففَرَّوْا إِلَى اللَّهِ (٤): «حَجَّوْا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ».

(٥)

٤- تعزّيهم من اللباس ومظاهر الحياة الدنيوية.

٥- تجرّدهم عن زينة الدنيا وزهرتها.

٦- رؤية الآيات الواضحة التي كانت مخفية عليهم في ديارهم.

٧- خلعهم على أنفسهم لباس الإحرام، وهو لباس شبيه بالكفن، ويستحب للحاج أن تكون قطعنا الإحرام كفته، كما كُفّن النبي الأكرم (ص) في لباس إحرامه. (٦)

٨- تذلل الحجاج وتواضعهم أمام الله سبحانه، حتى أنّهم يحجون مشاةً حفاةً بأرجل عارية، ذلك أنّه «ما عبد الله بشيء أفضل من المشى». (٧)

من هنا، حجّ الإمام الحسن المجتبي (ع) عشرين حجةً ماشياً (٨)، وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق (ع): «جعل السعى بين الصفا والمروة مذلةً للجبارين». (٩)

١- التغبين: ٩.

٢- الواقعة: ٤٩ - ٥٠.

٣- مريم: ٩٥.

٤- الذاريات: ٥٠.

٥- وسائل الشيعة ٥: ٨.

٦- المصدر السابق ٣٧: ٩.

٧- المصدر السابق ٥٥: ٨.

٨- المصدر السابق.

٩- المصدر السابق ٥١١: ٩.

ص: ٤٦

٩- اعتراف الناس بذنوبهم التي ارتكبوها.

١٠- أمن الناس بل والوحوش والطيور.

١١- حماية الحجاج من التعدي والجدال، وكلّ ما يوجب أذية المحرم أو عذابه، وهو تجسيد واضح لقوله تعالى: (١). [\(١\)](#)
وحصيلة القول: الحج مظهر المعاد وتجسيده، وحيث كان المعاد رجوعاً إلى المبدأ كان أساساً للإسلام الكلي والخالد، لذا غدا الحج من أهم مظاهر الإسلام وأركانه.

١- غافر: ١٧.

ص: ٤٧

الفصل الخامس الولاية روح الحج

تمهيد:

لا- نفع للحج بدون الولاية، ولا- لقصد الكعبة من دون الإمامة، ولا- لحضور عرفات دون معرفة الإمام، ولا للأضحية في منى دون التضحية في طريق الإمامة، ولا لرمى الجمره دون طرد شيطان الاستكبار الداخلى والخارجى، ولا للسعى بين الصفا والمروة دون السعى لمعرفة الإمام وطاعته... فإنه وإن كان من أركان الإسلام ومبانيه، إلا أن الحج والصلاة والزكاة والصوم لا تضاهى جميعها الولاية في ركنيتها الراسخة والقوية للإسلام، «ولم يُناد بشيء كما نودى بالولاية». (١)

منشأ حرمة الكعبة وعزتها

من جملة الأمور التي أقيمت عليها البراهين العقلية، ضرورة انتهاء كل ما بالعرض إلى ما بالذات، ووفقاً لهذا المبدأ الذي توافق عليه البرهان والقرآن، وكما أن كل عزّة - طبقاً لتصريح النص القرآني - تنتهى إلى عزّة الله سبحانه: (٢) و (٣).

١- الكافي ١٨: ٢.

٢- لمنافقون: ٨.

٣- فاطر: ١٠.

ص: ٤٨

وفقاً لذلك كله فإن حرمة الكعبة وعزتها لا بد أن تنتهي إلى حرمة الحق سبحانه وعزته تماماً، كما إذا دار الأمر بين هدم الكعبة وهدم الحق فإن الكعبة تغدو حينئذ قرباناً فداءً للحق.

ولتوضيح الأمر لا بد من القول: للحرم أحكام تبيّن عزته وفضيلته، وتماثل هذه الأحكام ناتج عن حرمة الكعبة وعزتها، وشاهد ذلك ما جاء في الرواية عن أمير المؤمنين (ع) حول سرّ الوقوف في عرفات، وعدم وجوب الوقوف في الحرم حيث قال: «لأن الكعبة بيته، والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين وقفهم بالباب يتضرعون»، ثم سئل الإمام (ع) عن جعل المشعر الحرام من الحرم فقال: «لأنه لما أذن لهم بالدخول وقفهم بالحجاب الثاني، فلما طال تضرعهم بها أذن لهم بتقريب قربانهم، فلما قضوا تفتهم تطهروا بها من الذنوب التي كانت حجاباً بينهم وبينه، أذن لهم بالزيارة على الطهارة» (١).

فحرمة الأرض التي احترم الله كل ما فيها إنما جاءت من حرمة الكعبة نفسها، إلا أنه مع كون الكعبة القبلة الوحيدة، ومطاف العالمين، وموت المسلمين جميعهم إلى جهتها، والقصد إليها قصد للهجرة إلى الله سبحانه، وأيضاً رغم أن لمكة خصائص فقهية وسياسية ثابتة، تفتقدها سائر الأماكن والبقاع والمدن، ورغم أن للحج ومواقفه أبعاداً سياسية-عبادية تفتقدها بقيه العبادات ... إلا أن تمام هذه الخصائص والمزايا مرهونة للولاية والإمامة.

وسرّ هذا الكلام أن الإرشادات والإدارات الملكوتية للأعمال والنيات، والأدعية، ومشاهدة الآيات البيّنات، وفهم الأسرار المعنوية للحج، وأمثال ذلك يتم جميعه في ظل الولاية التكوينية للإمام المعصوم (ع)، كما أن الإدارة والرعاية السياسية للحج

ص: ٤٩

ومواقفه، وتوجيه حركة هذا الاجتماع العظيم للصالحين على محور البناء الطاهر الحر، والاستفادة من أفكار أقطار العالم، وارتواء عطاشى الاستقلال والنجاة من الاستعباد والاستكبار العالمى، إنما يكون بالأصالة تحت مظلة إمامة الإمام المعصوم (ع) وبالنيابة فى عصر الغيبة تحت شعاع نوابه.

ارتباط الحج وشؤونه بالولاية

ترتبط الجوانب والشؤون المختلفة للحج بالولاية، ونعرض هنا شرحاً لكيفية هذا الارتباط بين الكعبة والولاية، وكذلك طبيعة العلاقة بين كل من عرفات والمشعر ومنى وزمزم والصفاء و... وبين الإمام المعصوم (ع)، وذلك فى ثقافة الوحي ووفق ماجاء على لسان الأئمة المعصومين..

١- تتمتع مدينة مكة ودائرة الحرم كله ببركة خاصة إثر دعاء الخليل إبراهيم (ع)، وقد جعلت بهذا الدعاء بلداً آمناً، تماماً كما يقول الله تعالى: (١). (١)

إن هذا الأمن الاجتماعى، والاقتصادى وغيره، الذى جاء بيانه فى آية (٢) وآية: (٣)، إنما كان لما للكعبة من حرمة، إلا أن هذا الاحترام الخاص الذى كان أساساً لقسم الله سبحانه بهذا البلد، إنما جاءها من بركات الوحي، والنبوة، والرسالة، والولاية. وتوضيح ذلك، أن القرآن الكريم أقسم ببلاد وبقاع هامة وتاريخية، كما أقسم

١- القصص: ٥٧.

٢- قريش: ٤.

٣- العنكبوت: ٦٧.

ص: ٥٠

بالزمان والأوقات الحساسة والتاريخية، نظير عصر الوحي والرسالة (١)، قال تعالى: (*). (٢).

ففي هذه الآيات يقسم الله سبحانه بأرض مكّة، لكن قسماً مقيداً بكون نبي الإسلام (ص) فيها، وإلا فإن مكّة من دون النبي، والكعبة من دون قائد سماوى ليستا سوى أرض عادية، وبيت عادى غداً تدريجياً بيتاً لعبادة الأصنام، وأصبح أسيراً فى قبضة عبده الأوثان والسائرين خلف ميولهم وشهواتهم حتى أن «أبو غبشان» سادن الكعبة ومن بيده مفاتيحها يبيع مفتاح الكعبة وغلقتها إلى رجل يدعى قصي بن كلاب مقابل بعير وزق خمر، وذلك فى ليلة ثملة. (٣)

٢- ويعرّف الإمام السجاد (ع) نفسه وسائر الورثة الحقيقيين الإلهيين فى المسجد الجامع بدمشق، بعد الحمد والثناء الإلهيين، والسلام على النبي الأكرم (ص) فيقول: «.. أنا ابن مكّة ومنى، أنا ابن زمزم والصفاء». (٤)

إن كلمة «ابن» وأمثالها فى اللغة العربية تحكى عن علاقة شديدة وارتباط دائم ومستحکم، فالإنسان الكامل، وهو أصل حرمة المراكز العبادية، وفى الوقت عينه إنها ووارثها، يرجع فى طليعة الأمر إليها ويعمل طبق أحكامها، بل يجعل ذلك كله ضمن الشعارات الرسمية للموحدين، فيرغب فيها، ويرهب من الإعراض عنها أو الاعتراض عليها أو معارضتها، وفى المحصلة النهائية: إنه حافظ مآثرها وحارس آثارها، إن الأنبياء والأولياء الإلهيين: هم كذلك بالنسبة إلى مناسك الحج.

وبعبارة أخرى: إنهم أبناء هذه المواقف العبادية بلحاظ بعض النشآت الوجودية، وهم أمراؤها وأصلها ومصدرها بلحاظ نشآت وجودية أخرى.

١- العصر: ١.

٢- البلد: ١- ٢.

٣- الميزان ٣٦٢: ٣.

٤- بحار الأنوار ١٣٨: ٤٥.

ص: ٥١

ومعنى الكلام النوراني للإمام السجاد (ع) أن الابن الحقيقي لمكة إنما هو حامى روح القبلة، وحارس قلب المطاف ونفسه، إن الابن الواقعى لمنى هو ذاك الذى لا بأسف على إثثار بدم أو نثار، بغية حفظ الوحي وما فيه، إنه يُحكم علاقته بأرض التضحية عبر الفداء والعطاء.

إن المولود الحقيقى لزمزم إنما هو الذى يرش أفضل الدماء تحت أقدام غرس الإسلام، حتى تنمو بذلك وتكبر، كما أن الابن الواقعى للصفاء، هو الذى لا سبيل للرجس والنجس والرجز إلى حرم قلبه، فهو منزّه- طبقاً لآية التطهير (١)- عن مختلف أنواع الرجس، وكل قذارة ولوث وذنس.

عرفات دون معرفة الإمام

الإنسان الكامل هو الإمام المعصوم (ع) والذى بدونه لا حرمة للحرم ومواقفه، من هنا، فالزائر الذى لا يعرف الإمام المعصوم، ويضع جانباً مسألة الإمامة، ويتخذ إدارة أمور المسلمين فى العالم هدواً وباطلاً، ويفصل ما بين قيادة سواد الناس وبين الحج والزيارة وسائر العبادات، ويراها أمراً عادياً يرجع إلى خيار كل فرد من الناس، ولا يرى كرامةً لهداية خلق الله وتدبير أمورهم... لا يعرف فى الحقيقة الإنسان، بل لم تطأ قدمه حريم الإنسانية، من هذا المنطلق يتحدّث الإمام الباقر (ع) عن مثل هذا الزائر والحاج فيقول: «أترى هؤلاء الذين يلتون، والله لأصواتهم أبغض إلى الله من أصوات الحمير». (٢)

ومع الأخذ بعين الاعتبار مقولة رسول الله (ص): «من مات ولم يعرف إمام زمانه فقد مات ميتة جاهلية» (٣) و «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تبعثون، وكما

١- الأحزاب: ٣٣.

٢- وسائل الشيعة ٥٧: ٩.

٣- المناقب ٢٤٦: ١.

ص: ٥٢

تبعثون تحشرون» (١)، فإن حياة الإنسان الذي لا يعرف إمامه هي حياة جاهلية، وكل سننها وشؤونها إنما هي جاهلية في جاهلية، ومن المؤكد قهراً أن زيارة مثل هؤلاء للبيت وحجهم سيكون حجاً جاهلياً، ولن يكون لهم نصيب من الحج التوحيدي، وسيأتي مزيد توضيح.

٣- لقد أعد الله سبحانه عذاباً لكل من أراد بالكعبة ظلماً وقصداً سيئاً: (٢)، من هنا وانطلاقاً من هذه السنّة الإلهية التي لا تبديل فيها، والحكم الإلهي الخالد، لم تكن واقعة الفيل، والتي تلقى فيها جيش أبرهه عذاباً إلهياً، واقعةً حصرية لا تكرر فيها، أو مجرد صدفة تاريخية.

الأمر الرئيس الذي لا ينبغي الغفلة عنه، وهذه الدراسة متكفلة لبيانها، هو أن الكعبة رغم قداستها الخاصة، وحمايتها - منذ قديم الأيام - من أذى حملات أصحاب الفيل وأمثال ذلك، إلا أنه عندما التجأ إليها ابن الزبير وتحصن فيها، أقدمت حكومته ذلك العصر الجبارة، وعلى يد المنحوس الحجاج بن يوسف الثقفي على قصف الكعبة بالمنجنيق وتدميرها، ثم اعتقال ابن الزبير (٣)، دون أن تمتد يد من الغيب لتفعل فعلها أو تتدخل.

يتحدث الشيخ الصدوق، المحدث الشيعي الشهير، عن هذا الأمر فيقول: «وإنما لم يجر على الحجاج ما جرى على تبع وأصحاب الفيل، لأن قصد الحجاج لم يكن إلى هدم الكعبة، إنما كان قصده إلى ابن الزبير، وكان ضداً لصاحب الحق، فلما استجار بالكعبة أراد الله أن يبين للناس أنه لم يجره، فأمهل من هدمها عليه». (٤)

وعليه، فاختلاف أبرهه عن الحجاج في أنه ظالم أراد تخريب الكعبة وتدمير

١- عوالي اللئالي ٧٢: ٤.

٢- الحج: ٢٥.

٣- بحار الأنوار ٢٨٧: ٢.

٤- من لا يحضره الفقيه ٢٤٩: ٢.

ص: ٥٣

القبلة، أما الحجاج فلم يكن يقصد الكعبة بسوء، بوصفها قبله ومطافاً، بل كان يريد - فقط - السيطرة على ظالم مثله لم يكن يعرف إمام زمانه، ألا وهو سيد الشهداء والإمام السجاد (ع).

نعم، الحجاج كابن الزبير جرثومة لا تعرف الحق، وعنصر مناهض للولاية، وقد كان الطرفان ساعين للإطاحة بنظام ولاية أهل البيت، وكان خصامهم على حطام الدنيا، لا لعدم مساعدة ابن الزبير لسيد الشهداء والإمام السجاد (ع).

ومن هذا الحدث يتضح جيداً أن معارضة الولاية والإمامة أمر منبوذ جداً إلى حدّ أن كل من يخالف قيادة الإمام (ع) ويذره وحيداً فريداً دون أن يساعده، بل يتخذ موقفاً مضاداً له، ثم يزعم لنفسه أنه داعية الولاية، لن ينعم بالأمان الخاص الإلهي حتى لو احتفى بالكعبة وقصدها.

ومن هذه الحادثة يعلم جيداً قدر الإمام وحرمة الولاية وعزّة الخلافة الإلهية، تماماً كما يعلم بالتحليل العقلي قدر حقه (الإمام) ونورانيته، وجماله، وجلاله، وكبريائه، ومشيتته، وقدرته جيداً، ذلك أن حرمة الحرم والبلد الأمين إنما تنتهي إلى الكعبة، وحرمة الكعبة تنتهي إلى الإمام الذي اختاره الله سبحانه للولاية، وحرمة الإمام تنتهي بدورها إلى الحق المطلق، أي الله تعالى الذي تخضع له تمام الموجودات وتخضع في حضرته ومكانته.

وعليه، فلو أمهل الله سبحانه ظالماً ليخرب الكعبة، فلا ينتقض بذلك قوله تعالى: (١).

ملاحظة

رغم أنهم قتلوا الإمام المعصوم (ع) وغدا على أيديهم شهيداً، إلا أن حقيقة الإمامة

ص: ٥٤

قائمة بروحه الملكوتية التي لا مجال للشهادة فيها، ولا سبيل للموت إليها، على خلاف بدنه الذي يعرف الشهادة، وهذا ما يختلف الحال فيه مع الكعبة التي لا وجود فيها إلّا للأحجار والأبعاد المادية.

٤- ويشاهد الإمام الباقر (ع) الطائفين بالكعبة، فيقول: «هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية»، فلم يأت الإسلام لكي تستمر السنن الجاهلية، ثم يقول: «إنما أمروا أن يطوفوا، ثم ينفروا إلينا، فيعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم» ثم قرأ: (١).

وعليه، فثمة وظيفتان على كاهل القادمين من بعيد أو قريب للتشرف بالكعبة المعظمة هما:

أ- أن يطوفوا ببدنهم حول الكعبة، بوصفها طيناً وأحجاراً.

ب- أن يطوفوا بأرواحهم حول «كعبة القلب» وحرم ولاية أهل بيت النبوة.

وعليه، فأولئك الذين جاؤوا بأرواحهم ليعرضوا ولايتهم على أهل البيت، وعلنوا جهوزيتهم للتضحية والفداء وتقديم النفوس والإيثار بالمال يحققون حينئذ «حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر». (٢)

٥- يقول الإمام الباقر (ع): «تمام الحج لقاء الإمام» (٣)، بعرض الولاية عليه والإعلان عن الاستعداد للفداء والتضحية؛ وعليه فالحج الذي لا ظهور فيه للإمام والقائد والمرشد سيكون حجاً ناقصاً.

نعم، ذكر الحج في هذا الحديث الشريف إنما جاء من باب التمثيل، لا التعيين، أي أنه ليس الحج فقط حاله «تمام الحج لقاء الإمام»، بل إن «تمام الصلاة والصيام والزكاة

١- إبراهيم: ٣٧؛ وانظر: بحار الأنوار ٨٧: ٦٥.

٢- نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٣ الشقشقية، المقطع ١٦.

٣- وسائل الشيعة ٢٥٤: ١٠.

ص: ٥٥

لقاء الإمام» أيضاً.

ويؤيد هذا الكلام، أي أن الصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات إنما يتممها لقاء الإمام وتوليّه، ما جاء في قسم من الحديث المعروف الذي يتحدّث عن قيام الإسلام على خمسة أسس، إذ- وفي إطار التأكيد على مبدأ الولاية- يشير الحديث إلى دور «الوالي» وكونه حجّةً ودليلاً على الأركان الأربعة الأخرى، فيقول: «الوالي هو الدليل عليهنَّ». (١)

وهذه المسألة مستفادَةٌ من الآية الكريمة: (٢)، فقد رضى الله سبحانه لنا الإسلام مع الولاية الإلهية، وعليه، فليس الحج وحده «تمام الحج لقاء الإمام» بل يمكن القول: «تمام الإسلام لقاء الإمام».

ونشير أخيراً إلى أنه رغم انتهاء احترام الحرم بالكعبة، وحرمة الكعبة بالوحي والنبوة والرسالة والولاية، إلّا أنه- وكما أشرنا مطلع هذا البحث- تختتم تمام هذه الحرمات بالحرمة الإلهية.

من هنا ذكر الله تعالى في إطار شرحه لسبب احترام الكعبة ما جعلها تنتسب إليه فقال: (٣)، أي أنّ الحرمة الذاتية لله سبحانه هي السبب وراء الحرمة العرضية للبيت الذي ينتسب إليه، حتى لو كانت الكعبة هي الأصل في حرمة الأشياء اللاحقة.

١- الكافي ١٨: ٢.

٢- المائدة: ٣.

٣- البقرة: ١٢٥، والحج: ٢٦.

الفصل السادس الحج و الوجه السياسي

الحج مظهر الحكومة الإلهية السامية

الحج- كما تبين- مظهر لأصول الدين المتينة وتجسّد للعقائد الثلاثة: التوحيد، والنبوة والعدل، تلك الأصول التي تعدّ ثماراً لشجرة الإسلام الطيبة.

وأحد أظهر هذه الثمار في هذه الشجرة الطيبة هو الحكومة الإسلامية، وهي من أهم مظاهر الإسلام، فالمجتمع الذي لا يديره الله ولا يسرى فيه أمره مجتمع كفر وطغيان، ومعبود مثل هذه المجتمعات إنما هو الأهواء المختلفة والرغبات المتنوعة.

بهذه المقدمة، نصل إلى فهم أسرار بعض مضامين أديّة عرفه، فالمضمون المشترك لدعاء سيد الشهداء الإمام الحسين (ع)- وهو أهم دعاء في عرفه- مع دعاء الإمام السجاد (ع) الذي اعتبر وجود الإمام العادل أساساً لإحياء آثار الدين ... المضمون المشترك هو أهمية الولاية في النظام الإسلامي.

وثمة شواهد عدّة على أن الحجّ مظهر الحكومة الإسلامية، وأن لهذه الحكومة تأثيراً على بقائه واستمراره وتكرره، نشير إليها هنا على الترتيب التالي:

١- كان من أديّة إبراهيم وإسماعيل (ع) عند بناء الكعبة: (

ص: ٥٧

(١).

وسرّ هذا الدعاء والطلب أن الموحدين قد دعوا للحج من تمام نقاط العالم المختلفة وفي تمام الأزمنة والعصور، إذأ فلا بد أن يكون هناك من ينظم أمورهم، فعلاوةً على المناسك العبادية للحج لا بد أن تكون لديهم أصول وأحكام أخرى تتعلق بحياتهم السياسية، وهذه هي الحكومة الإسلامية عينها، التي تغدو ضرورةً لتنظيم أمور الحجيج وسياستهم وإرشادهم.

إنّ الدين الذي يقول: «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمرّوا أحدكم» (٢)، حاشاه أن يذر الناس على حالهم هناك، ولا يضع على هذا الجمع العظيم الذي لا يحصى حاكماً أو أمراً، بل يتركهم يسّرون أمورهم بأهوائهم ورغباتهم.

وبناءً عليه، كان لزاماً أن يكون هناك من يكون القائد لهم والرائد فيهم، حتى تنظم معاملاتهم، وتصوّب نزاعاتهم، وتنتهي خصوماتهم، وترتّب أنماط معيشتهم وعلاقاتهم ببعضهم بل وعلاقاتهم بسائر الملل والشعوب.

على هذا الأساس، يقول الإمام على (ع) لواليه على مكّة: «أقم للناس الحج» (٣)، والمستفاد من هذا الأمر أنّ الحجّ لم يتم بعد وفاة النبي (ص) طيلة خمس وعشرين عاماً، عنيت الحجّ الإبراهيمي والمحمدي. (٤)

١- البقرة: ١٢٩.

٢- المحجّة البيضاء ٥٨: ٤.

٣- نهج البلاغة، الرسالة: ٦٧، المقطع ١.

٤- إقامة الحج غير أداء الحج، لذا رغم أنّ الأئمة قد ذهبوا إلى الحج مراراً، كما كان الحال مع الإمام الحسن حيث حج ماشياً عشرين مرّة، وسائل الشيعة ٥٥: ٨، وكذا الإمام السجاد حيث حجّ اثنتين وعشرين مرّة في الحد الأدنى الكافي ٤٦٧: ١، إلّا أنهم لم يستطيعوا إقامة الحجّ أبداً إلّا في تلك الفترة التي كانت الدولة فيها والسلطة بيد أمير المؤمنين الإمام على، نظراً لعدم كون الدولة في أيديهم، ولعلّه لذلك جاء في زيارة الأئمة المعصومين: «أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف ...» دون إشارة إلى إقامة الحج.

ص: ٥٨

٢- يجب على مرشد الدولة الإسلامية وقائدها، أن ينفق قدرًا من بيت المال لدفع الناس إلى الذهاب إلى مكة عندما يمتنع عامة المسلمين عن الذهاب إليها أو لا يكون ذلك في مقدورهم، فيدعم ماليًا العاجز، ويجبر الممتنع على ذلك.

جاء في الحديث: «لو عطل الناس الحج لوجب على الإمام أن يجبرهم على الحج، إن شأؤوا وإن أبوا، فإن هذا البيت إنما وضع للحج».

(١)

وسرّ تعبير الإمام الصادق (ع) في هذا الحديث: «إن هذا البيت إنما وضع للحج»، هو أن للكعبة خصوصيات قيمة تدفع الناس للسفر إليها، فإذا لم يسافروا إليها- لقصور أو تقصير- ولم يؤدوا فريضة الحج عندها، كان على والى المسلمين أن يجبرهم حتى يتجهوا ناحية البيت الحرام، ويلتحقوا بدائرة الطواف، ولا يتركوا ذلك.

إن هذه هي الحكومة الإسلامية التي يديرها حاكم عادل، ويكون بيت مال المسلمين في يده.

جاء عن الإمام الصادق (ع) في حديث آخر: «لو أن الناس تركوا الحج لكان على والى أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، ولو تركوا زيارة النبي (ص) لكان على والى أن يجبرهم على ذلك، وعلى المقام عنده، فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت

مال المسلمين» (٢).

ويستظهر من هذه الرواية أن زيارة الرسول الأكرم (ص) بمنزلة تجديد للبيعة معه والميثاق لتحكيم الحكومة الإسلامية.

٣- قال الإمام الباقر (ع): «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار، فيطوفوا بها، ثم يأتونا فيخبرونا بولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم» (٣).

١- وسائل الشيعة ١٥: ٨-١٦.

٢- المصدر السابق.

٣- المصدر السابق ٢٥٢: ١٠.

ص: ٥٩

فإذا كانت الحكومة والولاية بغير معنى السياسة، فلا حاجة لإخبار الإمام بالولاية وعرض النصرة عليه.

٤- يتجلى الإسلام الذى بعث به الأنبياء فى التوحيد الذى يطرد مختلف أنواع الشرك وألوانه، (١).

ولا- ينحصر هذا الإبعاد للشرك والطرده له فى مجرد الاعتقاد القلبي أو الذكر القالبي، بل يستوعب إعلان الانزجار، ونداء التبرى، وصرخة البراءة من الطغاة الأراذل وكل متجبر متمرد لئيم، وهذا ما يتحقق فى الحج، ذلك أنه موضع «الإعلام» و «الأذان» بتبرى الإسلام من ألوان الشرك، وأن المسلمين بريئون من المشركين، وأنه لا مودة ولا ألفة بين المسلمين والمشركين: (٢).

ومفاد هذه الآية تبلور البعد السياسى فى الحج، وتجلى الاستقلال الثقافى، حتى لا تبقى سيطرة لأحد من الكفار والمشركين على أى من المسلمين، فهل يمكن أن يكون ذلك غير التجسيد لأرفع مراتب الحكومة الإسلامية فى الحج؟ وهل يمكن طرد رؤوس الإلحاد وتدمير مواقعهم ومتاريسهم إلّا فى ظلّ الحكومة الإسلامية؟!

إذا لم يكن للإسلام حضور سياسى فى منى، وهى التى فسّر بها «الحج الأكبر» (٣)، فلا يمكن إعلان البراءة من عمال الجور وعبدة الطاغوت، تماماً كما لا يمكن قيام الناس بحجم العالم، ونشر الاستقامة وتعميمها على العالم- وهو ما بُنيت الكعبة لأجله- سوى بإقامة نظام إسلامى.

١- النحل: ٣٦.

٢- التوبة: ٣.

٣- وسائل الشيعة ٦١: ١٠-٦٢.

ص: ٦٠

ولعلّه لهذه الأسباب أو سائر الأسرار الإلهية المستورة عنا، لم يحج سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) عام ٦٠ للهجرة رغم مجيئه إلى مكّة، فأدى عمره مفردةً احتراماً للكعبة (١)، ويؤيد ذلك، ما جاء في كلامه (ع) في دعاء عرفه حول الحكومة الإسلامية. ولمزيد من إيضاح فكرة ظهور الحكومة في الحج وتجليها فيه، لابدّ من التركيز المضاعف على ما قام به الرسول الأكرم (ص) في حجة الوداع، وما قاله للناس، وما قرّره لهم من القضايا السياسية الهامة وغيرها.

المظهر التام للتبرّي من الطاغوت

بُعث الأنبياء الإلهيون جميعهم كي لا يفرش نسر الشرك وطائره ريشه فوق قلعه هرم التوحيد، وأن لا يحرّموا بشيطان الطاغوت والعصيان في حرم الوجدانية السامي (٢)، فالكعبة والحج والزيارة محور التقوى، وأساس الاجتناب عن الطغيان، والتمرد في وجه الطاغوت.

لقد أظهر المولى سبحانه مناسك الحج بالوحي لخليله إبراهيم (٣)، ولا ثمر لذلك ولانتاج سوى التوحيد، وهذه المناسك التوحيدية هي التي علّمها خاتم الأنبياء (ص) لسالكى طريقه ومتبعيه، حيث قال: «خذوا عنى مناسككم». (٤) وحيث قام بناء التقوى الفولاذي على قاعدة التوحيد التي لا تهتز أو تختل، وكان

١- كانت لدى الإمام الحسين عزيمة للخروج من مكّة ومنذ البداية، لا أنه شرع بعمره التمتع، ثم أردفها بحج التمتع، فصار الحج واجباً عليه، لكنه أبدل حج التمتع بالعمره المفردة إثر صدّه عنه، والشاهد على ما نقول، رواية عن الإمام الصادق، جاء فيها: «.. وإنّ الحسين بن علي خرج يوم الترويه إلى العراق، وكان معتمراً». أنظر: وسائل الشيعة ٢٤٦: ١.

٢- النحل: ٣٦.

٣- البقرة: ١٢٨.

٤- عوالي اللثالي ٢١٥: ١.

ص: ٦١

الحج هو التجسيد الجلى للتوحيد؛ قال الله سبحانه - ضمن إصداره أوامر الحج -: (...). (١)

وحول الأضحىة- وهى من مناسك الحج- التى كانت ممتدة فى تاريخ السنن والعادات الجاهلية مشوبةً بالشرك، يكلمنا الله تعالى فى إرشاد تقوائى يقول: (٢)، أى يناله الاجتناب عن الذنوب، والقيام ضد العاصى، والتورع عن المعصية، والثورة ضد المذنبين المتمردين، والإمساك عن العصيان، والصرخة ضد العاصى، والاجتناب عن الطغيان، والهجوم على الطواغيت و ...

كلّ عبادة هى تبرؤ من الشرك وانزجار من الطاغوت، أما الحج فهو عبادة خاصة امتزجت بالسياسة واختلطت، وإن حضور مختلف شرائح المجتمع العالمى وطبقاته يمثل ظرفاً مناسباً لتجلى روح هذه العبادة- كسائر العبادات الإلهية- فى هذا الجمع العظيم، وظهور هذه العبادة الممتازة فى تلك الساحة ظهوراً تاماً.

من هذا المنطلق، أمر رسولُ الله (ص)- بأمر من الوحي الإلهى- الناطق باسم الحكومة الإسلامية- وهو على بن أبى طالب (ع)- أن يعلن البراءة من المشركين (٣)، حتى تمتاز بشكل قاطع حدود التوحيد عن الطغيان والشرك، وتتخرج صفوف المسلمين المتناسقة عن صفوف الكفار، فتظهر- عبر ذلك- الصورة السياسية العبادية للحج، ويحمل زوَار الكعبة زاد التوحيد معهم مع استماعهم إلى قرار الحكومة الإسلامية الصادر بالانزجار من الشرك، وإعلان نبذ الصلح والمصالحة مع المشركين. (٤)

من هنا، ينتشر قرار التوحيد وإعلانه ببركة الكعبة فى أقطار العالم المختلفة، تماماً

١- البقرة: ١٩٧.

٢- الحج: ٣٧.

٣- بحار الأنوار ٣٠٣: ٣٥.

٤- التوبة: ٣.

ص: ٦٢

كما يتوجه المسلمون كافة في الكثير من شؤون حياتهم ناحية الكعبة.

محور البراءة من المشركين

لا كمال أرفع ولا أسمى من نيل التوحيد الأصيل الخالص، ولا يمكن ذلك ولا يتسنى إلّا بالتزّه والتبرّي التام من مختلف ألوان الشرك والإلحاد، والرفض لكلّ مشرك وملحد.

من هنا، جعل الله سبحانه الكعبة بيت التوحيد، واعتبرها محوراً للبراءة من الذنوب والعصيان والتهاوى، بل مهّد لذلك وهياً سبيله عبر الأمور التالية:

أولاً: أصدر المولى سبحانه وتعالى أوامر لخليله إبراهيم (ع) بعد إتمام بناء البيت العتيق الطاهر، بيت المواساة والمساواة، وبعد تشريع قرار الأمن للحرم أمام الضيوف والزوار والركع السجود والعاكفين والطائفين، فقال: (١).

والهدف من هذا الإعلان العام دعوة أولئك القادرين على الحضور بشكل طبيعي ومتعارف.

ثانياً: عندما يأتي الجميع، من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، ومن القريب والبعيد... فيشتركون في هذا الملتقى الشامل الواسع، تصل النوبة للإعلان المحمدي والأذان، من هنا قال تعالى: (٢).

كان هذا الإعلان الذي سبق مقدّمه للإعلان الثاني، الذي هو الهدف النهائي لبناء الكعبة، وإعلامه هذا الهدف النهائي يعنى الوصول إلى التوحيد متبلوراً على صورة

١- الحج: ٢٧.

٢- التوبة: ٣، ومن مصاديق أيام الحج الأكبر في هذه الآية الكريمة يوم عرفه، ويوم عيد الأضحى، تماماً كما الحج الأكبر قياساً بالعمرة، والعمرة قياساً إليه حج كبير.

ص: ٦٣

إعلان براءة الله ورسوله الأكرم (ص) من المشركين، ومادام الإنسان حياً يرزق على وجه البسيطة، فإنّ الحج والزيارة يبقيان في عهده وضمن مسؤولياته، ومادام ثمّة مشرك في هذا العالم كان إعلان البراءة منه جزءاً من أهم وظائف الحج.

بهذا تتضح مسؤوليته نهوض الأمة لتطهير الكعبة المقدّسة من ولاية الطغاة والنفعيين الوصوليين، أولئك السراق الذين قال عنهم الإمام الصادق (ع): «أما إن قاتلنا لو قد قام لقد أخذهم، فقطع أيديهم، وطاف بهم، وقال: هؤلاء سراق الله». (١)

إنّ القيام لتطهير الكعبة وتخليصها من يد الأشرار شريعة إبراهيمية، لا يصرف النظر عنها سوى فاقد العقل، (٢).

وحيث كان رسول الله (ص) ومن اتبعه وآمن به أولى الناس بإبراهيم، وهو الذى طهر الكعبة من ألوان اللوث والنجاسة والخسنة و... (٣) فعلى الأمة الإسلامية اليوم أن تطهر بيت الله سبحانه من مختلف القبائح والدنائس والنجاسات.

نعم، ليس المقصود مجرد إبعاد الجسم المادى للمشرك حتى يُقال: لا- مشرك فى الحجاز اليوم كى يحصل التبرى منه فى موسم الحج! بل المراد من البراءة إعلان الرفض والتنديد والانزجار من كل فكر مشوب بالشرك، وكلّ تمدن باطل لأولئك الذين تأثروا بهذا الشرك، وكل استعمار ظالم للملحدين، وكل استثمار طاغ للماديين، وكل استعباد قاس مجحف للمستكبرين، وكل استعمار سامرى (٤) للإسرائيليين، وكل استضعاف ماكر للدول العظمى.

والحج أهم الأمكنة التى يتجلّى فيها هذا الأمر، وقمم هذه النهضة، حيث يلزم على المسلمين فيه حفظ حرمة الله تعالى، والسعى لرفع عزة الحقّ عالياً، والتقوى بقوّته، وأخذ

١- وسائل الشيعة ٣٥٥: ٩.

٢- البقرة: ١٣٠.

٣- آل عمران: ٦٨.

٤- نسبة إلى السامرى الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم.

ص: ٤٤

المدد والعون منه، والتخلّق بالأخلاق الإلهية، حتى لا يصيروا موضعاً لظلم الظالمين وبطشهم، فالحج هجرة إلى الله تعالى، يقصده الناس لأداء مناسكه من مختلف نقاط الدنيا.

ص: ٦٥

القسم الثاني: أماكن الحجّ

القسم الثاني أماكن الحجّ

الفصل الأول الميقات

وجوب الإحرام من الميقات

ص: ٦٦

من الأمور الهامة في الحجّ والعمرة (١)، معرفة مواقيت الإحرام، ذلك أن عقد الإحرام

١- الحجّ في اللغة، القصد المكرّر، أما في الإصطلاح، فيقصد به إنجاز الأعمال الخاصة في أيام محدّدة في أرض مكة المكرمة. أما العمرة، فتعني في اللغة الزيارة، واعتمر أي زار مجمع البحرين ١٢٧٠: ٢، مادة: عمر، وحيث كانت الزيارة باعثة على عمران مكانها ومحلّها، سميت زيارة بيت الله الحرام عمرة واعتماراً.

والحجّ والعمرة أعمال تعبديّة، لا توصلية؛ حيث يستفاد ذلك من تعبير «الله» الوارد في قوله تعالى: وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ... البقرة: ١٩٦ نعم، لهذه الأعمال العبادية منافع أيضاً، قال سبحانه: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ الْحَجِّ: ٢٧-٢٨، وهو أمر لا ينافي العبادية، كما لا يستلزم التوصلية.

ويقع الحجّ على أنواع ثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد؛ فحجّ التمتع مركّب من عبادتين: إحداها عمرة التمتع، وثانيتها حج التمتع، أما عمرة التمتع فتقدّم على حجّ التمتع، وتتألف من خمسة أجزاء هي: ١- الإحرام ٢- الطواف حول الكعبة. ٣- صلاة الطواف. ٤- السعي بين جبلي الصفا والمروة. ٥- التقصير، أي أخذ مقدار من شعر الرأس أو الأظافر.

ويتألف حج التمتع من ثلاثة عشرة عملاً هي: ١- الإحرام من مكة. ٢- الوقوف بعرفات. ٣- الوقوف بالمشعر الحرام. ٤- رمي جمرة العقبة في منى. ٥- ذبح الأضحية في منى. ٦- حلق الرأس في منى أو تقصيره. ٧- طواف الزيارة في مكة. ٨- صلاة الطواف. ٩- السعي بين الصفا والمروة. ١٠- طواف النساء. ١١- صلاة طواف النساء. ١٢- المبيت في منى ليلتي الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة، وبعض الحجاج يجب عليه المبيت ليلة الثالث عشر أيضاً. ١٣- رمي الجمرات الثلاث في يومى: الحادي عشر والثاني عشر، وعلى من بات في منى ليلة الثالث عشر أن يرمم صبيحتها أيضاً.

أما العمرة المفردة، فإضافة إلى الأعمال المتقدّمة في عمرة التمتع، هناك عملان آخران واجبان فيها هما: طواف النساء، وصلاة طواف النساء، ويجب إنجاز هذين العملين بعد الحلق أو التقصير.

وللتعرّف على أجزاء هذه العبادات وشرائطها تراجع كتب مناسك الحجّ.

ص: ٦٧

من مصاديق إتمام الحج والعمرة، وهو - أي الإتمام - ما جاء الأمر الإلهي به (١)، جاء في الحديث: «من تمام الحج والعمرة أن تحرم من المواقيت...» (٢).

والميقات مكان خاص، والمواقيت أماكن محدّدة عينها رسول الله (ص) على أساس الوحي الإلهي لأهل الأقاليم، والجدير ذكره أنّ رسول الله (ص) حدّد مواقيت لأهل أفريقيا، وأهل الشام والعراق، يُحرمون منها عند ورودهم الحرم الشريف مع أنّه لم يكن بعدد قد تشرف أحد في تلك الديار بشرف الإسلام، بل إنّ المدن الرسمية والمعروفة في العراق لم تكن - وفق بعض المنقولات - قد ظهرت بعدد عند تحديد النبي (ص) للمواقيت. (٣)

والمواقيت الخاصّة المحدّدة خمسة أو ستة، إلّا أنّ المواضع التي يصحّ فيها الإحرام للحجّ والعمرة تبلغ العشرة تقريباً، وللمواقيت المعينة خصوصية، أنّها المكان الوحيد المناسب لحدوث الإحرام فيه، فلا يجوز تقديم الإحرام عنها أو تأخيره، اللهم إلّا في حال الضرورة أو النذر أو لإدراك إحرام شهر رجب.

والجدير ذكره أنّ الدخول إلى الحرم لا يجوز إلا محرماً، ليس هذا فحسب، بل إن العبور عن المواقيت لمن يقصد الحرم لا يجوز له إلّا في حال الإحرام أيضاً.

والميقات لا يقبل التغيير، تماماً كسائر المواقيت مثل عرفة والمشعر ومنى، وإذا ما صار جزءاً من قرية أو مدينة نتيجة حصول توسعه فيهما يبقى له حكمه دون

١- البقرة: ١٩٦.

٢- وسائل الشيعة ٢٢٢: ٨.

٣- يقول الإمام الصادق ٧: «فإنه وقت لأهل العراق ولم يكن يومئذ عراق» انظر: وسائل الشيعة ٨: ٢٢٢.

ص: ٦٨

تعديل، فالتنعيم مثلاً- وهو أحد مواقيت العمرة- كان سابقاً خارج حدود مكة، إلّا أنّه غدا اليوم- بعد اتساع المدينة- داخلها، ومع ذلك لم يخرج عن صفة الميقات التي كان يملكها.

وثمة أفكار كثيرة يمكن استفادتها من النصوص الواردة في بيان المواقيت، نحاول هنا الإشارة إلى بعضها وهي:

١- إنّ تعيين الميقات المكاني إنما نشأ- كالميقات الزمني- من جانب الشارع المقدّس وطبقاً للسنة الدينيّة، لا من ناحية عادات الناس.

٢- إنّ تعيين مواقيت لأبناء بعض البلدان والمدن التي لم تكن قد ظهرت بعد، أو لأناس لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام هو- كما أشرنا من قبل- إعجاز ديني.

٣- للأحكام الشرعية كافة أصل في الوحي الإلهي، مع أنّه لم تبين علل كلّ حكم معه، إلّا أنّ بعض المواقيت، مثل ذى الحليفة قد جاء فيه: «قلت لأبي عبد الله (ع): لأيّ علّة أحرم رسول الله (ص) من مسجد الشجرة ولم يُحرم من موضع دونه؟ فقال: لأنّه لما أسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة نودي يا محمد! قال: لبيك، قال: ألم أجدك يتيماً فأويتك، ووجدتك ضالاً فهديتك؟ فقال النبي (ص): إنّ الحمد والنعمة والملك لك كلها لا شريك لك، فلذلك أحرم من الشجرة دون المواضع». (١)

ورغم ما للميقات من حرمة خاصية، إلّا أنّ تلك المكانة إنّما أخذها من كونه موضعاً للإحرام، وحيث قام الإسلام على السهولة والسماحة، لا سيّما في الحجّ والعمرة حيث لا تكرر فيهما يوماً كالصلاة حتى تكون أحكامه عند الجميع.. من هنا فلو تجاوز شخص عن غفلة أو قصور أو ذهول أو سهو ونسيان عن موضع الإحرام وميقاته دون أن يحرم، ثمّ دخل الحرم وهو على هذه الحال، وأنجز تمام أعمال الحجّ والعمرة طبقاً للضوابط المعهودة، ثمّ التفت آخر العمل أنّه لم يعقد

ص: ٦٩

الإحرام، كانت أعماله بتمامها صحيحةً، فلا حاجة له إلى الإعادة أو القضاء.

ص: ٧٠

الفصل الثاني الحرم الإلهي

إشارة

الحرم موضع مكاني محدّد، يختلف بُعد حدوده عن الكعبة من الجهات المتعدّدة، فيحدّه من ناحية الشمال والشمال الغربي مسجد التنعيم على طريق المدينة، ومن الجنوب والجنوب الشرقي «إضاءة اللبّن» على مسير اليمن، ومن الشرق والشرق المائل إلى الجنوب «الجعرانة» القريبة من منى والمشعر الحرام على طريق الطائف، ومن الغرب والغرب الشمالي «الحديبية» على مسير جدّة. وقد وُضعت لتعيين حدود الحرم من الأطراف كافّة علائم وعلامات.

ويجيب الإمام على بن موسى الرضا (ع) عن سؤال وجه إليه عن سبب اختلاف حدود الحرم في بعدها عن الكعبة من الجهات المتعدّدة، ففي بعضها قريبه وفي بعضها أبعده؟: «إنّ الله عزّ وجلّ لما أهبط آدم من الجنّة هبط على أبي قبيس، فشكا إلى ربّه الوحشة، وأنّه لا يسمع ما كان يسمعه في الجنّة، فأهبط الله عزّ وجلّ عليه ياقوتة حمراء، فوضعها في موضع البيت، فكان يطوف بها آدم، فكان ضوءها يبلغ موضع الأعلام، فيعلم الأعلام على ضوءها وجعله الله حرماً». (١)

وقد نقل هذا المضمون بطريقة أخرى عن الإمام الباقر (ع)، وطبق هذا النقل، فإنّ الله

ص: ٧١

تعالى أمر جبرئيل؛ لتسكين آدم (ع) وحواء، بالذهاب إليهما، «فأهبط عليهما بخيمة من خيم الجنة .. وأنصب الخيمة على الترععة ..»،
ويضيف الإمام الباقر (ع) ما هو قريب من الرواية السابقة: «الترععة مكان البيت .. وكان عمود الخيمة قضيب ياقوت أحمر، فأضاء نوره
وضوؤه جبال مكة وما حولها .. فهو مواضع الحرم اليوم من كل ناحية من حيث بلغ ضوء العمود .. فجعله الله حرماً للحرم الخيمة
والعمود؛ لأنهما من الجنة ..» (١)

أمن الحرم

إشارة

لقد أحيا النبي إبراهيم (ع)، وهو شيخ الأنبياء الإبراهيميين، سنّه وسيرته، إلا أن بعض أعماله وبعض مناجاته تعدد من جوامع الكلم، فطلبه
صيرورة هذا المكان بلداً، وأمناً مطلقاً، ومجمعاً لثمار مختلفه من أقطار العالم، والتنبؤ بصيرورة مكان غير ذي زرع أم القرى وغيرها من
الكلمات الجامعة له (ع)، ذلك كله يقع في صراط تأسيس نظام التوحيد، ونشر الإيمان والعمل الصالح، والقيام بتنمية شاملة للمعارف
العقائدية، والأخلاقية، والاجتماعية، والسياسية، ذلك أنها إذا كانت موضعاً لسكان أرضها الآمنة فحسب لم تكن - أبداً - أم القرى،
فنواحيها ليست بالمكان الآمن، وقطاع الطرق في عمق الصحراء المحيطة سوف يقطعون أي نوع من أنواع الارتباط، مما سيمنع تردد
أبناء الأطراف المحيطة إليها، كما لن تصل محاصيل أطرافها من القريب والبعيد إليها، ولن تكون سوقاً رسمية.
يمكن للحرم الإلهي وأرض مكة أن تحمل على عاتقها مسؤولية العالمية بل العولمة الصحيحة، وذلك:
أولاً: توفير ما يمكنها من أن تصير أم القرى، وتبعية نواحيها لها، ورغبة الناس

ص: ٧٢

وشوقهم للمجىء إليها.

ثانياً: إنها مركز التوحيد، أى أنها تستوعب بين جنباتها الكعبة، وهى القبلة والمطاف أيضاً.

ثالثاً: وصول نداء بانى الكعبة، نبينا إبراهيم (ع) الذى بناها بأمر من الله تعالى، وهو صاحب البيت، ذاك النداء الداعى للحضور إلى ساحة هذا البيت بغية الحج والعمرة... وصوله إلى أسماع العالم بأقطاره ونواحيه، ومن الثابت أن فضيلة عظيمة معدة لامتنال هذا الأمر الإلهى الإلزامى.

إن سرّ تقديم الأمن على الدعوة إلى الحج والعمرة، وعلى جلب أنواع الثمار من النواحي القريبة والبعيدة إلى هذه الأرض الطيبة هو أن الأمن أطيب النعم الفردية والاجتماعية للإنسان وأجملها وأحبها إلى قلبه، ففى ظل الأمن تتحقق سائر البركات المفقودة، كما أن فقدانها يصاحبه زوال هذه النعم الموجودة.

ومن أبرز مصاديق الأمن ومظاهره، الأمن الثقافى والفكرى، ووجود مناظرات ثقافية سليمة؛ ذلك أن الحوار وتضارب الآراء، والصبر على آراء الآخرين العلمية المنصفة، يلعب دوراً رئيساً فى وضوح الحق وجلائه، ومحو الباطل واندثاره.

لقد كان إبراهيم (ع) رائداً فى الحوارات العلمية، وفى الجدل بالتي هى أحسن، بل فى تمام الخصال والسجايا الأخلاقية الكبرى، وقد كان الأئمة المعصومون من نسل طه وأسرته ياسين (ص) يعتبرون حوار الكعبة مدرسةً للحكمة ومعهداً للجدال بالتي هى أحسن.

إشارة: كانت الكعبة فى بنائها الأصلية موجودة منذ عصر آدم الصفى (ع)، لكنها انهدمت تدريجياً وتركت، وتم تجاهلها إلى أن بناها إبراهيم (ع) خليل الرحمن، وما حصل على صعيد بنائها وبنائها حصل أيضاً- كما تشهد به بعض المعطيات

ص: ٧٣

الروائية- على صعيد الأمن فيها والأمان، فقد كانت الكعبة مكاناً آمناً في البداية، ثم فقدت أمنها تدريجياً، ليعود لها مرةً أخرى مع النبي إبراهيم (ع).

وهنا، يجدر الاهتمام بأنّ دعاء النبي إبراهيم (ع) قد حقّق لأرض مكة أمنها وأمانها، لا للكعبة وحدها، وإلا فأمّن الكعبة لم يتحقّق بطلب إبراهيم (ع) وإثما صار أن جعلها الله منذ البداية مثابةً ومطافاً، وقبلةً، وأمناً.

وأمن الحرم على قسمين: تشريعي، وتكويني، وسوف يتكفّل بيان هذين النوعين من الأمن المبحثان التاليان.

١- الأمن التكويني

وفقاً لظواهر الأمور، يفترض بأرض مكة أن تكون أرضاً غير آمنة، ذلك أن طبع أبناء الحجاز من جهة كان على الاعتداء والغارة، كما أنّهم - من جهة أخرى - ما كانوا ينعمون بالعلم، والثقافة، والزراعة، وتربية المواشى، والصناعة و .. بل إن الشعب الفاقد للثقافة والجائع في الوقت عينه من الطبيعي أن يكون عدوانياً يعيش على الهجمات والغارات.

إلا أنّه، رغم ذلك كلّه، قال تعالى: (١) وقال: (٢).

وطبقاً للمبدأ عينه، عاشت قريش النعمة والأمن من الجوع والخوف، قال سبحانه: (٣).

ويحدّثنا الله تعالى عن الأمن التكويني للحرم فيقول: ()

١- القصص: ٥٧.

٢- آل عمران: ٩٧.

٣- قريش: ٤.

ص: ٧٤

(١)، كما أن الله تعالى يحدثنا عن مكة كيف كان خطف الناس رائجاً في أطرافها، لكن الله جعل أرضها حرماً آمناً، لا لأنَّ سكَّان الحرم الإلهي ومدينه مكة قد غدوا أناساً صالحين، بل لأنَّ الناس تفهم حرمة الحرم وتقوم بحقه، قال تعالى: (٢)، وحيث كان الخطف أمراً تكوينياً فإن الأمن الذي يقابله سيكون تكوينياً أيضاً.

ويستفاد جيداً من الآيات المذكورة المرتبطة بعصر الجاهلية أن خطر الهجمات والغارات والخطف وقطع الطرق كان قائماً خارج نطاق الحرم، أما في الحرم فلم يكن كذلك، فحكم الأمن تشريعاً إنما جاء بعد الإسلام، والقرآن الكريم عندما يذكر الأمن في الحرم في العصر الجاهلي إلى زمان الإسلام وإلى ما بعده أيضاً فإنما يقدم ذلك شاهداً ومستنداً له.

يقول الإمام الصادق (ع) حول أمن الحرم: «من دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن، ومن دخل البيت مستجيراً به من المذنبين فهو آمن من سخط الله، ومن دخل الحرم من الوحش والسباع والطيور فهو آمن من أن يُهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم». (٣) ولا بد من الالتفات إلى أن الإعلان عن أمن الحرم المكي لا يعني حرية أي إنسان في أن يقوم بما يشاء فيه، ذلك أن الله تعالى يحدثنا عن أناس كانوا يعيشون بأمن في بلادهم غير أن الله أغرقهم بالخوف والجوع والاضطراب إثر كفرهم بنعمه، قال تعالى: (

١- القصص: ٥٧.

٢- العنكبوت: ٦٧.

٣- وسائل الشيعة ٣٣٩: ٩.

ص: ٧٥

(١).

وعليه، فالأمن التكويني للحرم لا يعنى أنه لا تقع فيه مذابح ومظاهر قتل، بل بمعنى أن الله سبحانه جعل هذه الأرض - على أساس من لطفه - مأمناً، أما لو ضلّ الناس فيها سبيلهم، فإن الله ينزل عليهم العذاب.

ومن خصائص مكة أنه لا يمكن لحكم ظالم جائر أن يدوم عليها لسنين طويلة، نعم، من الممكن لدولة في الحجاز مع عاصمته مثل الرياض أن تقوم ببعض ألوان الظلم الفردى أو الاجتماعى، إلا أنه لا يمكن فى مكة ممارسة ظلم إلحادى ذى صبغة كافرة، ذلك أن الآية الشريفة: (٢)، تهدد خصوص من يقوم بذلك، أى بالظلم الإلحادى، لا غيره، وفى خصوص الحرم لا خارجه، والظلم الحقيقى بالأشخاص الحقيقين أو الحقيقين مغاير للظلم الإلحادى الذى يصاحبه كفر وإلحاد.

وحصيلة الكلام، ليست مكة كالجنة لا يقع فيها معصية أو انحراف (٣)، إلا - أنها - مع جريان أحكام الدنيا عليها - تمتاز عن كثير من البقاع فى الأرض، ومن جملة هذه الامتيازات أنه لو أراد بها شخص سوءاً عن ظلم وكفر فسوف يلقى عذاباً شديداً. (٤)
ومن الجدير ذكره، أن الأمن التكويني للحرم نسي بلحاظ مكة، ونفسى بلحاظ الكعبة، بمعنى أنه من الممكن لله تعالى أن يعاقب فى مكة ليتبه الكافرين والمذنبين، إلا أنه لا يمكن لأحد أن يواجه أصل الكعبة - وهى قبله المسلمين ومطافهم - وإذا ما

١- النحل: ١١٢.

٢- الحج: ٢٥.

٣- الطور: ٢٣.

٤- الحج: ٢٥.

ص: ٧٦

خزب بعض المعاندين- فى بعض حقب التاريخ البشرى- الكعبه فهو لكى يلقوا القبض على بعض المتحصنين بها، لا- لمواجهتها ومحاربتها نفسها، من هنا أقدموا مرتين على إعادة بنائها.

٢- الأمن التشريعي

يجمع دعاء النبى إبراهيم (ع)، والذى طلب فيه من الله سبحانه الأمن والخير الإقتصادى لمكّه وساكنيها، بين التكوين والتشريع، قال تعالى: (١).

إن الأمكنه والأزمنه المرتبطه بالدين هى المعتمد الوحيد لأمن البشر، والأشياء، والأفراد، من هنا جعل الله سبحانه بعض البلاد، والأزمنه، والأشخاص، والأشياء معالم أمن، تماماً كما أعلن احترام الحجّ بأطرافه عاداً له من الشعائر الإلهيه بغيه بيان هذا الأمن وتشيته شاملاً لأطراف الحرم وسكانه وزوّاره.

قال سبحانه: (٢).

وعلى هذا الأساس، أصدرت قوانين عديده لحفظ الأمن ومطابقه التشريع للتكوين، مثل حرمه حمل السلاح حال الإحرام، إلّا مع الضروره، وكذا حرمه إظهار السلاح فى غير حال الإحرام بحيث يسبب ذلك إحساساً بعدم الأمن لدى زوار بيت الله الحرام. والأمن التشريعي للحرم محفوظ دوماً، فلا يجوز خرق حرمه الحرم إلّا فى فتره محدوده هى فتح مكّه، أللهمّ إلّا إذا هاجم الآخرون المسلمين، وكسروا حرمه الحرم،

١- البقره: ١٢٦.

٢- المائده: ٢.

ص: ٧٧

فيجوز عندها سلب الأمن عنهم، على أساس قوله تعالى: (١)، وقوله سبحانه: (٢).
 ولتوفير أفضل السبل لتربية الناس وإقامة السلام والأمن وإقرارهما، أكدت التشريعات على الحد من بعض التصرفات، وأعلنت حرمة شاملة للحرم وأمناً واسعاً له ولحال الإحرام أيضاً، من هنا أعلنت الأشهر الأربعة الحرم أمناً شاملاً، سواء كان هناك حج أو عمرة أو لم يكن، وكذلك في الأشهر التي يسافر فيها الحجاج، وهي أشهر قد تطول - سابقاً - أحد عشر شهراً.
 والجدير ذكره هنا، أن نعمة الأمن والأمان وإن كانت عظيمة القيمة، إلا أن هذا الإصرار على إقامتهما يلفت نظر الباحث الحصيف إلى أنه لا بد في تلك المنطقه من إنجاز أعمال لا تُنجز - على ما يبدو - سوى مع وجود إحساس بالأمن والهدوء والطمأنينة، فإذا ما كانت هذه الأعمال مجرد المناجاة والزيارة والطواف وأمثالها دون إعلان الغضب والتنديد بوجه الطغاة والمعتدين والعاصين، فلن يعيق هؤلاء عن تحقيق الأمن، ومن ثم ستكون كل هذه النصوص المصرة على مسألة الأمن لغواً وعبثاً.
 ملاحظة

سوف نتحدث - بإذن الله تعالى - عن قسم آخر لمبحث الأمن التشريعي، لدى الحديث عن «الخصائص الفقهية للحرم».

ساحة أمن ولاية المعصومين:

استناداً إلى بعض الروايات، ومع الأخذ بعين الاعتبار ما تقدّم عند الحديث عن قوله تعالى: (٣)، فإن كل داخل في الاعتقاد بالإمامة والالتزام

١- البقرة: ١٩٤.

٢- البقرة: ١٩١.

٣- آل عمران: ٩٧.

ص: ٧٨

بالولاية هو فى أمن وأمان، وطبقاً لهذا النمط من الروايات لايراد الإطلاق من الآية الشريفة المشار إليها، ذلك أنه من الممكن أن ينفذ الكفار والملحدون وأصحاب العقائد الباطلة إلى داخل الكعبة، والحال أنهم ليسوا فى أمان. وعليه، فالمراد- كما يقول الإمام الصادق (ع)-: «من دخله- وهو عارف بحقنا كما هو عارف له- خرج من ذنوبه وكفى هم الدنيا والآخرة». (١)

وفى رواية أخرى للإمام الصادق (ع) وضمن مناظرة جرت بينه وبين أبى حنيفة جاء فيها: «.. فأخبرنى عن قول الله عزوجل: (٢)، أين ذلك من الأرض؟ قال: أحسبه ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبو عبدالله الصادق إلى أصحابه فقال: تعلمون أن الناس يقطع عليهم بين المدينة ومكة، فتؤخذ أموالهم ولا يأمنون على أنفسهم ويقتلون؟ قالوا: نعم، قال: فسكت أبو حنيفة، فقال: يا أباحنيفة! أخبرنى عن قول الله عزوجل: (٣) أين ذلك من الأرض؟ قال: الكعبة... فقال أبوبكر الحضرمي: جعلت فداك الجواب فى المسألتين الأولتين؟ فقال: يا أبابكر! (٤) مع قائمنا أهل البيت، وأما قوله تعالى: (٥) فمن بايعه ودخل معه، ومسح على يده، ودخل فى عقد أصحابه، كان آمناً». (٦)

نعم، المراد هنا الأمن المطلق: التشريعى، والتكوينى.

الخصائص الفقهية للحرم

١- تفسير العياشى ١٩٠: ١.

٢- سبأ: ١٨.

٣- بحار الأنوار ٢٩٢: ٢- ٢٩٤.

ص: ٧٩

لمنطقة الحرم خصوصيات فقهية كثيرة، نشير هنا إلى بعضها:

١- لا يوجد على سطح المعمورة مكان غير هذا المكان يُشترط لوروده، حتى في غير موسم الحج، الإحرام من أحد المواقيت المقررة، من هنا، فدخل غير المسلم إلى الحرم ممنوع؛ ذلك أنه يلزمه الإحرام، وإحرام الكافر غير صحيح، والموارد الاستثنائية لهذا الحكم الكلي العام بالغة القلة.

٢- لا يقتصر منع دخول المشركين إلى الكعبة والمسجد الحرام، بل يتعدى ليشمل مكة والحرم كله، قال سبحانه: (١)، فيجب على المسلمين تنزيه هذا المكان وطرد هؤلاء المشركين منه. (٢)

٣- يحرم تعذيب أي شخص يدخل الحرم أو إيذاؤه، اللهم إلا إذا جنى جنايةً خارجة، ثم احتسب بالحرم والتجأ إليه، وفي هذه الحالة تحرم مبايعته، وكذا حمايته وإجارته وعاريتة البيوت، كما يحرم إعطاؤه الطعام أو بيعه له.

ومثل هذه الضغوطات والمتاعب عليه إنما تهدف إلى إجباره على الخروج من الحرم كي تقام عليه الحدود الإلهية.

لقد بلغ الاهتمام بحريم الحرم الإلهي حدًا، أن يسأل سماعه بن مهران الإمام الصادق (ع) فيقول: «سألته عن رجل، لى عليه مال، فغاب عني زمانًا، ثم رأيت يطفو حول الكعبة، أفأقاضيها مالي؟ قال: لا، لا تسلّم عليه، ولا ترؤعه حتى يخرج من الحرم». (٣)

٤- لو ارتكب شخص جناية في الحرم أو جرماً جرى عليه الحد فيه، ذلك أنه لم

١- التوبة: ٢٨.

٢- وسائل الشيعة ٣٤٤: ٩.

٣- المصدر السابق: ٣٦٥.

ص: ٨٠

يرع حرمة الحرم، لذا لزمه قصاصه من هذه الناحية، قال سبحانه: (١). (١)
وقد قال الإمام الصادق (ع) حول من قتل في الحرم أو سرق: «يُقام عليه الحدّ في الحرم صاغراً؛ لأنه لم يرَ للحرم حرمةً، وقد قال الله عزّ وجلّ: (٢)، فقال: هذا هو في الحرم، وقال: (٣)، (٤).
إنّ ما يقتضيه قوله تعالى: (٥) أنّ إعدام القاتل واجب، بيد أنّ إهانتته حرام، أمّا هنا فتغدو إهانتته راجحة؛ ذلك أنّه تجاهل الحرمات والمقدّسات ولم يقدرها أو يحترمها، ومعه فلا يصح أن يحترم هو أيضاً.
إنّ الكعبة بمنزلة كرامة المسلم وشرفه؛ من هنا كان الجميع مكلفين بحفظ حرمتها، فحرمة الكعبة هي الأساس لحرمة الحرم إلى حدّ تجنّب الفقهاء - حذراً وخوفاً - من السكن فيه؛ والسبب في ذلك خوفهم من أن يرتكبوا فيه أىّ ذنب، يحتملون كونه «إلحاداً»، ممّا يخيفهم من نتائج التعذيب الإلهي: قال تعالى: (٥). (٥)
ولا يعنى ذلك كراهة العيش في ذلك المكان المقدّس، وإنّما يعنى الخوف من عدم مراعاة حقوق الحرم الإلهي الرفيع.

١- البقرة: ١٩٤.

٢- البقرة: ١٩٤.

٣- البقرة: ١٩٣.

٤- وسائل الشيعة ٣٣٦: ٩- ٣٣٧.

٥- الحج: ٢٥.

الفصل الثالث مكة المكرمة

مكة، أنموذج المدينة الفاضلة

قد تكون لبعض الأزمنة والأمكنة خصوصيات استناداً إلى جذور ترجع إليها في المخزن الإلهي، ممّا لا تملكه أزمنة أخرى أو أمكنة، إلّا أنّ الظاهر أن احترام الزمان يكون بمن فيه، واحترام المكان يكون بالتمكّن فيه. من هنا، يمكن أن تكون مكة أفضل البقاع؛ ذلك أنّها كانت منذ قديم الأيام مهدياً للتوحيد، ومركزاً للوحي، ومحلّاً لتربية الكثير من الأنبياء والأولياء وكذا لظهورهم و... حيث تمثلت الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة الذهبية بالتوحيد الخالص، وهبوط القرآن، وصعود خاتم الرسل (ص) لمقام النبوة النهائي المنيع ومركز الرسالة الخاتمة. إضافةً إلى ذلك، فقد احتوت مكة بيت الله الشريف ومكانه النهائي، من هنا كانت مقدّسةً منذ قديم الأيام، وعليه فالمدينة المنورة- كمكة المكرمة- مهبط الوحي ومحل نزول الكثير من سور القرآن الحكيم، كما أن الدولة الإسلامية شهدت قيامتها وانتظام أمرها هناك، وقد عدّ القرآن الكريم أبناء هذه المنطقة وشعبها أنصاراً لدين الله وإخوةً للمهاجرين في سبيل الله (١)، لهذا كانت المدينة لائقةً بدعاء خاتم الأنبياء (ص) (٢)، لتكون

١- الحشر: ٩.

٢- السيوطي، الدرّ المثثور ٢٩٧: ١.

ص: ٨٢

حرماً خاصاً. نعم، بركة المدينة المنورة مستمرة ما دام أبناؤها حافظين للأصول العقائدية، والأسس الأخلاقية، والفروع الفقهية. مكة أم القرى (١)، وأنموذج المدينة الفاضلة، فقد أسس إبراهيم خليل الرحمن (ع) باني الكعبة ومؤسس الحضارة، أسس المدينة الفاضلة على أركان أربعة، نظمها حول محور مركزي، ثم طلبها من الله تعالى. كان دعاء إبراهيم في هذا المجال على الشكل التالي:

١- (٢).

٢- (٣).

٣- (٤).

٤- (٥).

قيام المدينة الفاضلة يكون على أساس ميل قلوب الرعية لقادتها العارفين بالسياسة، فصّوف الأمن وزيادة النعمة الكثيرة، مع ضرورتها، إلا أنهما ليسا كافيين للناس؛ إذ هذا الأمن ووفور النعمة قد نجدهما في أقاليم وبلدان أخرى، إنما الأساس هو ميل قلوب الرعية وعطف جانبها وجذب أرواحها وجلب ثمار قلوبها، وتلك هي المحبّة. (٤) على هذا الأساس، طلب إبراهيم (ع) في أدعيته السالفة من الله تعالى، إلى جانب الأمن والاقتصاد، جذب الأئمة والقلوب إليهم.

١- الأنعام: ٩٢، والشورى: ٧، ويقول الإمام الصادق: «أسماء مكة خمسة: أم القرى، ومكة، وبكة، والبساسة، كانوا إذا ظلموا بها بستهم،

أى أخرجتهم وأهلكتهم، وأم رحم، كانوا إذا لزموها رحموا»، أنظر: بحار الأنوار ٧٧: ٩٦.

٢- البقرة: ١٢٦.

٣- المصدر السابق.

٤- المصدر السابق.

٥- إبراهيم: ٣٧.

٦- الطبرسي، مجمع البيان ١- ٣٨٧: ٢- ٣٨٨؛ وتفسير القمي ٦٢: ١.

ص: ٨٣

٥- أما المحور الأساس الذى تدور حوله الأركان الأربعة السابقة، وهو الذى يضمن الأمن ويحقق الهدوء والطمأنينة ويوفر السلامة الاقتصادية للمجتمع، فهو الدولة والحكومة القائمة على أساس الوحي الإلهي، وفي ظل إشراف وإدارة الإنسان الكامل. من هنا، طلب النبي إبراهيم (ع) من الله تعالى أن يبعث فى نسله نبياً منهم .. قال سبحانه: (١). (١)

إن إبراهيم (ع) كان قبل ذلك قد شاهد بأم عينه تحقق ظاهرة تبدو فى الظاهر غير ممكنة، وهى أن يصير صاحب ولد فى كبره وشيوخته، من هنا كان معتقداً بهيمنة الإرادة الإلهية على الأمور كافة، لهذا قال: (٢). (٢)

وبعد مضي مدة، اجتمع فيها من القريب والبعيد عديد من الناس لتظهر إثر ذلك مدينة مكة على سطح الأرض، كزر إبراهيم (ع) دعاءه السابق بشكل آخر فقال: (٣). (٣)

وقد لازمت صفة الأمن والأمان مدينة مكة حتى اشتهرت بها، إلى حد أن الله سبحانه يذكرها بهذا الاسم، فيقول: (٤). (٤)

والجدير ذكره أن تعبير () مغاير للأرض الموات البائرة التى لم تزرع؛ إذ الموات قابلة للإحياء عادةً، تماماً كما أن الأرض البائرة تقبل القيام، وما لم يزرع يقبل الزرع، أما الأرض غير ذات الزرع فتعنى التى لا يوجد فيها اقتضاء الزرع، كما

١- البقرة: ١٢٩.

٢- البقرة: ١٢٦.

٣- إبراهيم: ٣٥.

٤- التين: ٣.

ص: ٨٤

لا يمكن توفير الأسباب والإمكانات لتعميرها؛ فهي لا تبدو- بحسب ظاهرها- متمتعاً بأيّ عنصر مساعد طبيعياً على زراعتها. نعم، عدم إمكان زراعة هذه الأرض غير ذات الزرع إنّما هو بالنسبة إلى العلل والأسباب الطبيعية، أمّا بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فإن غير الممكنات العادية كافة قابل للوجود والتحقّق.

يتحدّث الله تعالى عن ظروف توفير الحياة الاقتصادية لمكّة بأنّ ذلك ليس عن طريق الغيب ولا سبيل الإعجاز، فحاجات المؤمنين الاقتصادية لا تؤمّن عبر هذا السبيل، بل (١). (١)

واليوم تتقاطر الثمرات تترى على أرض مكّة غير ذات الزرع والضرع حتى أنّ المحاصيل المتنوّعة في تمام أرجاء العالم تُحضر إلى مكّة في فصول الحجّ والعمرة كافةً.

وتوضيح ذلك:

أولاً: إنّ أشهر الحجّ قمرية وليست شمسية، وهذا ما يجعلها متنوّعة على امتداد السنين.

ثانياً: إنّ الأرض كروية، وتتنوّع أقاليمها الحارة والباردة.

ثالثاً: تختلف أذواق الناس في المدن والبلدان، وكذا إبداعاتها ومخترعاتها وفنونها المسكوبة في نتاجاتها المصنوعة.

من هنا، تظهر المحاصيل المتنوّعة الكثيرة في تمام مناسبات الحجّ والعمرة في مكّة، بدعاء إبراهيم (ع)، وكذا المدينة بدعاء الرسول الأكرم (ص)، وكما يصل زوّار مكّة على أيّ مركب ضامر أو غيره، ومن أيّ إقليم فج وقريب، ينقل أصحاب البضائع التجارية- أعمّ من الزراعة، والحيوانات، والصناعة- محاصيلهم ومتوجاتهم إلى مكّة أيضاً.

ص: ٨٥

وعليه فكما يراد من الأكل في مثل: (١) و (٢) مطلق التصرف في المأكل وغيره، لا خصوص الأكل بمعناه المصطلح، كذا يكون المراد من (٣)، حيث لا يقصد تأمين الحاجات الغذائية التي ترفع حدّ الجوع فحسب، بل يتعداه إلى تأمين مطلق الحاجات الاقتصادية أيضاً، فإنه إذا تمتعت أمة بغذائها اللازم لها، لكنها ظلت محرومة من نواحي أخرى كالمسكن والدواء والعلاج واللباس والأثاث، وسائر حاجات الحياة الأخرى، فستبقى دائماً خائفة مغمومة، ومثل هذا الوضع لا ينسجم مع الرسالة التي تريدها الآية الكريمة المذكورة.

فالمقصود من الآية توفير الجانب الاقتصادي وما شابهه توفيراً تاماً، تماماً كما ألمحت الجملة الأخرى في الآية، وهي: (٤)، إلى جانب الاستقرار الأمني الشامل وتوفير الأمن والأمان.

ملاحظة

١- إن أساس الأمن الاقتصادي والاجتماعي لمكة، وكذا نعمها الوفيرة، أمر تكويني لا تشريعي فحسب. والشاهد والمؤيد لذلك ما جاء في سور القصص والعنكبوت وقريش، وهي من السور المكية، فيما الحج الإسلامي الذي يمكنه أن يكون سبباً لحلول الأمن ونزول البركة إنما جاء تشريعه في العصر المدني، أي بعد سنين طويلة من نزول السور المذكورة.

١- البقرة: ١٨٨.

٢- النساء: ١٠.

٣- قريش: ٤.

٤- المصدر السابق.

ص: ٨٦

٢- إن الأنبياء والأولياء الإلهيين: كافة أرفع وأفضل من مجرد سلطة البطن على الطعام والشراب، ذلك أن بعض تلامذتهم- وهم الذوات المقدسة- «كان خارجاً من سلطان بطنه» (١)، إلما أنهم كانوا دائماً مهتمين بحال الضعفاء وأواسط الناس، من هنا، كانوا يطلبون من الله تعالى لهم النعم الوفيرة ورخص الأرزاق، ويسألون لهم الاقتصاد السالم حتى تتوفر بذلك أرضية لبناء الأمن الداخلي من جهة، ولحصولهم على استقلالهم واستغنائهم عن الآخرين من جهة أخرى، ليكون ذلك كله في خدمة الدين نفسه؛ فمبدأ الهوية في الإنسان إنما يصنعه الدين، لا الاقتصاد، وعدم وجود اقتصاد صحيح لأواسط الناس يعدّ مرضاً عضالاً صعب العلاج بالنسبة إلى تحصيل عقيدة أصيلة، أو حفظها بعد حصولها.

نعم، الأوحدي من الناس هو من يرى أن محورية العقيدة والحق أفضل من الرفاه العادي، أمّا على صعيد الحسابات الاجتماعية فلا بدّ من ملاحظة الأثرية ليحكم على طبق وضعها.

٣- لقد أنعم الله على الكفار، أعمّ من ذرية إبراهيم (ع) وغيرهم، ببركة الكعبة وبحرمه الحرم، إن دعاء النبي إبراهيم (ع) كي يستفيد مؤمنو مكة (٢)، لم يضيّق على غير المؤمنين ولم ينف الرزق عنهم، إنّما لم يشملهم فحسب، فهناك قصور في المشمول، لا- أنّه يوجد منع عنه، أي أنّه لم يدع للكافرين، لا أنّه دعا عليهم.

بعض الخصوصيات الفقهية لمكة

١- يكره إجارة بيوت مكة لزوارها (٣)، يقول أميرالمؤمنين (ع) في هذا المجال لعامله

١- نهج البلاغة، الحكمة: ٢٨٩.

٢- البقرة: ١٢٦.

٣- وسائل الشيعة ٣٦٧: ٩.

ص: ٨٧

على مكة: «ومر أهل مكة أن لا يأخذوا من ساكن أجراً، فإن الله سبحانه يقول: (١) فإلعاكف المقيم به، والبادى الذى يحج إليه من غير أهله». (٢)

ويقول الإمام الصادق (ع): «إن معاوية أول من علّق على بابه مصراعين بمكة فمَنع حاج بيت الله ما قال الله عزّوجلّ: (٣)، وكان الناس إذ قدموا مكة نزل البادى على الحاضر حتى يقضى حجّه». (٤)

٢- يكره البقاء فى مكة لمدة طويلة، إذ يكون ذلك باعثاً على قساوة القلب، من هنا، يقول الإمام الصادق (ع): «إذا قضى أحدكم نسكه فليركب راحلته، وليلحق بأهله، فإنّ المقام بمكة يقسى القلب». (٤)

وسرّ كراهة الإقامة لمدة طويلة فى مكة، هو ما جاء فى الرواية الآنفه من أن ذلك يغدو سبباً لقساوة القلب، وحسب الظاهر فإن هذا الإنسان لا يراعى الحقوق العظيمة لتلك الأرض، ما يفتت العهد- تدريجياً- ويضعفه العهد، كما يمت القلب.

نعم، بالنسبة للزوار المجاورين للحرم المرادين حقوقه يستفيدون من الفيض العظيم النازل عليهم، فالإقامة فى الحرم أفضل من الخروج منه. (٥)

١- الحج: ٢٥.

٢- نهج البلاغة، الرسالة: ٦٧، الفقرة: ٥.

٣- وسائل الشيعة ٣٦٧: ٩- ٣٦٨.

٤- المصدر السابق: ٣٤٣.

٥- المصدر السابق: ٣٤١.

الفصل الرابع المسجد الحرام

الحرمة الخاصة للمسجد الحرام

تتمتع المساجد كافة لاسيما منها المسجد الحرام بحرمة خاصة (١)؛ فالمسجد الحرام يحوى بيت الله الحرام، والمكان النهائى لذلك البيت الشريف (٢)، ونقطة انطلاق الإسراء والمعراج. (٣)

إن مكان الحج والزيارة، كموسمهما وزمانهما، حرامان محترمان، من هنا حرّم القتال الابتدائى فيه، لكن حيث إن القصاص لا يختصّ بالنفس أو الطرف، وإنما هناك قصاص فى نقض الحرمات وهدتك احترامها (٤)، يقول الله تعالى: (٥).

ومن الواضح أن حرمة المسجد الحرام نشأت من احترام الكعبة، تماماً كما كان

-
- ١- انظر: سورة الجن: ١٨؛ والحج: ٤٠؛ والأعراف: ٢٩، ٣١؛ والبقرة: ١١٤، ١٨٧؛ والأنفال: ٣٤؛ والتوبة: ٢٨.
 - ٢- البقرة: ١٤٤.
 - ٣- الإسراء: ١.
 - ٤- البقرة: ١٩٤.
 - ٥- البقرة: ١٩١.

ص: ٨٩

احترام الكعبة والمسجد سبباً في حرمة مكة، واحترام الثلاثة معاً سبباً في حرمة الحرم الإلهي، لكن حيث كانت هذه الحرمات كافة لأجل الإسلام نفسه صدر أمرٌ بضرورة قتل المشركين هناك عندما يتعرض المسلمون في المسجد الحرام من جانبهم للهجوم بغية إبادة الإسلام.

لقد تقدّم توضيح هذه المسألة في الفصل الخامس من القسم الأول، لدى الحديث عن «منشأ الحرمة وعزّة الكعبة» وشرحنا أنّ الحرمة التي كانت للحرم، ومكة، والمسجد الحرام، والكعبة، إنّما هي من الإمام الذي اختاره الله للولاية، ومنه ينتهي الأمر إلى الحق المطلق تعالى.

إدارة المسجد الحرام وولايته

لا يحقّ لغير المتّقين الشجعان والمدبّرين الواعين أن يديروا المراكز الدينيّة المهمّة، فنظراً للأهميّة الخاصّة للكعبة، وكذلك المسجد الحرام وحرم الأمن الإلهي، فقد بيّن القرآن الكريم بصراحة من يتصدّى أمورها، وما يمنع ذلك، بحيث جعل الصالحين اللّائقين في هذا المنصب، وطرد الطالحين غير المناسيين عنه، فأودع الأمانات الإلهيّة أهلها.

إنّ تعيين ولاة البيت الإلهي من صلاحيات الله سبحانه وحده فقط، فقد جاء في الآية الكريمة: (١)، وفي ذلك إشارة إلى عزل، بل انغزال العاصين عن تولّي شؤون المسجد الحرام، لصالح نصب المتّقين لذلك؛ فالعصاة منصرفون عن المعبد الإلهي، كما أنّهم صارفون عنه، فهم ناؤون وناهون، أمّا الأتقياء فهم في رحاب معبد الله عبيد حقّ، وهم دُعَاءُ إليه أيضاً.

إنّ تولّي أمور المساجد ليس من حقّ الناس، بل حكم إلهي وحقّ خاصّ بالله

ص: ٩٠

سبحانه، جُعل على كاهل الرجال المّتقين والزموا به؛ فهنا كان لزاماً لتولّى شؤون الحرم، والتي حصرها الله بأفراد أو فريق خاصّ، أن يمثل المّتقون في مختلف البلدان الإسلاميّة لأمر الله وقراره الغيبي في إدارة الحرم ويكون لهم دورٌ في ذلك.

والسرّ الرئيس في هذا الأمر هو أنّ الكعبة التي هي منشأ حرمة واحترام المسجد الحرام والحرم الإلهي ليست مثل سائر الآثار القديمة للأقوام والشعوب والملل، حتّى ينفرد بإدارتها فريق خاصّ يحرسونها ويهتمّون بها؛ فلو كانت الكعبة مثل سور الصين، وأهرام مصر، وما شاكل ذلك، لم تكن لتحوّل إلى نقطة تجمّع روحى للمسلمين جميعاً في مختلف أقطار العالم على امتداد التاريخ.

إنّ الذي يُستنتج من الآية الشريفة: (١)، ومن الحديث الذي يبيّن سرّ تربع الكعبة (٢)، أنّ بناء الكعبة ومكانه وسائر ما يتعلّق بها كان أمراً من جانب الوحي الإلهي، إضافةً إلى ذلك، لم يكن للبشر العاديين أى حضور حتّى يشارك مهندس أو بناء في أمرها، بل كان إبراهيم (ع) هو المتعهّد لذلك بالوحي الإلهي؛ وعليه فالكعبة في تمام أبعادها الفنيّة والصناعيّة، وفي الأدوات، والأرض، والخارطة، مرتبطة بالله ومنزهة عن غيره، ومبرّأة عن سائر الناس، فهذا البناء المقدّس هو أوّل بناء بُني للبشر بوصفه معبداً (٣)، ولذلك كان جائزاً لتوسعة المسجد الحرام، الاستيلاء على الأمكنة المجاورة وتخريبها، والتي هي في الحقيقة حريم للكعبة، تماماً كما قال الإمامان الصادق والكاظم، لرفع توهم غصبية مثل هذا التخريب: «إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، وإن كان الناس هم

١- الحج: ٢٦.

٢- بحار الأنوار ٥٧: ٩٦، وراجع: المصدر السابق، هامش صفحة ٨٦.

٣- آل عمران: ٩٦.

ص: ٩١

النازلين بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها». (١)

وخلاصة القول: إن الكعبة لا ترتبط بشخص بعينه أو فريق كذلك، وهي لا تتبع أى قانون من القوانين البشرية المجعولة، وإنما هي تبلور الإسلام، وذلك:

أولاً: أنها مثل القرآن الكريم والرسول الأكرم لا تعتمد إلّا على الله تعالى.

ثانياً: كما أن القرآن الكريم كتاب الله وكلامه، وليس نتيجاً فكرياً لأى إنسان، ولا يمكن لأحد أن يأتي بمثله، وكما كان الرسول الأكرم (ص) غير متلمذ على يد أحد، وليس لأى إنسان حقّ التعليم والتزكية عليه، من هنا كان عبد الله ورسوله ... كذلك الكعبة- ملكاً وخرطةً وبناءً ومعماريةً و...- متعلّقة بالذات الإلهية.

ثالثاً: كما أن الله تعالى ضمن حقيقة القرآن من تناول الطواغيت عليها، وحفظها من سهام التحريف وصانها من ذلك، وكما ثبت رسالة الرسول الأكرم (ص) بالمعجزات المختلفة، وأبقاها ثابتةً، كذلك صان الكعبة دوماً من جابرة وأباهرة الماضى والحاضر والمستقبل.

رابعاً: كما يجب على كافة مسلمى العالم حماية القرآن وحراسته وأن يكونوا جادين فى صيانة الشخصية الحقيقية للنبي الأكرم (ص) ورسالته، كان واجباً عليهم الجهاد لحفظ أمن الحرم وتقديسه.

خامساً: كما أن مجرّد عريّة القرآن أو نزوله فى الحجاز ليس دليلاً على اختصاصه بقوم خاصين، ومجرّد كون النبي الأكرم (ص) قد عاش فى الحجاز وتوفى فيها وكان مزاره الشريف فيها ... ليس دليلاً على اختصاص هذا الرجل العظيم بالعرب أو بشعب الحجاز، كذلك مجرّد وقوع بناء الكعبة فى الحجاز وتأمين موادّها الخام من تلك الديار ليس سبباً لاختصاصها بالعرب أو بشعب الحجاز أو بدولة تلك البلاد؛ ذلك أنه حتّى لو كانت الكعبة قد بُنيت من الأحجار ولها جسم ظاهرى مثل سائر الأحجار، إلّا

ص: ٩٢

أنها حيث كانت محاذية لعرش الله، ومبتدئة جدرانها الأربعة على خارطة التسيحات الأربع، أي حقيقة التسيح والتحميد والتهيل والتكبير، وكلها ترجع إلى التوحيد (١)، وكانت متحررة من كافة السلطات والقوى الكبرى العتيقة... فإنه لا مثل لها ولا نظير. إن تولّى هذا البناء المقدس القائم على الإخلاص والطهارة إنما هو في عهده المسؤولين الصالحين الورعين، فلو كان الإمام المعصوم (ع) ماسكاً بزمام الزعامة والحكومة، فإن الكعبة تُدار حينئذ تحت الولاية المعصومة لهم، وإلا كانت تحت ولاية النائب الخاص، وإلا فالنائب العام للإمام، وهو الفقيه جامع الشرائط المطلوبة في القيادة، وإذا لم يتوفّر فقيه مدير ومدبر لتولّى هذا الشأن، ينتقل الدور لعدول المؤمنين.

١- بحار الأنوار ٥٧: ٩٦؛ روى عن الصادق أنه سئل لِمَ سَمِّيت الكعبة؟ قال: «لأنها مربّعة»؛ فقيل له: ولم صارت مربّعة؟ قال: «لأنها بحذاء البيت المعمور، وهو مربّع»، فقيل له: ولم صار البيت المعمور مربّعاً؟ قال: «لأنه بحذاء العرش وهو مربّع»، فقيل له: ولم صار العرش مربّعاً؟ قال: «لأنّ الكلمات التي بُني عليها الإسلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

الفصل الخامس الكعبة المشرفة

الموضع المركزي للكعبة

ليس الإنسان من ناحية تجرد الوجود كالملائكة حتى يستغنى عن التنسيق والتعاون مع بنى جنسه، كما أنه ليس مادياً كالحوانات حتى لا يكون محتاجاً لتبادل الرأي والتعاون، كما أنه - أيضاً - غير قادر أن ينتهي أمره إلى التشتت والتمزق والتلاشى اعتماداً على معتمد تكويني، ويفهم سر اتحاده مع أبناء نوعه ورمز ذلك، فيتحرك عبر سلوك خاص ومناسب للوحدة، فيصل بشعار (١)، للتحزّر من كل عيب ونقص وبلوغ مرتبة الكمال الإنساني.

إنّ الإنسان بحاجة إلى المجتمع، ولا يمكنه من دون التنسيق والتعاون أن يرسم الخطوط الأساسية والمعالم الكبرى لسعادته؛ من هنا كان لزاماً عليه الاتحاد مع أبناء نوعه، كما يلزمه أن يجعل ارتباطه بالآخرين قائماً على محاور عتيّة وتكوينيّة، يكون لها حظّ من الخلود والأبدية.

للإنسان في ذاته وأعماقه مادّة السعادة الحقيقيّة من كافّة الجوانب، والوحدة الشاملة مع مختلف المجتمعات البشرية، بوصف هذه المادّة الكامنة في أعماقه أصلاً

ص: ٩٤

ثابتاً وعمماً ودائماً ذا جهة واحدة، بحيث لا يوجد أى فرد إنسانى فى أى عصر وزمان وفى أى موضع ومكان خالياً عن هذا الأصل الكامن فى داخله؛ إنه المادة الرئيسة للتكامل التكويني، إنه لغه الفطرة التوحيدية (١) التى يمكنها الربط بين أبناء البشر دون حاجة إلى أى اعتبار أو تعاقد أو تصويب، وكل ارتباط وعلاقة لاتنسجم مع الجذر التوحيدي للبشر فهو زائل اعتبارى لا قرار له. وعلى هذا الأساس، فالإنسان- فى منطق الوحي- ينسجم فقط مع الإسلام العالمى الإلهي، فهذا الدين هو الذى يجعل الجميع منسجمين، موحدين، متناغمين، مترافقين، ويوصلهم إلى كمالهم النهائى. من هنا، اعتبر الله سبحانه الإسلام ديناً عالمياً، ودعا العالمين إلى قبوله، وبين معالمه الأصيلة العائمة والدائمة والشاملة لتمام الجهات والنواحي، محدراً من الانفصال عنه، ومعلناً خطر الإعراض عنه أو الاعتراض عليه أو معارضته، إنه يقول: (٢).

المحاور الأصيلة للوحدة

إشارة

يتمكّن الإنسان من الحصول على براعم الفطرة المشتركة والمزايا المشتركة للدين العالمى عندما يكون فى هذا الدين عناصر الوحدة الأصيلة والثابتة والتوحيدية. من هنا أعلن الله سبحانه القرآن الكريم كتاب الجميع، ومحوراً فكرياً وعملياً للعالمين، كما قدّم لنا الرسول الأكرم (ص) بمتابئة تعين لأحكام القرآن بوصفه اسوةً وقائداً

١- الروم: ٣٠.

٢- آل عمران: ١٠٣.

ص: ٩٥

عالمًا وعالميًّا، كما جعل الكعبة المقدّسة نقطةً لاجتماع أطراف العالم الإسلامي وقبلةً ومطافاً للعالمين، حتّى يتّحد المسلمون بالحصول على هذه المحاور الأصليّة التوحيدية.

ونحاول هنا- وبشكل مختصر- الحديث عن عالميّة هذه المحاور المذكورة:

١- عالميّة القرآن الكريم

الإنسان الكامل سَمِعَ الرسالة الإلهية وحامل النداء الربّاني، وإذا كان مظهرًا للاسم الأعظم وأكمل الناس فإنّه يتلقّى كتابًا يكون أكمل الكتب، يستوعب سعة الأرض وامتداد الزمان وانبساط التاريخ؛ لذلك أنزل الله سبحانه القرآن لهداية الجميع على القلب المطهّر للرسول الأكرم؛ وإضافةً لآيات التحدّي التي تدلّ على عالميّة القرآن، ثَمَّة آيات في هذا الكتاب نفسه تجعله مذكّرًا وذكرى للمجتمعات البشرية كافّة، حتّى يتذكّر الجميع عهد فطرتهم، كما اعتبر هذا الكتاب إنذارًا سماويًّا كي يظلّ البشر على حذر بأجمعهم من مختلف المعاصي والذنوب. (١)

وكما كانت أدلّة عالميّة القرآن ثابتةً وهو تمظهر دعوة النبي الأكرم (ص) ومعجزته الخالدة، كذلك هي بنفسها دليلًا على عالميّة رسالته (ص) أيضًا، فكلّ دليل يدلّ على عالميّة رسالة الرسول الأكرم (ص) يدلّ أيضًا على عالميّة القرآن المجيد؛ ذلك أنّهما متلازمان، ودليل كلّ واحد منهما يمثل دليلًا- بالملازمة- على إثبات الآخر.

٢- عالميّة رسالة الرسول الأكرم

إنّ رسالة الإنسان الكامل، والذي هو- بنحو مطلق- خليفة الله ولا أكمل منه في عالم الإمكان، وسيعة شاملة إلى حدّ لا نبيّ بعده على امتداد التاريخ ولا على اتّساع

١- البقرة: ٢، ١٨٥؛ والأنعام: ١٩، ٩٠؛ والزمر: ٢٧، ٤١؛ والمدثر: ٣١؛ والفرقان: ١.

ص: ٩٦

جغرافيا العالم؛ ولا مقارناً له أيضاً؛ من هنا لم يكن من أنبياء أولى العزم فحسب، بل هو خاتم الأنبياء (ص) جميعاً، وخاتمة أصل النبوة والرسالة، وكل الأدلة الدالة على خاتمته دالة تلقائياً على عالميته رسالته أيضاً.

إضافة إلى الموارد المذكورة، ثمة في آيات القرآن ما يتحدث عن كليه رسالة النبي (ص) ودوامها (١)، وأنها جاءت وبئنت لكافة البشر في تمام الأعصار والأمصار دون اختصاص بفريق خاص بعينه.

٣- المركزية العالمية الخالدة

لابد للناس المعتقدين بالدين العالمي والكتاب الكوني، وهم أتباع النبوة العامية والدائمة، أن يكون لديهم مركز عام وثابت لا تغيير فيه، يكون محوراً لتبادل الآراء من مختلف المناطق، حتى يلتقى الجميع من القريب والبعيد مع بعضهم بعضاً ويطرحوا القضايا العلمية والعملية فيما بينهم، فيعيدوا قراءة مشاكلهم السياسية والاجتماعية ويقومون بحلها، كما يوثقون عرى العلاقات الثقافية والأخلاقية ... إلى غيرها من الفوائد الاخرى التي يمكن فهمها من إطلاق الآية الكريمة: (٢).

لهذا خصيص الله سبحانه الكعبة المعظمة، كي يرتبط بها المسلمون في العالم في السنين كافة، وكذا الأشهر، والأسابيع، والأيام، والساعات، والدقائق و ... وفي مناسبات مختلفة، في شؤون حياتهم كافة؛ من هنا نقول: «والكعبة قبلتي ..» (٣) لتعظيم الكعبة وتقديسها وإعلان الارتباط الذي لا ينفك بها في الموت والحياة.

إن الارتباط العالمي بالكعبة لا ينقطع ولا للحظة واحدة، فبسبب كروية الأرض

١- الأنبياء: ١٠٧؛ سبأ: ٢٨؛ والنساء: ١٧٠؛ والأعراف: ١٥٨ و ...

٢- الحج: ٢٨.

٣- بحار الأنوار ١٧٥: ٦، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٧-٢٣٨.

ص: ٩٧

واختلاف جهة القبلة في البلدان والمدن، ولعدم اتحاد أوقات الصلوات والأدعية و... في المناطق بالنسبة لسكان الأرض، فإنَّ كلَّ لحظة تشهد وجود شخص متَّجه إلى القبلة في حال صلاة ودعاء.

وسوف يأتي مزيد من التوضيح حول الأبعاد المختلفة للكعبة المعظمة في المبحث القادم، كما سنتحدَّث عن بعض أوجه الشبه بين الكعبة والقرآن الكريم والرسول الأكرم (ص).

خصائص الكعبة

إشارة

إنَّ البشر الذين يتَّجهون إلى جهة واحدة، ويدورون حول محور ومطاف واحد، سوف يعرفون بشكل أفضل معبودهم عندما يتعرَّفون على المزايا المعنوية لهذا المعبد، فيعبدون الله دون أيِّ شائبة أكثر فأكثر، من هنا ذكر الله تعالى جملةً من الخصائص لقبلة العالمين ومطاف الزائرين، أي بيت الله الحرام، وسوف نشير في مطاوى هذا البحث إلى بعضها.

ومع ملاحظة هذه الخصائص سوف تتضح أسرار بعض الكلمات التي قالها الرسول الكريم والأئمة المعصومون حول الكعبة، مثل هذا البيان النوراني للرسول الأكرم (ص): «من أيسر ما يُعطى من ينظر إلى الكعبة أن يعطيه الله بكلِّ نظرة حسنة، وتُمحى عنه سيئته، وتُرفع له درجة». (١)

ومثل قول الإمام الصادق (ع): «النظر إلى الكعبة عبادة» (٢)، وقوله: «يصلح [ثياب

١- وسائل الشيعة ٣٦٥: ٩.

٢- المصدر السابق: ٣٦٤.

ص: ٩٨

الكعبة [للصبيان والمصاحف والمخدّة يتغى بذلك البركة إن شاء الله. (١)]

وقول الإمام الباقر (ع): «الدخول فيها دخول في رحمة الله، والخروج منها خروج من الذنوب، معصوم فيما بقى من عمره، مغفور له ما سلف من ذنوبه». (٢)

وما جاء: «الداخل الكعبة يدخل والله راض عنه، ويخرج عطلاً من الذنوب» (٣)، أى طاهراً منها.

والجدير بالذكر أننا قد شرحنا بعض خصائص الكعبة كمنشأ حرمتها وعزتها، وكذا مركزيتها للبراءة من الطغيان والشرك، فى الفصل الخامس والسادس من القسم الأول، وهنا نذكر خصائص أخرى للكعبة الشريفة:

١- تجلّي العرش

إشارة

لكلّ شىء عند الله خزائن ثابتة لا تبنى ولا تنفد، وينزل من تلك الخزائن الغيب، قال تعالى: (٤)، لاعلى نحو التجافى المستلزم للعدم والزوال، وإنما على نحو التجلّي، وعليه فموجودات عالم المادّة بأجمعها لها أصل محفوظ عند الله تعالى، ويرسل من هذا الأصل إلى الأسفل طبقاً لهندسة خاصّة، وكلّ ما ينزل يكون له علاقةً لله ومرآةً له، قال (ع): «والحمد لله المتجلّى لخلقه بخلقه» (٥)، تماماً كما يرجع إليه: (٦).

١- المصدر السابق: ٣٥٩.

٢- وسائل الشيعة ٣٧٠: ٩.

٣- المصدر السابق.

٤- الحجر: ٢١.

٥- نهج البلاغة، الخطبة ١٠٨، الفقرة: ١.

٦- الشورى: ٥٣.

ص: ٩٩

ومن جملة هذه الامور أجزاء الكعبة وأركانها، وهى التى لها أصل طاهر فى المحضر الإلهى، وكلّ هذه الامور تنزل من ذاك الأصل الطيب. (١)

وشاهد هذا الكلام رواية وردت فى سرّ تربع الكعبة وقد جاء فيها:

«لأنها بحذاء البيت المعمور، وهو مربع، فقيل له: ولم صار البيت المعمور مربعاً؟ قال: لأنه بحذاء العرش وهو مربع، فقيل له: ولم صار العرش مربعاً؟ قال: لأنّ الكلمات التى بُنى عليها الإسلام أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». (٢)

ومضمون الكلام الرفيع والنوراني للإمام الصادق (ع) هو أنّ التسيّحات الأربع التى يقوم عليها نظام الوجود هى السبب فى تحقّق العرش المربع، وتكوّن العرش هو الأساس فى تحقّق البيت المعمور، وهو ما يفضى فى النهاية إلى تحقّق موجود طبيعى فى عالم الطبيعة، ألا وهو الكعبة والجدران الأربعة، ومعنى ذلك أنّ ما هو فى عالم الطبيعة انموذج لما فى عالم المثال، وعالم المثال هو الآخر انموذج لعالم المجرّدات التامّ، وعالم المجرّدات التامّ أنموذج للأسماء الإلهيّة الحسنى، التى هى فى أعلى التمام، والخلاصة أنّ ذاك النظام الربانى بترتيب درجات وجوده يعدّ أساساً لتحقّق النظام العقلى والمثالى والطبيعى.

المراحل الأربع لأركان الدين ومعارفه

وكما انتظمت الكعبة على نسق العوالم الفوقية، كان القرآن والصلاة والصوم والحجّ والعمرة وسائر العبادات والآيات الإلهيّة كذلك، وعلى هذا الأساس، كانت للولاية مراحل أربع كالتى تقدّمت؛ ذلك أنّ الولاية من المباني المهمّة للإسلام، فالولاية

١- وسائل الشيعة ٣٨٦: ٩-٣٨٨، ٤٠٢-٤٠٧.

٢- بحار الأنوار ٥٧: ٩٦، وراجع المصدر السابق، هامش صفحة ٨٦.

ص: ١٠٠

والقيادة في عالم الطبيعة وفي المجتمع الإنساني بمنزلة الكعبة، تماماً كما يقول أمير المؤمنين عليّ (ع): «مَثَلُ الإمام مثل الكعبة؛ إذ تُؤتى ولا تأتي» (١).

وعليه فالوجود الطبيعي والعنصري للولاية بمنزلة الكعبة الطبيعيّة، تماماً كما أنّ الوجود المثالي لها بمنزلة البيت المعمور، ووجودها العرشي بمنزلة الوجود العرشي للكعبة، وعلى ذلك فالولاية لها باطن يقف أمام التسيّحات الأربع؛ من هنا قال الأئمّة المعصومون: «سَبَّحْنَا وَسَبَّحْتَ الْمَلَائِكَةُ» (٢)، أي أنّهم كما قالوا للناس في النشأة الطبيعيّة: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» (٣)، و«خَذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ» (٤)، كذلك في العالم العلوي يعدّ أهل البيت: إمام الملائكة، ومن التلقائي أنّ الولاية كالصلاة معراج للمؤمن يتحلّى بصبغة التوّلّي للأولياء الإلهيين، وعليه، فكما يُقال لقارئ القرآن: «إِقْرَأْ وَارْقُ» (٥)، كذلك يُقال للمصلّي: «صَلِّ وَارْقُ»، ويقال لمتولّي الأولياء الإلهيين: «تَوَلَّ وَارْقُ»، وللحاج والمعتمر: «حَجَّ وَاعْتَمِرْ وَارْقُ».

إنّ الذي يطوى المراحل الأربع المذكورة سيكون قلبه عرش الرحمن، «قلب المؤمن عرش الرحمن» (٦). وإذا أخذنا بعين الاعتبار الرواية التي تبين سرّ تربع الكعبة سوف يتضح معنى الحديث القائل عن الكعبة: «إنّها قبله من موضعها إلى السماء» (٧)؛ ذلك أنّه وإن كان ظاهر هذا الحديث التأكيد على الانتباه للبعد العمودي بوصفه حكماً فقهياً؛ إلّا أنّه

١- المصدر السابق ٣٥٣: ٣٦، ٣٥٧.

٢- بحار الأنوار ٣٤٥: ٢٦.

٣- عوالي اللئالي ١٩٧: ١.

٤- المصدر السابق: ٢١٥.

٥- الكافي ٦٠٦: ٢.

٦- بحار الأنوار ٣٩: ٥٥.

٧- وسائل الشيعة ٢٤٧: ٣.

ص: ١٠١

بقريئة الحديث الذي يبين سرّ تربع الكعبة (١) يحكى لنا بدلالته الباطنية عن الارتباط الوجودى ما بين عوالم الطبيعة والمثال والعقل، وهو الطريق الذى يبدو طيه لنيل الحقائق ممكناً، فالتأمل والتدبر فى المعارف مستفاد من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

إنّ الروح الطاهرة لزوار الكعبة ستصل - بالإمداد الإلهى ونيل توفيق المتعالى والصعود والرقى - إلى المقام الشامخ للبيت المعمور ثم إلى مقام العرش، قال تعالى: (٢)، وكما أن تنزل العرش الإلهى، وكذلك البيت المعمور على نحو التجلى لا التجافى، كذلك فى الإنسان وتعالیه نحو المقام الأعلى يكون فى صورة الصعود الروحانى، لا الترقى المکانى أو التجافى الأرضى، وعليه فإذا لم يدرك الزائر هذا المعنى الراقى ولم يكن هدفه من الطواف حول الكعبة هو التعالى الروحى، ولم ير هذا البيت معادلاً للبيت المعمور، ولم يفهم أنّ هذا البيت المكعب كالعرش فى الأرض، فلن يدرك المكانة الرفيعة للكعبة، ولن يعقد طرفاً لنفسه للقبول بمصطلح علم الكلام، رغم أنه استفاد من الصحّة والقبول السائدين فى علم الفقه.

إنّ المقيم للحجّ والمعتمر الذى يفكر تفكيراً أرضياً يطوف حول الكعبة، إنّه محدود التفكير فى أن لا يتخطى الحدود الفقهيّة للمطاف (٥/٢٦ ذراعاً أو ١٣ متراً وزيادة)، إلّا أنّ الذى تكون همّته وفكره أعلى وأرفع يطوف بالكعبة والبيت المعمور، فيما الطائف الأعمق نظراً يتخطى الآخرين فيطوف حول الكعبة والبيت المعمور والعرش، ومثل هذا الحاج والمعتمر يصير قلبه عرش الرحمن، إنّه الأوحدى من المعتمرين

١- بحار الأنوار ٥٧: ٩٦، وانظر المصدر السابق، هامش صفحة: ٨٦.

٢- فاطر: ١٠.

ص: ١٠٢

والحجاج الذى يدور حول التسيحات الأربع، فمن وجهه نظر هذا الزائر لا تكمن قيمة الكعبة وشموخها فى ارتفاع جدرانها، وإنما فى رفعة الله تعالى لإسمها وذكرها وهو الأساس فى رفعة الطائفتين، تماماً كما كان الرسول (ص) مرفوع الذكر (١)، وإلّا فالكعبة وسط الأبنية والأبراج العالية المحيطة بها لا يظهر منها ولا يبرز شىء سوى منارات المسجد الحرام.

٢- قيام أسس الكعبة على التوحيد المحض

إنّ بناء الكعبة وتعيين أبعادها وشكلها إنّما هو بهداية من الله سبحانه، قال تعالى: (٢)، فهذه الآية تعنى أنّ مكان الكعبة وهندستها مع رعاية الموضوع الخاص لها إنّما حصل بهداية إلهية، على أساس التوحيد الصرف، بحيث ليس ثمة شرك إطلاقاً أعم من الشرك الجلى والخفى بمكة يمكنه أن يلوّثها.

وانطلاقاً من أنّ «كلّ أثر هو مظهر للمؤثر وكلّ مؤثر متجلى فى أثره»، فإنّ أى وصف ممتاز لحقّ الشخصية البارزة، للنبين الكيرين والبانين العظيمين للكعبة؛ أى الخليل والذبيح، وجاء فى النقل حولهما، يعدّ سنداً دالاً على رسم خطوط المظهر المعنوى للكعبة، وهو بمثابة شرح لمصالح بنائها، وعليه فكما لم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان حنيفاً، وسطاً، مسلماً، موحداً، ومنقاداً محضاً، ذائباً فى التوحيد، معصوماً من تأثير أى نوع من أنواع الشرك، يمكن أن تكون أوصاف الاعتدال والتوحيد والانقياد من عناصر هندسة الكعبة، كما يظهر فى بنائها خلوص وصفاء بنائها، فقد مزجت هندستها بقداسة الخلوص.

من هنا، فكلّ من كان أكثر قرباً لإبراهيم وأليق به كان أكثر لياقة لأن يكون

١- الانشراح: ٤.

٢- الحج: ٢٦.

ص: ١٠٣

حامياً للكعبة، ولعمرائها الصورى والمعنوى، وهذا الفريق - غير أنصار إبراهيم فى عصره - هم الرسول الأكرم (ص) والمؤمنون الأصليون الخالصون الذين لا يتمون إلى اليهودية ولا إلى الانحراف، وإنما إلى الاعتدال فى العقيدة والخلق والعمل الصالح، وهم غير مبتلين بالشرك الاعتقادى ولا الأخلاقى ولا العملى.

وانطلاقاً من أن الأثر مظهرٌ للمؤثر وأوصافه لها أثر فيه، نلاحظ كيف قام مسجد قبا على أساس التقوى والرضوان الإلهى، فيما أسس مسجد ضرار على أساس الشرك والجرف الهار الذى ينهار به فى نار جهنم. (١)

وعلى أية حال، فالكعبة بهذه الهندسة الإلهية موضوع ومتعلق للكثير من الأحكام والفروع الفقهيّة، ومن بينها الحجّ، وكلّها تدور حول الأخلاق الصحيحة، وترتهنّ تلك الأخلاق الصحيحة بالعقيدة السالمة التوحيدية، وكما كان التوحيد شجرة طوبى والتقوى ثمرة من ثمارها، كذلك الكعبة بُنيت على أساس التوحيد الخالص المنزه عن مختلف أشكال الشرك، فكانت أصلاً لكافة الأبنية المؤسسة على التقوى، ومن بينها بناء مسجد قبا المقام على التقوى، حيث كان فرعاً من فروع هذا الأصل، وثمره من بذوره.

ومن نماذج هذا التجلّى للتوحيد الخالص عند الموحّدين الحقيقيين ما نقل من أنه: «قيل للزهري: من أزهّد الناس فى الدنيا؟ قال: على بن الحسين (ع) حيث كان، وقد قيل له - فيما بينه وبين محمّد بن الحنفية من المنازعة فى صدقات على بن أبى طالب (ع) -: لو ركبت إلى الوليد بن عبد الملك ركة لكشف عنك من عزر شرّه وميله عليك بمحمّد فإنّ بينه وبينى خلّة، قال: وكان هو بمكة والوليد بها، فقال: ويحك أفى حرم الله أسأل غير الله عزّ وجلّ؛ إنى آنف إذ أسأل الدنيا خالقها، فكيف أسأل مخلوقاً

ص: ١٠٤

مثلي؟ (١).

٣- تشييد أركان الكعبة على الفلوس الأصيل

إنّ بناء الكعبة ورفع بنيانها عبادة خالصة قام بها إبراهيم الخليل وإسماعيل، حيث لم يفعل ذلك إلّا الله، ولم يطلبوا جزاءً ولا شكراً على ذلك من أحد، قال تعالى: (٢).

ولم يكن هذا الإخلاص والخلوص لفظياً، وإنما كان قلبياً كامناً في أرواحهم، كما هو ظاهر على ألسنتهم؛ ذلك أنّ الذي يأتي الله تعالى بقلب سليم (٣)، لن يطلب قلبه ولن ينوي غير الله سبحانه، وأنّ قوله: (٤)، يعني أنّ طهارة ضميره لن تتلوّث بما ينافي خلوصه وإخلاصه.

لقد قامت الكعبة على أساس الخلوص، ولأجل تقوى البناء وقعت موقع القبول من الله تعالى؛ وحيث كانت هندسة الكعبة على أساس التوحيد وعمرانها على أساس التقوى والخلوص.. لذا نالت شرف الانتساب إلى الله سبحانه فصارت بيت الله، وتحوّلت إلى شجرة طوبى أعطت ثمارها في مختلف أنحاء العالم على صورة المساجد والمشاهد المشرفة، (٥).

٤- مركز الطهارة ومطاف الطاهرين

١- بحار الأنوار ٧٥: ٤٢.

٢- البقرة: ١٢٧.

٣- الصافات: ٨٤.

٤- الصافات: ١٠٢.

٥- النور: ٣٦.

ص: ١٠٥

لقد كان تطهير الكعبة من الشرك واللوث، وتنزيهها من غبار الطغيان والتمرد، بأمر من الوحي الإلهي، قال تعالى: (١)، فقد أمر إبراهيم وإسماعيل بذلك، قال سبحانه: (٢)، لقد كانوا ملتزمين تطهير البيت الحرام على نحو الدفع والرفع، أي أنهم يزيلون آثار الشرك الباقية من الآخرين، كما لا يسمحون بآثار الشرك والانحراف الجديد أن ترسخ وتظهر وتتعاظم.

لقد أحيل تأمين طهارة الكعبة في البداية إلى النبي إبراهيم (ع) بوصفه المسؤول الرئيس عن تأسيسها، قال تعالى: (٣)، وفي مرحلة البقاء، عهد الأمر إلى كل من إبراهيم وإسماعيل، قال سبحانه: (٤)، وسرّ هذا الأمر بالتطهير قبل الوجود، وإفراد الخطاب، ثم إعادة الأمر بعد الوجود وتثنية الخطاب هو أن الطهارة أساس للكعبة، ووجود الأساس ضروري في مرحلة الحدوث وفي مرحلة البقاء، ولا يمكن أن يقوم بناء دون أساس، كما أنه إذا كان الأساس خراباً هزياً لم يبق البناء.

إنّ حذف متعلقات الأوامر المذكورة دليل على العموم، أي أنه لا بد أن يكون حريم الكعبة من الداخل والخارج وكذا فضاء حرمها المتعلق بها مصفّى منقى مطهر من كلّ رجس ورجز ظاهري أو باطني، فقهي أو طبي.

وبهذا الميثاق الإلهي في الطهارة:

أولاً: ليس هناك من يليق بإدارة الكعبة إلّا الطاهرون، قال تعالى: (٥)

١- الحج: ٢٦.

٢- البقرة: ١٢٥.

ص: ١٠٦

(١) وليس للمشركين على أساس (٢)، حقّ الدخول إلى هذا الحرم الآمن.

ثانياً: لا يبقى بذلك أى مجال لتسافل وتلوّث الشرك والمشركين، ولا لقبح ولوث الصنم وعبادة الأصنام، من هنا كان أول ما أقدم عليه الإسلام بعد الانتصار على الإلحاد وعبادة الأصنام هو تطهير الكعبة بأمر من رسول الله (ص) وبيد أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب (ع) من لوث الأصنام وكدر الوثنية، فإذا ما صارت الكعبة بعد الخليل والذبيح إلى أيدي صنائد الجاهلية فصارت معبداً للأصنام، إلّا أنّها عادت للطهارة على اليد المقتدرة لرسول الله (ص) والعضد المتين العلوى، وإذا ما لوّث يوماً برجس التحجر والرجز القائمين على تغطية الدّين (٣) عبر شعار «حسبنا كتاب الله» فإنّ حضور الشعب المؤمن والملتزم والمنتظر واقعاً لفرج أهل بيت النبوة سوف ينزّها مرّةً جديدةً.

وكما أنّ القرآن الكريم فى كتاب مكنون لا- يمسه إلّا المطهرون (٤)، فإنّ حقيقة الكعبة وسرّها مطهران من لمس الأيدي الملوّثة، وليس لغير الطاهر معنوياً قبل التوبة من توفيقٍ للوصول إليها، ولن يجتمع حولها للطواف سوى الطاهرون، فيجعلونها محور شؤونهم كلّها فى حياتهم، حيث إنّ الطيب من الطيب والخبيث من الخبيث (٥)، وذلك كلّه لسببين:
الأول: الحجر الأسود الموجود فى الكعبة والذى هو بمنزلة يد الله تعالى (٦)، وكلتا

١- الأنفال: ٣٤.

٢- التوبة: ٢٨.

٣- الحجر: ٩١.

٤- الواقعة: ٧٧-٧٩.

٥- النور: ٢٦.

٦- وسائل الشيعة ٤٠٦: ٩.

ص: ١٠٧

يديه- وليس له يد- يمين. (١)

الثاني: لأنّ هناك شخصيتين ديتيتين كبيرتين ونبويتين كانتا مسؤولتين عن تطهيرها، وليس المقصود من الأمر بالتطهير خصوص التطهير من النجاسات الظاهرية.

تعدّ آية: () صغرى لقياس كبراه الكليّة موجودة في آية: () (٢)، رغم أنّ الآية الثانية جاءت في مسجد قبا، إلّا أنّها أصل كلّى أبرز مصاديقه الكعبة والمسجد الحرام، ذلك أنّ تمام المساجد فروع للكعبة، ولأداء احترام الكعبة تعدّ المساجد الاخرى محترمة؛ فلكلّ مسجد محراب يمثّل مظهره ومعلمه، وهذا المظهر يتّجه ناحية الكعبة دوماً، قال تعالى: () (٣).

وتوضيح هذه النقطة أنّ في الإسلام الكثير من الامور المشروطة باستقبال الكعبة، إلى حدّ أنّ حياة وممات كلّ مسلم مربوطان بالكعبة، إلّا أنّ الصلاة عمود الدين، والمسجد حتّى لو وضع لأهداف اخرى إلّا أنّ أهمّ أهدافه إقامة الصلاة فيه، وهي أمر مشروط بالقبلة، ومن هنا فتمام المساجد لها جهة معيّنة وهي جهة الكعبة، وبهذا التحليل يظهر أنّ تمام المساجد متّجهة إلى أمّ المساجد الموضوعه في أمّ القرى، وهكذا استست.

نعم، القبلة الرسميّة للمسلمين عموماً في العالم هو ذاك البعد الموجود في الكعبة،

١- بحار الأنوار ١٥٩: ٥.

٢- التوبة: ١٠٨.

٣- البقرة: ١٤٤.

ص: ١٠٨

والمسجد الحرام إلى جوار الكعبة، فيكون من هذه الناحية مورد توجه المسلمين في الصلاة، كما أن مكة أم القرى، بمعنى أنها من الناحية المادية أصل المدن كافة وكذا القرى، كما أنها من الناحية المعنوية كذلك، ومسألة القبلة من هذا القبيل. وعلى أية حال، فقد بُين في ذيل الآية الشريفة المذكورة وظيفه أهل المسجد حيث جاء: () وإذا ما صار شخص طاهراً صار محبوباً لله تعالى، ()، وإذا ما صار محبوباً لله صار مجرى فيض الحق، ويجرى الله في مقام العمل والفعل أعماله على يديه. يقول الله تعالى بصراحة حول الكعبة أنها بُنيت على الطهارة: ()، ومع الالتفات إلى هذا الأمر من تعليق الحكم على الوصف مشعر بالعلية، يستفاد من الآية أن المصلين غير الطاهرين يجب في الحقيقة ألا يتجهوا إلى الكعبة، وكذلك الطائفون لا يطوفون بها، بمعنى أنهم لا يصلون ولا- يطوفون الصلاة والطواف الحقيقيين، ذلك أنه لا- يمكن نيل سرّ وحقيقته بيت الله دون طهارته، كما أنه لا يمكن الحصول على معارف من القرآن دونها.

وكما أن القرآن الكريم مرآة صافية لا- يرى الناظر فيها إلا جماله أو قبحه، كذلك الكعبة مرآة لا غبار عليها يرى فيها الناظر وجهه الجميل أو البشع، من هنا فغير الطاهرين الذين تلوّثوا برجس الشرك ولوث الطغيان والتمرد، لن يتمكنوا من إدراك الكعبة بوصفها بيت الله المنزه عن الحلول في المكان والمبرأ عن الحصر في الزمان، والمقدّس عن الحاجة، والمسيح عن الفقر والفاقة لأحد أو شيء، ولن يستطيعوا النجاح في الصلاة في حريمها؛ من هنا وصف الله عبادتهم في أظهر بقع العبادة بأنه صفيّر وتصفيق، حيث قال: () (١) ، وسوف نبين عند الحديث عن

١- الأنفال: ٣٥، فمن سنن الجاهلية أن المشركين كانوا يرون أنفسهم ملزمين بالتصدق باللباس الذي كانوا يلبسونه حال الطواف، وكذلك على أساس الوهم الجاهلي كانوا يعتقدون بأن اللباس الذي يرتكب الإنسان فيه معصية لا يمكن الطواف فيه، وبسبب هذين الاعتقادين كانوا يطوفون عراً، من هنا كان أمير المؤمنين - بأمر من رسوله - مأموراً بإبلاغ الأمر الإلهي القاضى فلما يقربوا المشركين الحرام بعد عامهم هذا التوبة: ٢٨، كما أنه لا يسمح لأحد بالتعري. ويقول عليّ في هذا المجال: «إن رسول الله أمرني عن الله أن لا يطوف بالبيت عريان، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد هذا العام» وسائل الشيعة ٤٦٣: ٩.

ص: ١٠٩

«الطواف الجاهلي» السرّ في ورود هذا التعبير بحقّ عبادة المشركين.

٥- محور القيام والقيامة**إشارة**

الكعبة محور القيام والمقاومة والثبات الإنساني على امتثال الأوامر الإلهية وتجنّب الباطل ومحاربة الظلم والجور، قال تعالى: (١)، والمراد من القيام هنا هو ما جاء في الآية الشريفة الأخرى: (٢)، والقيام في هذه الآية هو المقاومة والاستقامة للوقوف واستقامة البدن، وفي مقابلة القعود بمعنى الذلّة والقبول بالظلم والجور.

إنّ القيام والجهاد محور الدّين الأصلي، وهو لا يعرف القعود والخنوع أبداً، قال تعالى: (٣)، ومعتمد هذا القيام وعمود هذه المقاومة وأساس هذه الاستقامة الباعثة على قيام الناس ومقاومتهم أمام الجبارين، يكمن في قيام الكعبة وحياتها، ودوام أمرها، تماماً كما قال الإمام الصادق (ع): «لا يزال الدّين قائماً ما قامت الكعبة» (٤)، والكعبة حيث كانت أساساً لقيام الناس وقوامهم وضعت في وسط الأرض حتّى

١- المائدة: ٩٧.

٢- سبأ: ٤٦.

٣- الحديد: ٢٥.

٤- وسائل الشيعة ١٤: ٨.

ص: ١١٠

يكون التكليف متساوياً بين أهل المشرق والمغرب. (١)

إن حياة الكعبة حياة الدين، والناس تحيي بحياة الدين، ومع خراب الكعبة وانعدامها وتركها يموت الدين وبموته يموت الناس، إن الكعبة بمثابة عظم فقرات الظهر بالنسبة لدين الله، فإذا كانت قويّة سالمه كانت مقاومة الإنسان ووقوفه وذهابه وسرعته في الوصول إلى المغفرة الإلهية والسبق في أمور الخير أمراً ممكناً، أما إذا كان هذا العظم عاجزاً وضعيفاً وهزلياً فإن الوقوف يغدو غير ممكن، واستقامته لا تكون ميسورة، وسرعته وسبقه و... متوقف على قيامه فتكون محالاً.

وعلى هذا الأساس، قال أمير المؤمنين (ع): «والله الله في بيت ربكم، لا- تخلوه ما بقيتم فإنه إن ترك لم تناظروا» (٢)؛ فترك بيت الله وتخليته بمثابة سقوط العمود الذي يتكئ عليه الإنسان فإذا ما هجر بيت الله فإنه ينقطع الاتصال بمركز القدرة، ومع قطعه سيغدو القيام بالقسط والمقاومة أمام الظلم والجور غير ممكنة، وهنا يكون خير الدنيا والآخرة ممنوعاً مقطوعاً؛ فالكعبة هي عامل قيام الناس للدين والمعاش. (٣)

من هنا يقول رسول الله (ص): «من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت» (٤)، ومن أهم موارد أم الكعبة إنجاز الحج بآدابه ومناسكه العظيمة.

وأساس هذه الكلمات كلها هو الآية الشريفة: (٥).

لذا كله يعتمد إمام الزمان، قائم آل محمد (ع)، في بداية قيامه إلى جعل محور القيام

١- المصدر السابق ٣٤٨: ٩، رغم أنه يمكن في الجسم الكروي اتخاذ نقاط متعدّدة بمثابة المركز، إلّا أنه وطبقاً لبعض النصوص، وبلحاظ أغلب الذين يعيشون على وجه الكرة الأرضية، ومع الأخذ بعين الاعتبار الأراضى المعمورة، فإن الكعبة تقع في القسم المركزي من الأرض.

٢- نهج البلاغة، الرسالة رقم: ٤٧، الفقرة: ٦.

٣- وسائل الشيعة ٤٠: ٨- ٤١.

٤- المصدر السابق.

٥- المائدة: ٩٧.

ص: ١١١

والقوام بالنسبة للمجتمعات البشرية، أى الكعبة، معتمداً ومتمكناً له، فيسارع أنصاره إليه، كما يقول الإمام الباقر (ع): «.. إذا تشبّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ... وركب ذوات الفروج السروج .. وأكل الرّبا .. فعند ذلك خروج قائمنا، فإذا خرج أسند ظهره إلى الكعبة واجتمع إليه ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً...» (١).

دور الاعتقاد والاقتصاد في قوام المجتمعات الإنسانية

يذكر القرآن الكريم الكعبة بوصفها عامل قيام الناس (٢)، كما يذكر القدرات الاقتصادية بهذه الصفة أيضاً، حيث يقول: (٣)؛ وعليه فالمسألة الاعتقادية والأمر العبادى للكعبة والحجّ والعمرة هى قوام المجتمع فى الامة الإسلامية، وكذلك الاقتصاد، وهو أمر مادى، إلّا أنّ ثقافة القرآن لا تضع هذين الأمرين فى مستوى بعضهما، بل الاعتقاد دائماً هو الأصل والبنية التحتية، فيما الاقتصاد فرع وبناء فوقى، وعندما يتزاحم الأصل والفرع يقدّم الأصل، من هنا لم تترك حادثة الحصار فى شعب أبى طالب أى أثر فى انتشار الإسلام، وقبله فى السنوات الاولى لظهوره على المسلمين المعتقدين، كذلك لم يترك الحصار الاقتصادى الحالى من جانب الغرب الناهب أى أثر فى اضمحلال الصحوة الإسلامية.

٦- بيت الأحرار ومحور الحرّية

إشارة

الكعبة بناء عتيق (٤)، لم يكن تحت سلطان أى سلطه أو

١- بحار الأنوار ١٩١: ٥٢-١٩٢.

٢- المائدة: ٩٧.

٣- النساء: ٥.

٤- الحج: ٢٩.

ص: ١١٢

ملكيتها، وقد كانت محميّة على امتداد التاريخ من تطاول الطواغيت وتناول الملاك، وتداول رجال الدولة والسلطة، كما كانت متحرّرة- وما تزال- من أى سلطة بشريّة أو ملكيّة إنسانية، فلا تختصّ بشخص أو فريق أو قوم أو قوميّة أو عرق أو دولة أو حكومة، تماماً كما يقول الإمام الباقر (ع) حول سرّ وصف الكعبة بالبيت العتيق: «هو بيت حرّ عتيق من الناس لم يملكه أحد» (١)، فالله سبحانه لم ينسب هذا البيت من الأوّل لأحد غيره، فقال: (٢)، كما أنّ باني الكعبة لم يملكها من حيث إنّهُ هو المأمور ببنائها، لذا لم ينسبها لغير الله تعالى، حيث قال: (٣).

وعليه، فالكعبة عتيقة من حيث قدمها التاريخي ونفاستها، فذات قيمة وسبق، كما أنّها عتيقة من حيث تحرّرها وانعتاقها من كلّ سلطة مالكة وقهر سلطاني، والطواف حول مثل هذا البناء يعطى درساً في الحرّيّة، ويحرّر الإنسان من كلّ أنواع العبوديّة عدا الله تعالى، وهذه العبوديّة هي الفضيلة الوحيدة للإنسان، كما أنّ إرسال الأضحية إلى البيت العتيق وذبحها في داخل الحرم (٤) و (٥) يعطى درساً آخر في التحرّر من التعلّقات.

إنّ الذين يرزقون زيارة هذا البناء ليسوا عبيداً لأنفسهم وحرصهم، ولا مماليك للمستعمرين والمستثمرين الخارجيين، تماماً كما كان بناء الكعبة سيّدنا إبراهيم (ع) مبرّءاً من الميول والتعلّقات ومحميّاً من الحرص والخوف و... إنّ العبوديّة لاتنسجم مع مدار الحرّيّة والتحرّر.

١- الكافي ١٨٩: ٤.

٢- البقرة: ١٢٥.

٣- إبراهيم: ٣٧. المائدة: ٩٥.

٤- المائدة: ٩٥.

٥- الحج: ٣٣.

ص: ١١٣

وبناءً عليه، لا يمكن لغير المتحرّرين من قبضة سلطة المتسلّطين أن يطوفوا طوافاً حقيقياً حول هذا البيت، أو أن يجعلوه قبلتهم على نحو الحقيقة، وليس سوى الأحرار الحقيقيّون من قبضات الهوى، العاصون عليه والمتّجهون نحو القلب والروح من يتمكّن من الدوران حولها.

إنّ هذا الإقبال على الكعبة يجعل سلوك الإنسان ملائكياً، ويحرّره من الشهوة والغضب والرذائل الأخلاقية.

إذا جاهدت وسعيت غدوت ملكاً

فالحري لا يأتي إلّا من ورق التوت. (١)

إنّ الذي يطوف حرّاً حول البيت لا يغدو عبداً ولا ذليلاً، كما أنّه لا يرى نفسه سوى عبداً لله تعالى، تماماً كما يقول أمير المؤمنين (ع):
«لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً». (٢)

٧- مظهر المساواة

من أبرز مظاهر شمولية الإسلام وعالميته واستيعاب دعوته وندائه العالمي حول الكعبة هو الحجّ، حيث كان إعلانه عند بناء الكعبة موجّهاً للجميع، قال تعالى: (.). (٣)

إنّ الكعبة بنيان إلهي لكلّ الناس على امتداد التاريخ، لا تختصّ بأحد أو قوم أو

١- سنائي غزنوي.

٢- نهج البلاغة، الرسالة ٣١، الفقرة: ٨٧.

٣- الحج: ٢٧.

ص: ١١٤

عصر أو إقليم، من هنا يجب على أهل المدن والقرى والأرياف، وعلى المتمدّنين وأهل البادية، وعلى القريب والبعيد، والغابر والقادم، وبشكل واحد أن يستفيدوا من نعمه الحجّ، قال تعالى: (...)(١)؛ وبهذا تغدو الكعبة والمسجد الحرام مظهرًا بارزًا للمساواة بين الناس. لقد دعا الله تعالى الجميع إلى أرض المساواة كي يتعلّموا ويتمزّنوا على التساوى والمساواة، ودعاهم إلى الطواف في أطراف الكعبة جميعاً حيث قال: ()؛ فإذا حصل الطواف حول الكعبة، ودائرة المساواة، فلا بدّ من إلقاء كلّ معاني الامتياز الفردى والعرقى والقومى واعتبار كلّ القوميات والأعراق قوميتّه وعرقه، وكما يأخذ درس الطهارة من الطواف حول البيت الطاهر: () (٢)، كذلك لا بدّ أن يكون حاصله من الحضور فى موضع تجلّى المساواة هو درس المساواة أيضاً، حتّى لا يريجج فرداً على آخر، وعرقاً على آخر، أللهمّ إلّا على أساس التقوى التى تعنى الفضيلة المعنوية غير المادية.

٨- الكعبة مرجع الخلق جميعاً

الكعبة مرجع عامّة الناس ومثابتهم، ومأمّن جماهير الخلق، قال تعالى: () (٣)، وكما هو ظهور كلمة «الناس»، كذلك لم يجعل الله تعالى الكعبة مبيّةً للمسلمين فقط. تعنى كلمة «ثاب» رجح (٤)، و«مثاب» و«مثابه» بمعنى المرجع، وتاء المثابه تاء

١- الحجّ: ٢٥.

٢- البقرة: ١٢٥.

٣- المصدر السابق.

٤- الراغب الإصفهاني، المفردات: ٨٠، مادة: ثوب.

ص: ١١٥

المبالغة، بمعنى أن البيت هو مرجع مكرر للناس، ويطلق المرجع على المكان الذي يأتي منه الإنسان ويعود إليه مجدداً، وعلى هذا الأساس فالكعبة هي الوطن الأصلي للناس، فعندما يزور الإنسان الكعبة يبدو وكأنه عاد إلى أهله، وبناءً عليه فالكعبة مظهر الفطرة، والحالة الأصليّة للناس تتمثل في رجوعهم إلى الكعبة، وكلّ من ينصرف عن الكعبة يكون قد انحرف عن حالته الأصليّة. وحيث كان كلّ مسلم على ارتباط مستمرّ بالكعبة- تماماً كما تقتضيه أفضل حالة الأدب الإسلامي في الجلوس، وهي حالة التوجّه إلى الكعبة «خير المجالس ما استقبل به القبلة» (١)، وهكذا كان رسول الله (ص) في جلوسه (٢)- كان بالإمكان استظهار معنى آخر للمثاب وهو أن الكعبة مرجع الناس في تمام اللحظات، في الليل والنهار.

٩- مركز الأتماد

توفّر وحدة المرجع الأرضية لاتّحاد الراجعين؛ فالإحساس بوحدة المقصد والمأوى وسيلة مناسبة لتضارب آراء الراجعين، وعلاقاتهم الفكرية، وهذا بنفسه مقدّمه مناسبة لإدراك ضرورة العودة المتّحدة، كي تنتهياً عناصر عالميّة الإسلام وأصول المجتمع المهدوي، ورغم أنه من وجهة نظر الملكوت أيّ جهة يتّجه إليها أحد فهو يتّجه إلى الله تعالى، (٣)، إلّا أنه على مستوى الملك ونطاق الطبيعة لا مفرّ من التوجّه إلى نقطة مركزية ومنتكئ محوري. لقد خلق الله سبحانه الكعبة للوحدة العالميّة حتّى يتمكن الجميع من عيش حياة

١- وسائل الشيعة ٤٧٥: ٨.

٢- المصدر السابق؛ والكافي ٦٦١: ٢.

٣- البقرة: ١١٥.

ص: ١١٦

سلمية هائنة مع الاهتمام بالاصول القيمة للتوحيد، ومركز إجراء هذه الفكرة ليس سوى الكعبة التي جعلها الله سبحانه تجمعا لأطراف العالم الإسلامي عبر اعتبارها قبله ومطافاً للعالمين، حتى يتحد مسلمو العالم بامتلاكهم المحور الذي يعطى الوحدة ويتعرفون بذلك على بعضهم.

وبناءً عليه، فالكعبة مركز عام ومحور رئيس لتبادل وجهات النظر من الأطراف كافة حتى يلتقي المسلمون من القريب والبعيد إلى جانب بعضهم، يطرحوا هناك القضايا العلمية والعملية والمشكلات السياسية والاجتماعية كي يقوموا بحلها ويحكموا بذلك العلاقة فيما بينهم.

لقد بُنيت الكعبة على يد قوية لنبى عظيم حتى تكون مركزاً لنشر التوحيد، وعندما احتاجت في عصر خاتم الأنبياء (ص) إلى التجديد، وبعد انهيار قسم من جدار الكعبة وحصول خلاف بين القبائل العربية في نصب الحجر الأسود في من هي القبيلة التي ستنال شرف نصب هذا الحجر ... اتفق الجميع على اختيار محمد الأمين (ص) بوصفه العاقل المحايد والناظر غير المتحيز ولا المغرض .. حتى يقبلوا بأي قرار يتخذه (ص) .. هناك طلب منهم الرسول (ص) أن يفتروشوا رداءً ليضعوا الحجر الأسود فيه، فتأخذ كل قبيلة طرفاً من الرداء، وبهذا عاد الحجر الأسود إلى مكانه الخاص، وجعله الرسول (ص) بيده المباركة في محله الموجود اليوم. (١)

لقد ارتفعت أرضية الخلافات الجاهلية القومية والعرقية إلى حد ما على هدى إرشادات خاتم الأنبياء (ص)، وقد دعا الرسول الأكرم (ص) بهذا الابتكار التاريخي .. دعا الشعب إلى الاتحاد، مقدماً الكعبة منادياً لذلك ومركزاً للوحدة.

إن هذا الوصف الممتاز يتلألأ إلى جانب سائر الأوصاف البارزة للكعبة، وهو أنها تكون مدرسة التوحيد والاتحاد والوحدة، فالبيت الذي تقدسه أمة من الناس

ص: ١١٧

ويشارك الجميع في بنائه وعمارته، وأهمّ جزء منه قد نصب في موضعه الخاصّ مع حفظ تمام الحقوق، وكان للإنسان الكامل الأطهر دوراً في نصب هذا الجزء المقدّس، ذلك الإنسان الذي تعدّ الوحدة الشعبيّة من أهمّ رسائله الهامّة.. إنّ هذا البيت له دور فاعل في أن يكون مركزاً للوحدة.

ملاحظة

لقد خصّصنا البحث الأوّل من هذا الفصل للحديث عن المكانة المحورية للكعبة في توحيد الأمة الإسلاميّة.

١٠- أقدام المعابد العامّة

كلّ الأرض مسجد، قال رسول الله (ص): «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً» (١)، وقد عبد الإنسان منذ القدم السحيق الله سبحانه في زوايا الأرض وأطرافها، إلّا أنّ أوّل مكان مخصّص للعبادة الجماعيّة كان الكعبة، قال تعالى: (٢).

إنّ الكعبة- ومع هذا الماضي المقدّس والتاريخ المبارك- متقدّمة في الشرف على بيت المقدس، فصارت قبلةً للعالمين، وقد استند إلى هذا التاريخ السحيق عندما نزل الوحي الإلهي حول تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المعظّمة واعترض اليهود على الإسلام بقداسه البيت المقدّس وقدمه، حيث ذكر أنّ الكعبة المطهّرة كانت أوّل بيت وأقدم بيت وضع للناس.

لعلّه من هذا المنطلق أطلق على الكعبة عنوان «البيت العتيق»، ذلك أنّ العتيق

١- المصدر السابق ٩٦٩: ٢.

٢- آل عمران: ٩٦.

ص: ١١٨

يُطلق على القديم والنفيس، والشيء الذي لا قَدَم له، أو هو قديم لكنّه ليس بنفيس لا يسمّى عتيقاً. نعم، كما كان مدار الكرامة في النظام الإنساني الإلهي هو التقوى لا غير، كذلك محور قداسة الظواهر الماديّة والنظام الخارج عن الإنسان كالأزمنة والأمكنة وأمثالها هو تجلّي الأمر الإلهي، كنزول الوحي فيه أو بسط الوحي عنده، وهذا الأمر الإلهي هو الموجب الوحيد لقداسة الكعبة، والتي غدت بيتاً عتيقاً نظراً إلى انضمام قدمها التاريخي إلى ذلك.

وتوضيح هذا الأمر أنّ حرمة الحرم ومكّة إنّما هي بالكعبة، وحرمة الكعبة بالوحي الإلهي والإنسان الكامل والمعصوم الذي يغدو الخليفة التامّة لله سبحانه على أثر الاتّصال به وتلقّيه الوحي، أعمّ من الوحي التشريعي والوحي التسديدي الغيبي، كما أنّ الكلام والكتاب الإلهي - أي القرآن الكريم الحكيم - يأخذ حرمة من حرمة المتكلّم والكاتب، أي الله سبحانه، تماماً كما هي حرمة الخليفة - أي الإنسان الكامل - تكون بالمستخلف عنه، أي الله الحكيم، إنّ حرمة الله تعالى بالذات، وعلى أساس الأصل القاضي بأنّ كلّ ما بالعرض لا بدّ أن يرجع إلى ما بالذات، تكون الحرمة الإلهيّة هي المرجع الحصري لكافة الحرمات المذكورة.

وبناءً عليه، فكافة الامور المذكورة من نزول الوحي إلى هبوط الكتاب السماوي ووجود الإنسان الكامل الذي يكون قلبه المطهر مهبطاً للوحي (١)، لها دور فاعل في قداسة الكعبة، تماماً كما أنّ لبناء البيت العتيق وكيفيّة تطهيره من لوث الوثنيّة والمعصية دوراً أيضاً في قداسة الكعبة.

وللبيت العتيق معنى آخر سبق التعرّض له وبيانه.

١١- أفضل المعابد

كما لا يوجد عند الله أحب من الإسلام المتمثل بالكعبة، كذلك ليس هناك من بقعة أحب إليه تعالى من الكعبة، من هنا يقول الإمام الصادق (ع): «إن الله اختار من كل شيء شيئاً واختار من الأرض موضع الكعبة». (١)

لقد انتشر في صدر الإسلام تفكير إسرائيلي مصحوب بترسيبات جاهلية على يد أفراد مثل كعب الأخبار، كمرض ووباء معدٍ، وقد وقفت العترة الطاهرة- وهي عدل القرآن- وبكل قوة وصلابة في وجه هذا المرض وإبطاله، وهذا أنموذج لذلك:

يقول زرارة: «كنت قاعداً إلى جنب أبي جعفر (ع) وهو محتب مستقبل الكعبة، فقال: أما أن النظر إليها عبادة، فجاءه رجل من بجيلة يُقال له: عاصم بن عمر، فقال لأبي جعفر (ع): إن كعب الأخبار كان يقول: إن الكعبة تسجد لبيت المقدس في كل غداة، فقال أبو جعفر (ع): فما تقول فيما قال كعب الأخبار؟ فقال: صدق القول ما قال كعب، فقال أبو جعفر (ع): كذبت وكذب كعب الأخبار معك، وغضب، وقال زرارة: ما رأيت استقبل أحداً يقول: كذبت، غيره. قال: ما خلق الله عز وجل بقعة في الأرض أحب إليه منها، ثم أومئ بيده نحو الكعبة، ولا أكرم على الله عز وجل منها...». (٢)

لم يُسند الله تعالى البيت المقدس- رغم كل قداسته- إلى نفسه، وإنما أطلق هذا التعبير بحق الكعبة حين قال: بَيَّنِّي (٣)، نعم أسندت الكعبة- من جهة- للناس حيث قال تعالى: (...). (٤)، إلا أن هذا الإسناد المرفق بحرف اللام يدل على أن الكعبة جعلت- من حيث التشريع- معبداً وقبلةً ومطافاً للناس.

١- وسائل الشيعة ٣٤٨: ٩.

٢- وسائل الشيعة ٣٦٣: ٩.

٣- البقرة: ١٢٥؛ والحج: ٢٦.

٤- آل عمران: ٩٦.

ص: ١٢٠

١٢- منشأ البركة

الكعبة منشأ البركات الكثيرة ووسيلة هداية العالمين، قال تعالى: (١)؛ فالله سبحانه ثابت دائم بنفسه، وخيراته شاملة للعالم كثيرة حول الكعبة وثابتة، من هنا جاء وصف «مباركة» الذي يُطلق على الشيء الثابت الدائم. ومن علامات «المبارك» في الكعبة استمرار العبادة في أطرافها، حتى لا ينقطع الطواف ولا للحظة واحدة من حولها باستثناء حالة صلاة الجماعة، كما أن الثواب على العبادات عندها مضاعف، وكذلك غفران الذنوب إلى جانبها (٢)، والظاهر أنه لا يوجد دليل على تقييد هذه البركة.

١٣- الكعبة وسيلة الهداية

الكعبة وسيلة هداية العالمين، قال سبحانه: (١)، فكلّ العباد والسالكين يتوجهون إلى الكعبة، ومن هناك انطلقت دعوة الحق على يد الكثير من الأنبياء: حتى بلغت مسامع العالمين، من هنا قال سبحانه عنها: (٢) تماماً كما دعا خاتم الأنبياء (ص) الناس إلى التوحيد من هناك، وكذا خاتم الأوصياء (ع) سيكون منطلقه وظهوره من تلك النقطة أيضاً نحو العالمين، وهناك الآيات الإلهية الواضحة، قال سبحانه: (٣) ووسائل أخرى كثيرة لهداية الناس إلى الحق. ومن مصاديق الهداية الإلهية في تلك الأرض معرفة الله تعالى بدلالة الآيات البيّنة في

١- المصدر السابق.

٢- الطبرسي، مجمع البيان ١- ٧٩٨: ٢.

٣- آل عمران: ٩٧.

ص: ١٢١

الكعبة وأطرافها، وكذلك دلالة الكعبة على الجهة التي لابد من الصلاة نحوها، وهي الطريق إلى الجنة الذي يتم العثور عليه عبر إقامة الحج والطواف حولها (١)، لكن وكما أُشير آنفاً.. لا دليل على تقييد البركة والهداية المذكورين، كما لا تفصيل بينهما وتميز.

١٤- حماية الكعبة

استست الكعبة حتى يتجه إليها العابدون، وحيث كانت العبادة لازمة للإنسان وضرورية، ولا تقبل هذه السنّة القديمة الإلهية الزوال، كذلك الحج- كالصلاة- من الاصول الرئيسة للإسلام، وأحد أبرز الوجوه العبادية للشرع عموماً ودوماً حماية الكعبة وحفظها من الهجوم والسهم الحاقدة، ولهذا كان ذلك جزءاً من البرامج الإلهية الحتمية، وعلى هذا الأساس هلك أصحاب الفيل بمعجزة غيبية لما أرادوا هدم الكعبة وإعدامها. (٢)

والذي يُستفاد من الآية الشريفة: (٣) أن التصميم على القيام بالظلم في الحج وزيارة الكعبة، وإن لم يكن يبلغ حدّ العمل، إلا أنه يوجب الانتقام الإلهي أيضاً، وكلّ شخص يريد الظلم بالحاد، أو يسدّ هذا السبيل الإلهي، ويصرف الناس عن زيارة الكعبة والعبادة.. فإنه سوف يكون مشمولاً لهذا التهديد المرعب المخيف، والله سبحانه سوف يذيقهم عذاباً أليماً، وإذا ما وقعت الكعبة في بعض فترات التاريخ موقع الظلم وإرادة إلحاق الضرر بها ولم يلحق المهاجمين المعتدين العذاب فوراً، فإنّ ذلك كان لسبب سوف يأتي ذكره عند الحديث عن العلاقة بين الكعبة والإمامة وأهميّة مقام الإمامة الرفيع.

أما عن حماية الكعبة ومصونيتها فقد تقدّم الحديث عن ذلك مفصلاً نسياً في

١- الطبرسي، مجمع البيان ١- ٧٩٨: ٢.

٢- الفيل: ١- ٥.

٣- الحج: ٢٥.

ص: ١٢٢

الفصل الثالث من القسم الأول، لا سيما في الفرع الثالث عند الحديث عن «علاقة الحج وشؤونه بالولاية». (١)

١٥- الولاية روح الكعبة

تحاذى الكعبة البيت المعمور، وهو في مقابل العرش الإلهي، وقد بنى البيت المعمور حتى يحصل الملائكة الذين لم يعرفوا لمقام الإنسانية الخلافة ويجعلون التسيح والتقديس الصادر منهم سندا مناسباً لصيرورتهم خلفاء لله، وتعرفوا بالتنبيه الإلهي على أوج مقام الإنسان الكامل، وأعلنوا الندم على ما اقترفوه، كاتبين استقالتهم، معلنين ندمهم عبر الاستفهام التعجبي والاستخبار والاستعلام والاستفسار ... حتى يطوف هؤلاء به، فيرمون بذلك نقص عملهم (٢).. كما كان البيت المعمور قد صنع

١- ثمة روايات في هذا المضممار عن الأئمة المعصومين: جاءت في بعض المجاميع الروائية تحت عنوان «باب من أراد الكعبة بسوء» فانظر: من لا يحضره الفقيه ٢٤٨: ٢، والوافي ٥٣: ١٢.

٢- جاء في الكافي ١٨٧: ٤-١٨٨، باب بدء البيت والطواف، حديثان مختلفان قليلاً في السند وبعض العبارات في المتن إلا أن الذي يبدو أنهما من أصل واحد، وقد جاء في الروايتين أن الإمام الصادق ينقل جواب والده الإمام الباقر ٧ عن سؤال وجهه إليه شخص يريد أن يعرف علته تشريع الطواف، وفي الرواية الأولى صرح ب-: «أمر الله ملكاً في الملائكة أن يجعل له بيتاً في السماء السادسة يسمى الضراح بإزاء عرشه..»، كما كان القسم الأخير من الرواية الثانية على الشكل التالي: «إن الله عز وجل لما أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ٧، ردوا عليه، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال الله تبارك وتعالى: إني أعلم ما لا تعلمون البقرة: ٣٠، فغضب عليهم، ثم سأله التوبة، فأمرهم أن يطوفوا بالضراح، وهو البيت المعمور، ومكثوا يطوفون به سبع سنين [و يستغفرون الله عز وجل مميّاً قالوا. ثم تاب الله عليهم من بعد ذلك ورضى عنهم، فهذا كان أصل الطواف، ثم جعل الله البيت الحرام حذو الضراح توبة لمن أذنب من بني آدم وطهوراً لهم].»

لا بد من الانتباه في ورود تعابير مثل رد الملائكة، غضبهم ثم ندمهم واستغفارهم، سخط الله وغضبه، حجبهم عن النور الإلهي، وهو ما جاء في بعض الروايات في ذيل الآيات ٣٠-٣٤ من سورة البقرة، فهذه التعابير:

أولاً: بحاجة إلى توجيه وتبيين على تقدير صحته سندها تماماً كما هي الحال في بعض الآيات المتعلقة بالتوحيد والنبوة.

ثانياً: ليس عالم الملائكة منطقاً للتشريع والأحكام الفقهية، وإلا كانت لديهم شريعة ورسالة وحدود وعقوبات وثواب و ...

ثالثاً: إن احتفاف حوار الملائكة لله بكلمات مثل التسيح والتقديس والعلم والحكمة دليل على اعتقادهم واعترافهم بنزاهة عمل الله تعالى وقداسته من كل عيب ونقص، وإذعان منهم بالعلم والحكمة الإلهية، وهذا الاعتقاد والإذعان قرينه كافية على استفهامية سؤالهم. رابعاً: رغم أن ظاهر بعض الروايات كراهة الملائكة لجعل الخلافة لآدم إلا أن الملائكة المعهودين في القرآن معصومون جميعاً، فأدلة عصمتهم تأبي عن التخصيص.

خامساً: إن ثناء الملائكة وتنزيههم لله تعالى ليس سندا للتدارك، لأن سيرة الملك وسيرته هو التسيح المنسجم مع الثناء والتقديس الإلهيين.

سادساً: جاء في بعض الروايات أن الملائكة غضبوا لرضا الله تعالى وتأسفوا على أهل الأرض بحار الأنوار ١٠٣: ١١، فغضب الملائكة وتأسفهم له صبغة عبادية.

ص: ١٢٣

لذلك، كذا الكعبة صنعت للطواف حولها حتى يرمم الجميع قصورهم ويجبروا تقصيرهم لاسيما الغفلة عن مقام الإنسانية، والسهو والنسيان أو العصيان في محضر خليفة الله.

من هنا، فأفضل تته للطائفين الغافلين والحجاج الذاهلين هو تدارك الجهل وجبران غفلتهم بأنفسهم وعدم معرفتهم للمقام الشامخ للإنسان الكامل وخليفة العصر بقتية الله (ع)، حتى يغدو كالملائكة مقبول الطواف ومشكور السعي.

بناءً عليه، رغم أن النظر إلى الكعبة محمود وممدوح، والناظر إليها مثناب ومأجور (١)، إلا أنه كما هي كلمة التوحيد مشروطة بالولاية، حصن الأيمن ودرع النجاة (٢)، كذلك النظر العرفاني - المنسجم مع الولاية - إلى الكعبة هو أيضاً أساس غفران الذنب، وأصل نيل الجاه، والتحرر من حفرة الطبيعة وغم الدنيا والآخرة، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع): «من نظر إلى الكعبة بمعرفة، فعرف من حقنا وحُرمتنا مثل

١- وسائل الشيعة ٣٦٤: ٩.

٢- بحار الأنوار ٧: ٣.

ص: ١٢٤

الذى عرف من حقها وحرمتها، غفر الله ذنوبه وكفاه هم الدنيا والآخرة» (١). وشاهد ذلك عدم قبول عبادات منكرى الولاية. من هذا المنطلق يتضح معنى الحديث الوارد فى محبوبية أرض مكة وكل ما كان فى فضائها وعليها، أعم من التراب، والحجارة، والأشجار، والجبال والماء (٢)، أى أن منطقة الحرم التى يعد إدراك حقها ومعرفة حرمتها معرفة مندمجة بعرفان حق الولاية وامثال آثار الولاء أحب الأمور، ولا شىء مثله فى المحبوبة، ذلك أن القرآن عدل الثقل الأصغر (الولاية) وهو محبوب العارفين بالثقلين ومعروفهم، وأرض الوحي أساس انبعاث هذا الإقدام الممزوج بالامتثال، وهذه المعرفة المتناغمة مع العمل، من هنا كانت أكثر الأراضى محبوبية.

فإذا كانت الكعبة مدينة بتمام ألوان الشرف، وقد قدرت وظائف لذلك، فروح هذه المراسم والمناسك هى الولاية والإمامة ومعرفة الإمام والخضوع له والتسليم أمامه، على هذا الأساس تطرح فضائل أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع)، ويتوهم فريق أنه أفضل منه، فيبين الله تعالى أفضليته بوصفه أبرز مصاديق أهل الإيمان والجهاد، قال سبحانه: (٣).

إن حرمة الكعبة- التى يوجب هتكها والإساءة إليها العذاب الإلهى الأليم- منطلقه من حرمة الولاية التى هى باطن المقامات النبوية الشامخة ومقامات الرسالة والإمامة، فمن لم يعرف إمامه، وكانت حياته كموته جاهلتيين (٤) إذا احتمى بالكعبة فلا يأمن بالأمن الإلهى، بل يعطى عدوه مهلة حتى يلقى القبض عليه، حتى لو كان ذلك

١- وسائل الشيعة ٣٦٤: ٩.

٢- المصدر السابق: ٣٤٩.

٣- التوبة: ١٩، وانظر: بحار الأنوار ٢٨٨: ٢٢.

٤- المناقب ٢٤٦: ١.

ص: ١٢٥

في إطار تخريب الكعبة، ذلك أنه: «لم يناد بشيء كما تُودى بالولاية». (١)
وقد تقدّم مزيد من التوضيح حول العلاقة بين شؤون الحج المختلفة وعين الولاية في الفصل الخامس من القسم الأول.

١٦- علامة القبلة

تكنن أهمية القبلة ومكانتها في أنها علامة على كيان الدين والامة، تماماً كما يسمّى المسلمون «أهل القبلة» ويُعرفون أيضاً بأهل القرآن؛ ولهذا اعتبر الله سبحانه القبلة امتحاناً كبيراً، حيث قال: (٢).
لقد كان بيت المقدس قبلة المسلمين قبل الهجرة ومقداراً بعدها، رغم أنّ رسول الله كان يسعى - حدّ الإمكان - أثناء الصلاة أن يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس حتّى يتمكن في آن واحد من الصلاة إلى الكعبة وإلى بيت المقدس. (٣).
نعم، هذا العمل لم يكن ممكناً في المدينة المنورة، من هنا تغيرت القبلة بعد سنة وبضعة أشهر من الهجرة إلى المدينة بأمر من الله لتحوّل من بيت المقدس إلى الكعبة، وهنا قال أعداء الإسلام اللجوجون والمعاندون: إذا لم يكن التوجّه إلى بيت المقدس حقاً فلماذا كانت الصلاة إليه لأكثر من أربعة عشر عاماً - طبقاً لكون الصلاة قد فرضت في أول البعثة - وإذا لم يكن استقباله حقاً فلماذا تحوّل محمّد عنه؟!
وبالأخذ بعين الاعتبار في القبلة عنصر الجهة لا المكان، على خلاف الطواف حيث العبرة فيه بالمطاف والمكان لا الجهة، أجاب الله سبحانه اعتراضهم هذا بالقول:

١- الكافي ١٨: ٢.

٢- البقرة: ١٤٣.

٣- بحار الأنوار ١٠٥: ٤؛ و ٥٩: ٨١ و ٢١٨: ٩٢.

ص: ١٢٦

(١) (١)، بمعنى أن جميع الجهات لله تعالى، إذ كل شيء ملكه ومُلكه (٢)، وزمام الأشياء بيده وإليه. (٣) وانطلاقاً من كروية الأرض وحركتها الوضعيّة نرى:

أولاً: أن تمام نقاط الأرض تعدّ مشرقاً ومغرباً بملاحظة طلوع الشمس وغروبها.

ثانياً: إذا لم يكن هناك مشرق ومغرب فلا- شمال ولا- جنوب أيضاً، وعليه فتمام الجهات متساوية في ملك الحق سبحانه، ولا مزية لإحداها على الأخرى، فبيت المقدس ليس بأشرف من الكعبة حتّى يكون العدول عنه مستحيلاً عقلاً وممنوعاً؛ فلا رجحان ذاتي لأي من هذه الجهات، فكّلها لله، وهو المبدأ الفاعلي لجعل هذه أو تلك قبلةً.

وبناءً عليه، فكلّ جهة يتّجه إليها الإنسان هي وجه الله، قال سبحانه: (٤)، فلا خصوصيّة للكعبة من هذه الناحية، أي أن الأمر ليس بحيث لو لم يستقبل الإنسان الكعبة فلا يكون مستقبلاً لله سبحانه، حتّى لو كان رسول الله (ص) يجلس نحو القبلة. (٥)

إنّ وجوب الاتّجاه نحو الكعبة في بعض الامور، مثل: الصلاة والذبح، وحرمة ذلك أو حرمة استدبار الكعبة في موارد أخرى إنّما هو منحصر في نطاق الأحكام الفقهيّة، وإلّا فلا جهة من الجهات يمكنها أن تحدّد الله تعالى.

ويؤيّد هذا الأمر أنّه إذا لم يكن القيام واجباً في أصل الصلاة أمكن للمصلّي في داخل الكعبة أن ينام على ظهره ويصلّي متّجهاً نحو السماء، ذلك أنّ داخل الكعبة ومن تمام جهاتها الأعم من الأضلاع والزوايا يعدّ قبلةً ومصداقاً بارزاً لقوله تعالى: (٦).

١- البقرة: ١١٥.

٢- الملك: ١.

٣- يس: ٨٣.

٤- البقرة: ١١٥.

٥- الكافي ٦٤١: ٢.

ص: ١٢٧

وعلى أى حال، لم تجعل الكعبة أول قبلة للمسلمين حتى زال التعصب الجاهلى وعلم المتبع من المنقلب، قال سبحانه: (١)، ذلك أنه لو جعلت الكعبة قبلةً منذ انطلاقة البعثة فسوف تحيا ترسيبات الجاهلية العربية والتعصبات القومية، وبعد أن تأمن الهدف المذكور ولمواجهه تعصب يهود المدينة وأطرافها وطعنهم حيث قالوا: لم يكن المسلمون مستقلين في القبلة بل تابعين لقبلتنا، من هنا حوّل الله القبلة مرّة أخرى إلى الكعبة.

لقد أدى توهم التبعية لليهود في أمر القبلة إلى ظهور إحساس الحقاؤه والذلة في نفوس المسلمين، حتى أن الرسول كان ينتظر الوحي لحلّ هذا المعضل، قال تعالى: (٢) رغم أن الله تعالى عدّ رسوله الأكرم (ص) أكمل مصداق للهداية حيث قال: (٣)، مصرحاً في أمر القبلة بقوله: (٤)، لكن مع ذلك كان انتظار النبي (ص) من ناحية الطعن والتحقير الذي مارسه معوجو الفكر وسيئو اللسان ضدّ الإسلام والمسلمين، لا- أنه انطلق من أساس شخصى أو عرقى أو قبلى، لذا قال تعالى: (٥)، على أساس أن الإنسان الكامل الذى وصل إلى مقام الرضا ورضى الله عنه كما رضى هو عنه (٦)، ليس عنده رضا نفسى أو قومى بل «رضى الله رضانا أهل البيت» (٧)، فمثل هذا الإنسان

١- البقرة: ١٤٣.

٢- البقرة: ١٤٤.

٣- الزخرف: ٤٣.

٤- البقرة: ١٤٣.

٥- البقرة: ١٤٤.

٦- المائدة: ١١٩.

٧- بحار الأنوار ٣٦٦: ٤٤.

ص: ١٢٨

يطلب ما يرضاه الله ويأذنه، ولهذا قبل القبلة حيث كانت مرضية عند الله، والله تعالى رضى بالقبلة حيث تكون مصونة من الطعن.

القبلة هي البعد الذي لا يتغير للكعبة

الكعبة هي ما يتجه إليه المسلمون في حياتهم ومماتهم ويرتبطون به ارتباطاً ديتياً مباشراً، لهذا علمنا أن نقول: «الكعبة قبلتي» (١)، إن الارتباط المباشر بين المسلمين والكعبة في حياتهم ومماتهم يظهر في بعض الحالات بالاتجاه نحو القبلة واجباً، مثل حال الصلاة والذبح، واخرى مستحباً، وفي بعض الحالات يكون استقبال الكعبة أو استدبارها حراماً أو مكروهاً، وفي هذا المجال ثمة نقاط تستحق الانتباه وهي:

- ١- إن الاستقبال غير القبلة، تماماً كما أن المراد من استقبال القبلة أو استدبارها هو الاستقبال بمقادير البدن لا خصوص الوجه.
 - ٢- لاستقبال الكعبة بالنسبة لسكان المناطق البعيدة امتداد واسع وملاكة الصدق العرفي لا الصدق الرياضي، ففي نظر العرف يعد استقبال المسجد الحرام من خارج الحرم استقبالاً حقيقياً للقبلة لا مجازياً، حتى لو لم يكن كذلك من ناحية الحسابات الهندسية.
 - ٣- لقد أشار بعض العلماء الكبار إلى أمر ظريف هنا يكمن في أن الكعبة ليست قبله في نفسها، وعليه فإذا جرف الكعبة سيل أو ما شابه فخربها فلا يعنى ذلك زوال القبلة وانعدامها، بل إن فضاءها وبُعدها الخاصين لا يقبلان التغيير والتبديل، حيث يمتدان من أعماق الأرض وتخومها إلى أوج السماء وعنانها. (٢)
- فالكعبة وضعت في مكان القبلة، من هنا فمن هو في أعماق الأرض أو في مرتفعات

١- المصدر السابق ١٧٥: ٦، ٢٢٨ - ٢٢٩، ٢٣٧ - ٢٣٨.

٢- وسائل الشيعة ٢٤٧: ٣.

ص: ١٢٩

الجبال يمكنه أن يتجه إلى الكعبة ويصدق عليه استقبال القبلة.

قبلة الأنبياء:

لقد كان الأنبياء وأتباعهم أهل الصلاة والسجود، قال تعالى: (١)، وقال سبحانه: (٢).

وحيث كان للصلاة والسجود جهة وقبله، وجب إما القبول بجهة خاصة بوصفها قبلة أو أن نقول- طبقاً لقوله تعالى: (٣): إن تمام الجهات متساوية في الشريعة ولا ترجيح لأحدها في الاستقبال على الأخرى، وهو فرض بعيد؛ حيث يستفاد من ظاهر الآية الشريفة: (٤)، بمعونة الأحاديث المأثورة أن الكعبة كانت محلّ تكريم واحترام من جانب الأنبياء جميعهم، ورغم أن ظاهر الآية ليس ناظراً إلى ناحية بُعد القبلة في الكعبة، لكن على فرض انعقاد ظهور إطلاقي فيها لانحصار القبلة في الكعبة يمكن تقييد الإطلاق المذكور بدليل معتبر آخر إذا كان موجوداً.

وعلى أية حال، فحرمة الكعبة محرزة منذ قديم الأيام إلى حدّ أنّها كانت محلّ

١- مريم: ٣١.

٢- مريم: ٥٨-٥٩.

٣- البقرة: ١١٥.

٤- آل عمران: ٩٦.

ص: ١٣٠

تقدير وتكريم منذ آدم حتى الخاتم (ص) تماماً، كما هو بُعد المطاف فيها مستمراً، نعم لبعد القبلة في الكعبة أحكام فقهية مختلفة يمكن تصوورها عبر الأعصار والقرون، تماماً كما نشاهد هذا التنوع في صدر الإسلام إلى أن جاء الحكم الدائم للقبلة.

ملاحظة

كان بيت المقدس الذي بناه داود وسليمان (١)، منذ بنائه قبلة لبنى إسرائيل، وما يزال حتى الآن كذلك، كما أن المسلمين قبل تحويل القبلة كانوا يصلون إليه، ورسول الله (ص) كان في مكة يصل إلى الكعبة معاً قدر الإمكان، بحيث يتجه إليهما في آن واحد. (٢)

الكعبة أشرف من بيت المقدس

١- يشكل المسجد الحرام والمسجد الأقصى مبدأ المسير الأرضي للمعراج النبوي ومنتهاه، قال تعالى: (٣)، فطبقاً لهذه الآية الشريفة أطراف المسجد الأقصى مليئة بالبركة، كما أن مكة المكرمة هي الأخرى، وعلى إثر دعاء النبي إبراهيم (ع) مليئة أيضاً بالنعم الإلهية، (٤)، رغم أنها أرض ليس فيها سبيل للإنتاج الزراعي، فصارت نقطة تساقط الثمرات والمحاصيل المختلفة من سائر أنحاء العالم في تمام الفصول، وهي أرض غير ذى زرع، وهذا كله من الآيات الإلهية الواضحة. (٥)

١- بحار الأنوار ٧٧: ١٤.

٢- المصدر السابق ١٠٥: ٤، و ٥٩: ٨١، و ٢١٨: ٩٢.

٣- الإسراء: ١.

٤- القصص: ٥٧.

٥- آل عمران: ٩٧.

ص: ١٣١

- ٢- قيل: يكفى شرفاً للكعبة أن الأمر ببنائها هو الله تعالى، ومهندسها جبرئيل وبنائها الخليل ومساعدته إسماعيل (١)، ومثل هذا الشرف غير ثابت في حق بيت المقدس.
- ٣- بُنيت الكعبة على يد إبراهيم الخليل، وهو من أنبياء اولى العزم: أمّا بيت المقدس فبناه سليمان (ع) وهو من حفظة شريعة أنبياء أولى العزم وليس واحداً منهم.
- ٤- لم يثبت في بيت المقدس أى وعد إلهى بحفظه من تهديد الأعداء، أمّا الكعبة فقد جاء فيها هذا الوعد، قال تعالى: (٢) ، كما تم إنجاز هذا الوعد أيضاً، قال سبحانه: (...) (٣) ، أمّا بختنصر فقد خرّب بيت المقدس وهدّمه دون أن يواجه عقبةً أو تهديداً.

الخصويّات الفقهيّة للكعبة

- ١- بين الله تعالى وجوب الحجّ وزيارة الكعبة بقوله سبحانه: (٤) ، ولم يرد مثل هذا التعبير في حقّ أىّ عبادة اخرى، وقد سبق أن شرحنا هذه النقطة من قبل.
- ٢- لقد عدّ زوّار الكعبة من شعائر الله سبحانه، فهتك حرمتهم يقف في صفّ هتك سائر الحرمات الدينيّة، قال سبحانه: ()

١- الفخر الرازى، التفسير الكبير ١٥٩: ٨.

٢- الحج: ٢٥.

٣- الفيل: ١- ٥.

٤- آل عمران: ٩٧.

ص: ١٣٢

(١).

٣- إذا نجس شخص الكعبة- والعياذ بالله- عامداً متعمداً معانداً، كان حكمه الإعدام، أمّا مَنْ ينجس المسجد الحرام عمداً فيحكم عليه بالضرب الشديد.

٤- كما أنّ الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه (٢)، كذا الحال في الإسلام الممثل، أي الكعبة، لا ينبغي أن يكون هناك بناء أعلى منها، إنّ الخضوع في ساحة الكعبة المقدّسة يستدعي ليس فقط عدم وجود شخص أعلى منها، كما هو كذلك، بل وأيضاً من ناحية الصورة لا يفترض أن يكون أرفع منها لتكون تحته، كما يقول الإمام الباقر (ع): «لا ينبغي لأحد أن يرفع بناءً فوق الكعبة» (٣)، وعليه فبناء بيت يستر بناء الكعبة مكروه.

٥- يُستفاد من الآية الكريمة: (٤)، وكذلك من الإعلان العمومي للنبي إبراهيم (ع): (٥)، أنّ الكعبة بُنيت للناس، وهذا معناه أنّ حريمها يسع الناس كلّهم، ومن الممكن أن يمتدّ لكيلومترات عديدة، من هنا، وكما أوضحنا من قبل، يمكن تخريب البيوت الواقعة في أطراف الكعبة حتى لو لم يرض أصحابها بذلك.

٦- لا تخضع إدارة الكعبة للتقسيمات الجغرافية ولا تُحكم للقوانين الدولية الاعتبارية أو المناطقية أو الإقليمية؛ ذلك أنّ الكعبة ليست ملكاً لشخص، بل كلّ الورعين والمتقين هم أولياؤها، لا خصوص الشعب الحجازي، قال تعالى: (٦).

١- المائدة: ٢.

٢- وسائل الشيعة ٣٧٦: ١٧، ٤٦٠.

٣- المصدر السابق ٣٤٣: ٩.

٤- آل عمران: ٩٦.

٥- الحج: ٢٧.

٦- الأنفال: ٣٤.

ص: ١٣٣

٧- إنَّ قِبْلَةَ الْمُسْلِمِينَ وَمَطَافَهُمْ تَعْبَرُ عَنْ بُعْدٍ خَاصٍّ يَمْتَدُّ فِي الْعَمِقِ وَالْأَسْفَلِ حَتَّى الْأَرْضِ السَّابِعَةَ وَيَرْتَفِعُ فِي الْأَعْلَى حَتَّى السَّمَاءِ السَّابِعَةَ (١)، وَتَقَعُ الْكَعْبَةُ فِي هَذَا الْبُعْدِ، وَإِلَّا فَيُؤَدِّي لِمَا لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَزِمَ زَوَالُ الْقِبْلَةِ وَالْمَطَافِ عِنْدَمَا قَصَفَ الْحِجَاجُ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ بِالْمَنْجَنِيْقِ أَوْ عِنْدَمَا يَأْتِيهَا سَيْلٌ فَيَحْرَبُهَا.

مِنْ هُنَا، لَا يَجُوزُ لغير الطاهرين العبور من فوق الكعبة بالطائرة، ومنطلق هذا التحريم كون هذا الفضاء قبلة، لا أن القبلة هي المسجد، فإنه وإن لم يجر عبور غير الطاهرين في المسجد الحرام إلا أن المسجديَّة محدودة، أما بُعد القبلة في الكعبة فهو أوسع من ذلك، ومن نطاق المسجد الحرام، وعليه يمكن التمييز في الفضاء بين المسجد الحرام والكعبة.

ملاحظة

لقد جرى توفير حفظ البعد الخاص الذي تقع الكعبة فيه؛ أما سائر الأماكن الأخرى والأبنية فهي وإن كانت لها أبعاد فضائية، إلا أنه في حال عرض عليها الخراب فلا تحفظ أبعادها الأخرى ولم تحفظ.

عَبَقُ مِنْ تَارِيخِ الْكَعْبَةِ

الكَعْبَةُ أَوَّلُ مَعْبَدٍ شَعْبِيٍّ وَعَالَمِيٍّ لِتَمَامِ الْبَشَرِ، قَالَ تَعَالَى: (٢)، وَقَدْ جَرَى تَعْيِينُ مَحَلِّهِ وَخَارِطَتِهِ بِإِرْشَادِ وَأَمْرِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى: (٣).

١- وسائل الشيعة ٢٤٨: ٣.

٢- آل عمران: ٩٦.

٣- الحج: ٢٦.

ص: ١٣٤

وبناءً عليه، كانت الكعبة أول معبد (لا أول بيت) بُني على وجه الأرض، كما أنه على أساس الرواية التي تبين دحو الأرض، فإن مكان الكعبة هو أول مكان خرج من تحت الماء. (١)

لقد كان للكعبة تاريخ وحضور في عهد الأنبياء السابقين، وشاهد هذا الكلام أن النبي إبراهيم (ع) نادى الله سبحانه عندما أسكن هاجر وإسماعيل في أرض مكة بقوله: (٢)، وعندما ودّعهم، وقالت له هاجر: لمن تتركنا؟ قال: «إلى رب هذه البتية». (٣)

ويستوحى من جملة: (٤) أن الكعبة كانت مشهورة قبل عهد إبراهيم (ع) بأنها البيت الحرام، وأن موضعها كان محددًا. ويحتمل أن يكون بناء الكعبة قد هدم أو أصابه الضرر عدّة مرّات نتيجة الأحداث الطبيعية والوقائع المختلفة، ثم أُعيد بناؤها من جديد، تمامًا كما حصل مع بنائها إبراهيم (ع) حينما أعاد بناءها بيده القويّة، لكن حيث تكفل الله سبحانه بتدبير أمور الكعبة ورعايتها، فقال: (٤)، فلم يذهب إطلاقاً مكان الكعبة وموقعيتها وكذلك آياتها البيّنات مثل الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، و... كما أنها بقيت مصونة من سهام الأحداث المزعجة المؤلمة، وفي حديث عن الإمام الحسين (ع) ما يشير إلى حماية هذه الآيات البيّنات، يقول الإمام الباقر (ع) في هذا الحديث: «نعم، أذكر وأنا معه [الحسين (ع)] في المسجد الحرام، وقد دخل فيه السيل والناس يقومون على المقام يخرج الخارج يقول: قد ذهب به السيل، ويخرج منه الخارج فيقول: هو مكانه. قال: فقال لي: يا فلان ما صنع هؤلاء؟ فقلت: أصلحك الله يخافون أن يكون

١- وسائل الشيعة ٣٣١: ٧-٣٣٢، و ٣٤٧: ٩-٣٤٨.

٢- إبراهيم: ٣٧.

٣- بحار الأنوار ١١٦: ١٢.

٤- قريش: ٣.

ص: ١٣٥

السييل قد ذهب بالمقام، فقال: ناد: إن الله تعالى قد جعله علماً لم يكن ليذهب به، فاستقرّوا...» (١).
وعلى أيّ حال، فظهور الإعجاز الإلهي في خضمّ الأحداث الخطيرة هو ما يضمن صيانة الآيات للحرم، بل وضمنها.
لقد كان ارتفاع الكعبة في زمان بُناته: إبراهيم وإسماعيل ٩ إلى ١٢ ذراعاً، كما كان لها بابان، أمّا ارتفاعها في عهد قريش أو ابن الزبير فقد بلغ ثمانية عشر ذراعاً (٩ أمتار)، وقد صارت ذات سقف بعد ذلك، وفي واقعة الحجاج وابن الزبير بلغت سبعة وعشرين ذراعاً (٢)، إلى أن بلغت ارتفاعها الحالي.

أمّا أسسها المعنوية، فتصل - حسب البيان النوراني للإمام الصادق (ع) - إلى نهاية الطبقة الثامنة للأرض، فيما ارتفاعها الحقيقي يبلغ منتهى السماء السابعة. (٣)

ويُعلم من أنه عند تطهير الكعبة من الأصنام ووضع الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) قدميه على كتفي رسول الله (ص) ثم إلقاء الأصنام من على ظهر الكعبة أرضاً.. أن ارتفاع الكعبة آنذاك - حسب الظاهر - كان تقريباً بحجم قامه رجلين متوسّطي القامة، نعم، ثمّة حساب آخر لما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) من البعد المعنوي لهذه الحادثة حيث قال: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو أردت أن أمسك السماء لمسكتها». (٤)

وواحدة من الأحداث المرة التي عرضت على الكعبة، أي القبلة والمعبد ومطاف

١- الكافي ٢٢٣: ٤؛ نعم هذا النقل يحتاج إلى المزيد من البحث التاريخي من حيث سنّ الإمام الباقر.

٢- المصدر السابق: ٢٠٣، ٢٠٧.

٣- وسائل الشيعة ٢٤٨: ٣.

٤- بحار الأنوار ٧٦: ٣٨، وفي صفحة ٧٨، جاء هذا النصّ في نقل آخر كالتالي: «والذي بعثك بالحقّ، لو هممتُ أن أمسّ السماء بيدي لمسستها».

ص: ١٣٦

الأنبياء والأولياء الإلهيين: .. أنها كانت لمدد عدّة بيتاً للأصنام، أى أنّ عبدة الأصنام فى الحجاز كانوا يضعون الأصنام فوق الكعبة، وفى بعض الأحيان يضعونها داخلها، ولهذا كانوا يفتخرون بخزانة الكعبة وإدارتها، وأحد الذين حملوا سمة خازن الكعبة كان أبوغيشان وهو - كما اشير من قبل - قد باع وهو ثمل مفاتيح الكعبة وخزانتها بقدحين من الشراب والخمر.

ص: ١٣٧

الفصل السادس الحجر الأسود

السّر في تشبيه الحجر الأسود بمقام الرسول الأكرم (ص)

تضم الكعبة المطهرة أربعة أركان و ترتيبها حسب الطواف كما يلي: ركن الحجر الأسود، الركن العراقي، الركن الغربي والركن اليماني. والمسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة تُعرف بـ «الملتزم». قال الإمام الصادق (ع): «هو الموضع الذي تاب الله فيه على آدم». (١)

و «المستجار» موضع يقع إلى جانب الركن اليماني، بمحاذاة الملتزم، حيث يتعلق الزائرون بأستار لطف الله تعالى؛ وقد عبّر أمير المؤمنين الإمام علي (ع) عن سرّ التعلق والتشبث بأستار الكعبة ومعنى ذلك بقوله: «هو مثل رجل له عند آخر جناية وذنبٌ فهو يتعلّق بثوبه يتضرّع إليه و يخضع له أن يتجافى له عن ذنبه». (٢)

يقع الحجر الأسود إلى يسار الزائر الذي بإزاء باب الكعبة ومقام إبراهيم (ع) على يمينه (وإن كان مقام إبراهيم يقع الآن خلف الزائر المفترض) ولكن بالنسبة للكعبة نفسها، فلو افترضنا أن وجه الكعبة يقع قبالة الناس وجهاً لوجه من الجدار الذي يقع في باب الكعبة، فإن الحجر الأسود يقع إلى يمين بيت الله الحرام ومقام إبراهيم إلى يساره.

١- وسائل الشيعة ٥٣٩: ٣.

٢- المصدر السابق ١٥٩: ٨- ١٦٠.

ص: ١٣٨

يقول الإمام الصادق (ع) مبيناً سرّ الأمر المذكور، مجيباً على هذا السؤال: لماذا يستلم الناس الحجر الأسود والركن اليماني من بين أركان الكعبة فقط؟ فقال: لأنها بمنزلة يمين عرشه (١) والله سبحانه وتعالى أمر باستلام كل ما هو على يمين عرشه. ثم قال مجيباً عن السبب في وقوع مقام إبراهيم على الجانب الأيسر: لأن «لكل من النبي إبراهيم (ع) و الرسول الأكرم (ص) مقاماً خاصاً في يوم القيامة، ومقام محمد (ص) عن يمين عرش ربنا عزوجل، ومقام إبراهيم (ع) عن شمال عرشه...» (٢).

والحجر الأسود، هو المقام الذي يستند إليه الإمام المهدي [عندما يبايعه الناس، في بداية ثورته العالمية لبسط العدالة؛ وكما عبر الإمام الصادق (ع) عن ذلك قائلاً: «... وإلى ذلك المقام يسند القائم ظهره، و هو الحجّة و الدليل على القائم، و هو الشاهد لمن وافاه في ذلك المكان، والشاهد على من أدّى إلى الميثاق والعهد الذي أخذ الله عزوجلّ على العباد». (٣).

نزول الحجر الأسود من الجنة

بناءً على ما جاء في بعض الروايات، فإن الحجر الأسود قد نزل من الجنة، وكان في البداية أبيض اللون، واسودّ تدريجياً على أثر استلامه من قبل المذنبين، حتّى أصبح كما هو عليه الآن: «... كان ملكاً من عظماء الملائكة عند الله...»، «إنّ الحجر

١- قال الرسول الأكرم ٩: «ما أتيت الركن اليماني إلا- وجدت جبرئيل قد سبقني إليه يلتزمه». وقال الإمام الصادق ٧ أيضاً: «الركن اليماني باب من أبواب الجنة لم يغلقه الله منذ فتحه». «الركن اليماني بابنا الذي ندخل من الجنة». «الركن اليماني على باب من أبواب الجنة مفتوح لشيعه آل محمد، مسدود عن غيرهم، و مامن مؤمن يدعو بدعاء عنده إلّاصد دعاؤه حتى يلصق بالعرش ما بينه وبين الله حجاب». وسائل الشيعة ٤١٩: ٩-٤٢٢.

٢- بحار الأنوار ٣٣٩: ٧.

٣- الكافي ١٨٥: ٤.

ص: ١٣٩

كان درّةً بيضاء في الجنة...»، «... وكان أشدّ بياضاً من اللبن فاسودّ من خطايا بني آدم، ولولا ما مسّه من أرجاس الجاهلية ما مسّه ذو عاهةٍ إلّا برأ». (١)

بعض المفسرين الذين يبحثون عن تبريرٍ أو تفسيرٍ ماديّ لأى ظاهرة من الظواهر، قالوا في معرض نفيهم لهذا النوع من الروايات: نزول الحجر من السماء أو الجنة، لا معنى له!! (٢)

وفي الردّ على هذا الكلام ونقده لابد من القول (٣): ما يؤيد الروايات التي تدور حولها بعض الإشكالات، الآيات التي ورد الحديث فيها عن إنزال النعم الإلهية من خزائن الغيب، كقوله تعالى: (٤)، (٥) و (٦).

فكلمة «الإنزال» ليست بمعنى الخلق، بل هي بمعنى التنزيل والإنزال الواقعي من وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة كنزول القرآن في ليلة القدر؛ ولكن المراد هنا، الإنزال على نحو التجلّي، وليس بصورة التجافى، مثل نزول الثلج والمطر؛ أى لا يعنى الأمر نفاذ المخازن الإلهية وخلوّها من الموجودات، بعد تنزيلها إلى عالم الطبيعة من العالم الأعلى؛ لأن خزائن الله لا يعتربها النقصان أو النفاذ؛ (٧) والوجود الغيبي لهذه الأشياء وجود نوراني وتحمل ذلك أمرٌ غير ميسور للجميع. من هنا فإن ظهورها في هذه النشأة اقترن بتنزل مرتبتها الوجودية. ولكن

١- وسائل الشيعة ٤٠٣: ٩-٤٠٧.

٢- بحار الأنوار ٤٦٦: ١-٤٦٨.

٣- الميزان ١٩٠: ٢-١٩٥.

٤- الحجر: ٢١.

٥- الزمر: ٦.

٦- الحديد: ٢٥.

٧- النحل: ٩٦.

ص: ١٤٠

حرمه و كرامه الموجودات المتنزله من الخزائن الإلهية واحده بلحاظ تباين درجات تلك الخزائن. مثلما يعتبر الحجر الأسود حالة خاصة.

وبناءً على ذلك، فإن مجرد الاستبعاد العلمي لمسألة هبوط الحجر الأسود من الجنة لا قيمة له؛ لأن دراسة السير الأفقى للموجودات و ماضيها و حاضرها و مستقبلها الطبيعي يتم فى نطاق العلوم الطبيعية، ولكن السير العمودى للأشياء والموجودات والنقاش حول العلة الفاعلية والغائية لها تقع خارج نطاق العلوم الطبيعية، مهما توصلت هذه العلوم إلى تطورات ملحوظة فى هذا الجانب. ونستنتج من ذلك أولاً: إن الحجر الأسود من أحجار الجنة والسماء، كما ورد ذلك فى العديد من الروايات المعتمدة. ثانياً: لا يوجد دليل عقلى أو نقلى يدل على خلاف ذلك.

وبناءً على ذلك، فإن إثبات المسائل الاعتقادية على الرغم من أنه لا يمكن أن يتحقق بالاستناد إلى الخبر الواحد، ذلك أنها تحتاج إلى القطع واليقين ولا يمكن الاكتفاء فيها بالظن، لكن بالمقابل لا يوجد أى وجه لإنكار تلك الروايات و رفضها.

شهادة الحجر الأسود يوم القيامة

الحجر الأسود كالمسجد، يشهد يوم القيامة لصالح البعض، و هو آية من آيات الله البينات إلى جانب الكعبة (١)، ويمين الله عز وجل فى الأرض واستلامه بمنزلة البيعة لله تعالى؛ «هو يمين الله عز وجل فى أرضه يبائع بها خلقه». (٢) وكما قال أمير المؤمنين الإمام على (ع) فى رده على من قال عند استلام الحجر: أعلم

١- وسائل الشيعة ٣٤٦: ٩.

٢- المصدر السابق: ٤٠٥-٤٠٦.

ص: ١٤١

بأنك لا تضر ولا تنفع ولكني أحب رسول الله (ص) لك، فقال (ع): والحجر الأسود من الشهداء أيضاً يوم القيامة؛ «فوالله ليعتته الله يوم القيامة وله لسانٌ وشفطان فيشهد لمن وافاه» (١)، كما أكد الإمام الصادق (ع) في رده على ذلك الظن فقال: «كذب ثم كذب ثم كذب. إنَّ للحجر لساناً ذليلاً يوم القيامة يشهد لمن وافاه بالموافاة». (٢)

تنبيه: هذا النوع من الأحاديث المأثورة، والتي تصرح بمنفعة الحجر الأسود ونحوه، يعود إلى كونه وسيلة ذات تأثير معين والذى تجسّد بلطف الله وبركاته على هذا الحجر، و عدا ذلك فإن أياً من أحجار الكعبة وأمثالها ليست ضارّة بذاتها أو نافعة، كما عبّر أمير المؤمنين (ع) بشأن سلب تأثيرها الذاتى فقال (ع): «... أحجار لا تُضُرُّ ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع». (٣)

١- وسائل الشيعة ٤٠٦: ٩.

٢- المصدر السابق: ٤٠٦.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، الفقرة ٥٤ ٥٣. وقد مرّ ذكر نص هذا الحديث الشريف و ترجمته فى الفصل الثالث من القسم الأول فى موضوع «صورة الحج فى الروايات». فراجع.

الفصل السابع ألمطيم ومجر إسماعيل

«الحطيم» منطقة محدّدة بين الحجر الأسود، وباب الكعبة و مقام إبراهيم (ع)، ولكن قيل في بعض الروايات، بأنها المسافة بين الحجر الأسود وباب الكعبة فقط (١)، وحول السرّ في تسمية هذا المكان بالحطيم، قال الإمام الصادق (ع): «لأن الناس يحطم بعضهم بعضاً». (٢)

والحطيم أفضل الأماكن حول الكعبة؛ فبعد أن ذكر الإمام الباقر (ع) حدوده قال موضعاً هذه القضية المتعلقة بالحطيم: «إنّ أفضل البقاع ما بين الركن الأسود و المقام وباب الكعبة، و ذاك حطيم إسماعيل، ووالله لو أنّ عبداً صَفَّ قدميه في ذلك المكان و قام الليل مصلياً حتى يجيئه النهارُ و صامَ النهارَ حتى يجيئه الليل و لم يعرف حقّاً و حرمتنا أهل البيت، لم يقبل الله منه شيئاً أبداً». (٣)

والحطيم محل نزول جبرئيل (ع) و وقوفه بين يدي بقية الله الأعظم إمام العصر والزمان [، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق (ع) قال: «عندما يأذن الله سبحانه وتعالى بخروج القائم [... يبعث إليه جبرئيل (ع)؛ فيهبط جبرئيل على الحطيم ... و يقول: أنا أوّل

١- الكافي ٥٢٥: ٤؛ وسائل الشيعة ٥٣٩: ٣.

٢- وسائل الشيعة ٥٣٩: ٣.

٣- المصدر السابق ١٢٣: ١.

ص: ١٤٣

من يبايعك...» (١).

ويقول الأستاذ العلامة الطباطبائي ١ كغيره من المحققين: الحطيم هو ذلك الجدار المقوس إزاء الميزاب الذهبي (٢)، كما يفهم من بعض الروايات أن جماعة يسمون «حجر إسماعيل» الذي يقع بين الركن العراقي و الركن الغربي بالحطيم. وهذا ما ورد عن الإمام الصادق (ع) في جوابه للسائل الذي سأل عن حجر إسماعيل، فقال (ع):

«إنكم تسمونه الحطيم، وإنما كان لغنم إسماعيل، وإنما دفن فيه أمه و كره أن يُوطأ قبرها فحجر عليه، وفيه قبورُ أنبياء». (٣)

ومن بين الوجوه المحتملة بشأن السرّ في تسمية الحطيم بهذا الاسم، والذي اشير اليه أيضاً في الرواية المذكورة، أن النبي إبراهيم (ع) كان يهشم (٤) التبن والعلف هناك لإطعام أغنامه، ويسمّون العلف بالحطيم والتبن بالحطام، لأن المحطوم هو الذي تم تهشيمه وتكسيه؛ ونقلت في بعض الكتب اللغوية وجوه أخرى أيضاً في سبب تسمية حجر إسماعيل بالحطيم. وفيها: أن هذا الجزء قد فصل و كسّر عن البيت، والآخر أن الأعراب في الجاهلية، كانوا يلقون الملابس التي كانوا يلبسونها حال الطواف في ذلك المكان و كانت تتحطم و تبلى تدريجياً. (٥)

أما «حجر إسماعيل» الذي يعدّ من آيات الله البينات (٦)، فهو مدفن إسماعيل ومجموعة أخرى من أنبياء الله (٧)، كما أنه مدفن أم إسماعيل و بناته، و قد حجر (ع)

١- بحار الأنوار ٣٣٧: ٥٢-٣٣٨.

٢- الميزان ٣٦٠: ٣.

٣- وسائل الشيعة ٤٣١: ٩.

٤- بحار الأنوار ٨٦: ٦٥.

٥- لسان العرب ١٣٧: ١٢-١٤٠ حطم.

٦- الكافي ٢٢٣: ٤.

٧- وسائل الشيعة ٤٣٠: ٩.

ص: ١٤٤

أطراف قبر أمه هاجر كي لا يطأه الطائفون (١)، وحجر إسماعيل ليس قبله ولكنه في ضمن المطاف كالكعبة، احتراماً لتلك القبور، و الطواف في داخله باطل.

وحجر إسماعيل من أفضل الأماكن في المسجد الحرام لأداء الصلاة فيها (٢)، كما كان المكان الذي يصلى فيه شبر و شبير أولاد هارون (ع) (٣)، وصلى فيه الأئمة المعصومون: أيضاً (٤)، وكانوا يدعون الله فيه بخالص الدعاء (٥)، كما كانوا يستقبلون الناس هناك ويجيبون على أسئلتهم واستفساراتهم (٦)، وقد نصب ميزاب الكعبة فوق حجر إسماعيل؛ وقد ورد الحديث في بعض الروايات، عن الشفاء بماء المطر الذي ينزل من هذا الميزاب (٧)، وآخر الكلام عن حجر إسماعيل أنه يستحب للحاج أن يُحرم منه.

١- الكافي ٢١٠: ٤.

٢- المصدر السابق ٥٢٥: ٣؛ وسائل الشيعة ٥٣٩: ٢.

٣- وسائل الشيعة ٥٣٩: ٢.

٤- الكافي ١٨٨: ٤؛ وسائل الشيعة ٢٧٤: ٥.

٥- المصدر السابق ٢١: ٧.

٦- المصدر السابق ٢٦٠: ١، ٣٧٩، و ٢١: ٧ و ٢٣٢: ٨ و ٢٧١؛ وسائل الشيعة ٤١٩: ١٣.

٧- المصدر السابق ٣٨٧: ٦.

ص: ١٤٥

الفصل الثامن مقام إبراهيم

إشارة

إحدى العلامات والآيات البيّنات لله تعالى في مكة: «مقام إبراهيم»، مثلما أشار الإمام الصادق (ع) في بيان المراد من كلمة «بيّنات» في الآية المباركة: (١)، فقال (ع): «مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود، و منزل إسماعيل (ع)» (٢)؛ و كان هذا الحجر موضوعاً في البداية على وجه الأرض بشكل طليق إلى جوار الكعبة، ثم وضعه في الملتزم لكي لا ينقل من مكانه؛ و موضع المقام الآن مُبرّز أيضاً وموضوع بداخل صندوق معدني، و منقوش على جبهة الشريط المعدني الذي وضع الحجر على حافته جملة نورانية تقول: (٣)، حيث يمكن رؤيتها و قراءتها من قبل الجميع بكل وضوح، مما يدل على حُسن تدبير المسؤولين عن الحرم.

مسألة تغيير مقام إبراهيم وردت في بعض الأحاديث؛ حيث قال الإمام الباقر (ع):
كان المقام في البدء، بالقرب في جدار الكعبة، و قاموا بنقله قبل الإسلام إلى

١- آل عمران: ٩٧.

٢- الكافي ٢٢٣: ٤.

٣- البقرة: ٢٥٥.

ص: ١٤٦

موضعه الحالي، وأعادته الرسول الأكرم (ص) بعد فتح مكة إلى موضعه الأصلي، ولكن تغير مكانه مرة أخرى في عصر الخلفاء: «كَانَ مَوْضِعُ الْمَقَامِ الَّذِي وَضَعَهُ إِبْرَاهِيمَ (ع) عِنْدَ جِدَارِ الْبَيْتِ فَلَمْ يَزَلْ هُنَاكَ حَتَّى حَوَّلَهُ...». ولكن بما أنَّ الوضع الموجود اِقْرَ من قبل الأئمة المعصومين: ولم ينتقد أهل بيت النبوة: ما يترتب على هذا الوضع من حكم فقهي، نفهم من ذلك أن إقامة صلاة الطواف عند الموضع مبررة للذمة.

وقد قال الإمام الباقر (ع) في صدر الرواية المذكورة: في السنة التي جرف فيها السيل المسجد الحرام كنت في مكة مع الإمام الحسين (ع) (١)، وخطب الإمام الحسين (ع) الناس الذين كانوا خائفين من زوال مقام إبراهيم (ع) قائلاً: اعلموا! أن السيل لن يجرف مقام إبراهيم أبداً؛ لأن الله قد جعله علماً وآية له؛ «أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَهُ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ لِيُذْهَبَ بِهِ». (٢)

والجدير بالذكر، أنه لا يمكن اعتبار جميع الآيات التي وردت بشأن مكة على أنها وردت من باب المعجزة وخلافاً للعادة والطبيعة، استناداً إلى هذه الآية المباركة في قوله تعالى: () بما فيها هذه الآية الشريفة؛ لأن المراد بالآية، ليس فقط المعجزة من قبيل معجزة ناقه صالح (ع)، و شق القمر ونحو ذلك، بل الآية بمعنى العلامة والأماره التي تدل على الحق وتذكر الناس بذلك، سواء كانت تكوينية أم تشريعية أم كليهما معاً، وكما قال بعض المفسرين: إن جملة () هي من باب التفصيل بعد الإجمال ومصدق لآيات بينات مذكورة بالحق ومن العلامات الإلهية، دون أن يكون في البين أمرٌ خارقٌ للعادة.

فإذا صار «مقام إبراهيم» بياناً لقوله تعالى: ()، فإنَّ الاستفادة منه ما

١- كما مرَّ، فإن هذه الرواية بحاجة إلى تحقيق تاريخي من حيث مقدار عمر الإمام الباقر ٧.

٢- الكافي ٢٢٣: ٢.

ص: ١٤٧

يلي: كما أن إبراهيم (ع) كان لوحده أمه؛ (١) فإن آثار أقدامه و مقامه أيضاً لوحدهما آيات بينات و «أمه واحدة» في موضوع الإعجاز. (٢)

ولعل السرّ في التعبير بصيغته الجمع يتمثل في أنه:

أولاً: إن الحجر الصلد والقوى أصبح كالعجين في تغيير شكله.

ثانياً: المكان المحدد لذلك أصبح على شكل العجين، و ليس كل الحجر.

ثالثاً: تقبله لآثار الأقدام إلى عمق معين والبقية بقيت بحالتها الصخرية.

رابعاً: بقي محفوظاً من سرقة جميع الطغاة الذين أرادوا إخفاء هذا الأثر ومحوه.

خامساً: بقي محفوظاً من سرقة سراق القطع الفنية والأثرية الذين هم بصدد سرقة المواد النفيسة ذات القدم. (٣)

والذين يقولون بأن قوله تعالى: () إنما هو إشارة لآياتٍ أخرى متعددة، وبالإضافة إلى مقام إبراهيم وجعل هذا البلد آمناً بسكانه و

زائريه، فإنهم ذكروا أموراً أخرى أيضاً من الآيات العلية لله سبحانه وتعالى في مكة و الحرم الإلهي، والتي لم يتم ذكرها بشكل

منفصل بسبب وضوحها وعدم تصريح الله سبحانه وتعالى بها (٤)؛ أموراً من قبيل:

١- عدم تحليق الطيور فوق الكعبة و انحرافها أثناء الطيران عن فضاء الكعبة.

٢- عدم تلويث الطيور للكعبة.

٣- تعايش أنواع الحيوانات في الحرم و عدم تعرض الحيوانات المفترسة لغيرها.

٤- تورط الظلمة الذين أرادوا سوءاً بالكعبة و قهرهم من قبل الله تعالى، مثل أصحاب الفيل.

١- النحل: ١٢٠.

٢- الكشاف ٣٨٧: ١.

٣- المصدر السابق: ٣٨٧-٣٨٨، مع قليل من التصرف.

٤- روضة المتقين ١١٣: ٤-١١٤.

ص: ١٤٨

٥- عدم إصابة الحجيج بالتعب والإرهاق النفسى، على الرغم من مجيئهم من أماكن بعيدة و بصعوبة بالغه و بشكل متكرر أيضاً. وبناءً على ذلك، ولغرض بيان أهمية مقام إبراهيم خاصة، فإن الله سبحانه وتعالى يذكر مقام إبراهيم (ع) بشكل مستقل، من باب ذكر الخاص بعد العام، بعد ذكر الآيات الأخرى على وجه العموم.

كيفية تكوّن مقام إبراهيم

هناك عدة احتمالات بشأن كيفية تكوّن مقام إبراهيم (ع) ومنها:

- ١- وقوف النبي إبراهيم (ع) على هذا الحجر أثناء القيام ببناء الكعبة. وعن طريق الإعجاز الإلهي أصبح الحجر آنذاك ليناً وقابلاً لبروز الآثار عليه؛ فبقى أثر الأقدام عليه. (١)
- ٢- عندما عاد للمرة الثانية إلى مكة قالت زوجة إسماعيل (ع): ترجل كى أغسل رأسك، وعندما ترجل (ع)، وضع قدمه على الحجر وأحدث أثراً فى ذلك الحجر. (٢)
- وعلى أية حال، فإن حقيقة وضع إبراهيم (ع) قدمه على الحجر الصلد وانغماس أثر قدمه المباركة و بقاء هذا الأثر فى ذلك الحجر .. يعدّ من الأمور المسلّم بها والتي اعتبروها معجزة له. (٣)
- وقد ورد ذكر مشابه لهذه الخاصية، بشأن النبي داود (ع)، إذ إن الله سبحانه وتعالى جعل الحديد البارد الصلد بيده لئناً كالشمع؛ (٤).

١- المصدر السابق: ١١٤.

٢- بحار الأنوار ١١٦: ١٢-١١٧.

٣- التبيان ٤٥٢: ١؛ التفسير الكبير ٥٠: ٣.

٤- سبأ: ١٠.

ص: ١٤٩

والملاحظة التي يجدر الإشارة لها هنا، أنه ورد حديث عن التعليم في مسألة صناعة الحديد؛ قال تعالى: (١)؛ لأن صناعة الدروع يمكن تعليمها ونقلها للآخرين كما هو الحال في سائر العلوم والمهن الأخرى، على العكس من عملية إناء الحديد البارد والقوى بواسطة اليد. ومن هنا لم يقل تعالى: «وَعَلَّمَنَاهُ إِنَاءَ الْحَدِيدِ». ويصدق هذا الأمر بشأن مقام إبراهيم (ع) أيضاً، مع وجود هذا الفرق حيث إن الحديث هنا يتعلق بـ «وَأَلَّنَا لَهُ الْحَجْرَ».

وبقيت «آثار» كلتا قدمي إبراهيم (ع) المباركتين محفوظتين في مقام إبراهيم (ع) (٢) كما كان الحديد يحافظ على «بدن» داود (ع). ومقام إبراهيم (ع) يطلق أيضاً على قطعة الأرض التي يقع فيها مقام إبراهيم (ع) في المسجد الحرام، وهي محل صلاة الطواف (٣)، مثلما يطلق أحياناً على الكعبة أيضاً. (٤)

ملاحظة

قال الإمام السجاد (ع): «أفضل البقاع ما بين الركن والمقام...» (٥)، أي إن المسافة ما بين الركن (الحجر الأسود) إلى مقام إبراهيم، هي من أفضل الأماكن، وروى عن الإمام الباقر (ع) أنه قال: «أَنَّ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ لَمْشَحُونَ مِنْ قُبُورِ الأنبياءِ» (٦)، وهذا المكان، هو منطلق حركة الإمام الحجة [العالمية]. ويقول الإمام الباقر (ع) بهذا الشأن: «كَأَنِّي بِالقَائِمِ يَوْمَ عاشوراءِ يَوْمَ السَّبْتِ، قائماً بَيْنَ الرُّكْنِ وَالمَقَامِ، بَيْنَ يَدَيْهِ جَبْرئيلَ (ع)»

١- الأنبياء: ٨٠.

٢- نقل عن أنس به مالك أنه قال: رأيت أثر أصابع و عمق القدم في الحجر، ولكن مسح واستوى بسبب المسح بأيدي الناس التحرير و التنوير ٦٨١: ١.

٣- المصدر السابق ٢٤١: ٩٦.

٤- التحرير و التنوير ٦٨١: ١.

٥- من لا يحضره الفقيه ٢٤٥: ٢.

٦- الكافي ٢١٤: ٤- ٢١٢.

ص: ١٥٠

ينادى: البيعة لله، فيملأها عدلاً كما مُلِّتَ ظلماً وجوراً. (١)

١- بحار الأنوار ٢٩٠: ٥٢.

ص: ١٥١

الفصل التاسع زمزم

إشارة

تدفق ماء زمزم ببركة ذرية إبراهيم الخليل (ع)؛ لأنه (ع) ترك وليده وأمه هاجر بوادٍ غير ذى زرع وضرع فى أرض مكة بأمر الله سبحانه وتعالى؛ وعلى أثر عطش الوليد، أخذت أمه تبحث عن الماء و تدعو و تنادى: «هل بالوادى من أنيس؟»، فأخذت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ذهاباً وإياباً، وفجأةً رأت تحت أقدام الوليد عيناً ينبع فيها الماء. (١)

ولا زال ذلك الماء يتدفق لحد الآن بعد مضى آلاف السنين عليه، على الرغم من أنه تم حفر آبار إضافية أخرى فى ذلك الوادى، هذا أولاً،

وثانياً: إن مكة ليس بلدًا تسقط عليها الثلوج، كما أن أمطارها ليست غزيرة، لكى يصبح تدافع الماء من زمزم على أساس قوله تعالى: (٢) «وبناءً على ذلك، فإن تدفق ماء زمزم واستمراره آلاف السنين على ذلك فى بلدٍ مثل مكة، وما فيه من صفة الشفا وصيانتها من الفساد (٣)، كل واحدة من هذه الأمور هى

١- استناداً لبعض الروايات، فإن إبراهيم ٧ هو الذى حفر بئر زمزم بأمر الله سبحانه وتعالى الكافى ٢٠٢: ٤-٢٠٣.

٢- الزمر: ٢١.

٣- من مجموع التجارب الفردية وما كان يقوم به المؤمنون و بخاصة خاتم الرسل ٩ تجاه ماء زمزم و تقديمه كهديته، نلاحظ أن ذلك الماء غالباً ما كان يبقى لفترة طويلة من الزمن، لذا يمكن القول بأن ماء زمزم لا يفسد بسرعة.

ص: ١٥٢

معجزةٌ بحد ذاتها، لذا يمكن القول بأن زمزم هو مصداق ل- () لوحده.

وقال الرسول الأكرم (ص): «ماء زمزم، أفضل ماء على وجه الأرض» (١)

وقال أيضاً: «ماء زمزم لما شرب له؛ من شربه لمرض شفاه الله أو لجوع أشبعه الله أو لحاجة قضاها الله» (٢)، وكان يقول بعد شرب ماء

زمزم: «اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء وسقم» (٣)، وقال الإمام الصادق (ع) بشأن الشفاء من ماء زمزم:

«ماء زمزم شفاءً من كل داء». (٤)

من هنا، يستحب استحباباً مؤكداً أن يشرب حجاج بيت الله الحرام من ذلك الماء، والتأسى برسول الله (ص) بقراءة هذا الدعاء: «اللهم

اجعله علماً...». (٥)

كما كان الرسول الأكرم (ص) يستعمل ماء زمزم في مكة، وبعد أن هاجر إلى المدينة المنورة كان يستهدى ماء زمزم من الآخرين

لشدة تعلقه به. ولهذا السبب كان الزائرون يجلبون معهم ماء زمزم عند عودتهم من مكة هدية للرسول الأكرم (ص) وكان يقبل منهم

الهدية. (٦)

من أسماء زمزم

من أسماء زمزم الأخرى، حفيرة عبدالمطلب، المذنونة والمصونة (٧)، والسرّ في تسمية بئر زمزم بالمذنون (٨) أو المصون أنه في

برهه من التاريخ و منذ أن استولت

١- الكافي ٢٤٦: ٣.

٢- بحار الأنوار ٤٥: ٥٧.

٣- الكافي ٢٥٠: ٤.

٤- المصدر السابق ٣٨٧: ٦.

٥- المصدر السابق ٤٣٠: ٤.

٦- وسائل الشيعة ٣٥٠: ٩- ٣٥١.

٧- المصدر السابق: ٣٥١ و ٥١٥- ٥١٦.

٨- «ضنّ» بمعنى بخل و الشيء الثمين والنفيس إذا بخل به يسمى مذنوناً.

ص: ١٥٣

قبيلة خزاعة على مكة، دفنوا هذا البئر وأحمدوه، إلى أن تولّى عبدالمطلب شؤون مكة و أمر بإعادة حفره (١)، غارت البئر و لم ينبع منها الماء.

إذن، فالسرّ وراء اشتهارها ببئر عبدالمطلب يعود إلى أن عبدالمطلب هو الذى أعاد فتح البئر وترميمه.

١-الكافى ٢٢٠:٢١٨:٤.

ص: ١٥٤

الفصل العاشر

الصفاء والمروة

الصفاء والمروة اسمان لجبلين بالقرب من الكعبة. وهذان الجبلان من شعائر الله تعالى: (١).

والسرّ في تسمية الصفا بهذا الاسم أنه اكتسب تسميته من وصف الأنبياء وبخاصة آدم (ع)، وهم الذين اصطفاهم الله تعالى: (٢).
قال الإمام الصادق (ع): بعد أن هبط آدم (ع) على جبل الصفا وهو من صفوة الله تعالى، فإنّ الجبل صفا من صفوة الله واصطفاء آدم (ع). (٣).

وعليه؛ فإنّ الذي يكسب الصفا من هذا الجبل هو ممن اصطفاه الله تعالى: (٤).
وقال الإمام الصادق (ع) بشأن السرّ في تسمية المروة بهذا الاسم: بعد أن نزلت حواء ٣ وهي امرأة على جبل المروة، سمي ذلك الجبل «المروة». (٥).

١- البقرة: ١٥٨.

٢- آل عمران: ٣٣.

٣- الكافي ١٩٠: ٤؛ بحار الأنوار ١٦٢: ١١ و ١٦٩.

٤- الحج: ٧٥.

٥- الكافي ١٩٠: ٤.

ص: ١٥٥

وقال بعض اللغويين: إن الصفا حجر أملس (١)، والمروة يطلق على الحجر الناعم البراق، وتسمية الجبلين بالصفا والمروة إنما هو بلحاظ نوع أحجارهما. (٢)

ونصب في الجاهلية اثنان من الأصنام على قمة الصفا والمروة، و اسمهما «أساف» (أثاف) و «نائلة» (٣) حيث كان الناس يتمسحون بهما تبركاً أثناء السعي (٤)؛ ولهذا السبب كان بعض المسلمين في صدر الإسلام يتجنب السعي بين الصفا والمروة. و لغرض إزالة هذا الوهم وتحاشيه قال الله سبحانه و تعالى: (.)

ومن هذا المنطلق فإن الصفا والمروة كالكعبة؛ لأنهم جعلوا الكعبة في الجاهلية مقراً لأصنامهم غصباً، ولا ينبغي اعتبار ذلك مانعاً للطواف حول بيت الله.

والصفا والمروة من الرموز العبادية كسائر أماكن الحج ومناسكه: (.)، والشعائر جمع «شعيرة» بمعنى العلامة، ولكن ليس معنى ذلك أن الصفا والمروة، هما من العلامات و الرموز التكوينية للحق تعالى فقط، لأنه بلحاظ التكوين، تكون جميع الموجودات من شعائر الله؛ فالصفا والمروة مثلها كمثل الكعبة و عرفات والمشعر و منى، شعائر جعلية و تشريعية و علائم عبادية.

١- لسان العرب ٤٦٢: ١٤-٤٦٤ صفا.

٢- المصدر السابق ٢٧٥: ١٥-٢٧٦ مرا.

٣- بحار الأنوار ٢٣٥: ٩٦.

٤- الكافي ٤٣٥: ٤ «البقرة: ١٥٨».

الفصل الحادى عشر عرفات

عرفات، منطقة خارج دائرة الحرم و بالقرب من المشعر الحرام الذى يقع فيه «جبل الرحمة» و «مسجد نمره». والوقوف فى هذه البقعة من ظهيرة اليوم التاسع من شهر ذى الحجة الحرام إلى غروبه واجب على الذين عقدوا الإحرام لأداء حج التمتع، و هو من أركان الحج. وهناك عدة وجوه وردت حول السرّ فى تسمية هذه البقعة باسم عرفات:

١- أن آدم و حواء (ع) تعرّفا على بعضهما البعض بعد الهبوط فى تلك البقعة. (١)

٢- أنهما اعترفا بذنبيهما فى تلك البقعة. (٢)

٣- أن جبرئيل (ع) عند تعليمه مناسك الحج لإبراهيم (ع)، قال له: اعترف بذنوبك بين يدي الله فى هذه البقعة. (٣)

٤- عندما طلب النبى إبراهيم (ع) من الله سبحانه و تعالى أن يُريه مناسك الحج و يتعلمها، (٤) نزل جبرئيل (ع) إلى أرض عرفات و كان مأموراً بتعليم

١- بحار الأنوار ٢٤٢: ٤٤ و ٢٤٥: ٥٧.

٢- المصدر السابق ١٦٨: ١١.

٣- المصدر السابق ٣٠٧: ٤.

٤- البقرة: ١٢٨.

ص: ١٥٧

إبراهيم الخليل (ع) مناسك الحج، فقال له: «هذه عرفات فاعرف بها مناسكك واعترف بذنبك». (١)

وبناءً على هذا الوجه، فإن سبب تسمية تلك الأرض بعرفات أن جبرئيل (ع) أشار إلى تلك الأرض باسم عرفات.

٥- أن إبراهيم (ع) قد رأى فى المنام قبل يوم التاسع من ذى الحجة أنه يذبح إسماعيل (ع). وبعد أن أفاق من نومه اعترته حالة من التروى والتفكير، فيما إذا كانت هذه الرؤيا من الله و بمنزلة الأمر السماوى أم لا؟! من هنا يسمى اليوم الثامن ب- «يوم التروية»، وإن كان من المحتمل أن يكون السرّ فى تسميته بيوم التروية أنه فى ذلك اليوم كانوا يخزنون الماء لسقاية الحاج، لكى يسقون الحجيج بالماء فى عرفات والمشعر ومنى؛ وهذا ما أشار إليه الإمام الصادق (ع) فقال: «إن إبراهيم أتاه جبرئيل عند زوال الشمس من يوم التروية فقال: يا إبراهيم! ارتو من الماء لك ولأهلك، و لم يكن بين مكّة و عرفات يومئذ ماء، فسُميت التروية لذلك». (٢)

وتكررت الرؤيا المذكورة لإبراهيم (ع) فى ليلة التاسع من ذى الحجة مرة أخرى. وعليه فقد أصبح لزاماً عليه أن يذبح ابنه إسماعيل (ع). وتحققت هذه المعرفة فى اليوم التاسع وفى أرض عرفات؛ ولهذا السبب سُمى ذلك اليوم بيوم «عرفة» وسميت تلك الأرض ب- «عرفات». (٣)

١- الكافى ٢٠٧: ٤.

٢- المصدر السابق.

٣- الدر المنثور ١١١: ٧.

الفصل الثاني عشر المشعر الحرام

يقع المشعر الحرام ومنى ضمن حدود الحرم في الحد الفاصل بين مكة و عرفات. و يفيض الجميع من عرفات باتجاه المشعر الحرام بعد غروب الشمس في اليوم التاسع من ذى الحجة في نهاية نصف يوم من الوقوف في عرفات ويمضون الليل هناك. ويسمى المشعر ب- «المزدلفه» و «جمع» أيضاً، وطبقاً لما ذكره الإمام الصادق (ع) فإن السر في تسمية تلك البقعة ب- «المزدلفه» يعود إلى أن جبرئيل (ع) في استمراره بتعليم المناسك لإبراهيم (ع) قال له: «يا إبراهيم! إزدلف إلى المشعر الحرام» (١)؛ كما قال (ع): «وسميت هذه البقعة ب- «جمع» ذلك أن آدم (ع) جمع بين صلاة المغرب والعشاء فيها، وصلى المغرب والعشاء فيها، وصلى كلاهما في وقت واحد». (٢)

وعلى طول القرون الماضية يتوجه آلاف الزائرين إلى تلك البقعة، و كل زائر يأخذ على الأقل تسعاً وأربعين حصاة من ذلك المكان لرمى الجمرات؛ من هنا كان من آيات الله البينات في أرض المشعر أن المنطقه على الرغم من أنها ليست مكاناً لحدوث الفيضانات و عبور السيول لكي يظهر بواسطتها الحصى الناعم، لكن مع ذلك توفر كل ذلك الحصى الناعم دائماً، ولم ينفد لحد الآن.

١- بحار الأنوار ٢٦٦: ٩٦.

٢- المصدر السابق.

ص: ١٥٩

الفصل الثالث عشر منى

مع شروق شمس اليوم العاشر من ذى الحجة، يرد الحجيج إلى منطقة «منى» لأداء بعض المناسك الخاصة. و حدود منطقة منى تمتد من «العقبة» إلى «وادي محسر».

وحول مصدر تسمية هذه المنطقة باسم منى قال الإمام الصادق (ع): «إن جبرئيل (ع) أتى إبراهيم (ع) فقال: تمنّ يا إبراهيم!» (١)، و قال الإمام على بن موسى الرضا (ع): «كانت أمنيّة إبراهيم (ع) والتي أعطاه الله إياها ابتداءً بأن يأمره الله سبحانه و تعالى بذبح كبشٍ بدلاً عن إسماعيل (ع)». (٢)

وطبقاً لما نقله الطريحي / فإنّ منشأ تسمية منى بهذا الاسم، يعود إلى أنّ الدماء تمنى و تراق في هذه البقعة؛ وكذلك فإنّ جبرئيل (ع) عند مفارقتة لآدم (ع) قال له: تمنّ شيئاً، فقال آدم (ع): أتمنّى الجنة. (٣)

وتقع أماكن الجمرات الثلاث، ومكان التضحية ومسجد الخيف، في منى، و استناداً إلى بعض الروايات فإن سبعمائة نبي صلّى في هذا المسجد (٤)، ويقع في مكان مرتفع

١- بحار الأنوار ٢٧١: ٩٦-٢٧٢.

٢- المصدر السابق.

٣- مجمع البحرين ٢١٤: ٣.

٤- الكافي ٢١٤: ٤.

ص: ١٦٠

نسبياً، ولهذا السبب سمي بـ «الخيف» طبقاً لما جاء في قول الإمام الصادق (ع)؛ حيث إنّ الأرض المرتفعة نسبياً عن الأراضي المحيطة بها، تسمى خيفاً. (١)

يقول الفخر الرازي عن آيات الله سبحانه و تعالى في أرض مكة وبخاصة في منى: في كل عام يقوم ستمائة ألف شخص (في ذلك الوقت) برمي سبعين حصية في الجمرات، ولكن من كرامات هذه الأرض أنه لا يمضى وقت طويل حتى يعود التقاط الحصيات منها بعد أن تكون قد خلت منها (٢)، ولكن في السنوات الأخيرة يقوم موظفوا الدولة بتنظيف أطراف الجمرات وتسويتها، بينما لم يكن الأمر كذلك آنذاك.

ويوجد في منى مسجدٌ يعرف باسم مسجد الكبش؛ والسرّ في تسميته بالكبش أنّ كبش الأضحية وفداء إسماعيل (ع) قد ذبح في ذلك المكان. (٣)

وكان إلى جانب هذا المسجد صخرةٌ ذبح عليها الفداء المذكور (٤)، ونقل عن أمير المؤمنين الإمام على (ع) أنّ ذبح الفداء كان بين الجمرّة الأولى و الجمرّة الوسطى على سفح الجبل المقابل، أي «جبل ثبير»، وليس في المكان السابق؛ وما يؤيد هذا النقل، روايه عن ابن عباس أنّه قال: ضحّى الرسول الأكرم (ص) في الموضع الذي ضحّى فيه إبراهيم (ع) فاتخذوه موضعاً للذبح، وكلّ أرض منى هي موضعٌ للذبح؛ وكان موضع ذبح أضحية الرسول الأكرم (ص) بين الجمرّة الأولى والوسطى. (٥)

١- بحار الأنوار ٢٧١: ٩٦- ٢٧٢.

٢- التفسير الكبير ١٥٩: ٨.

٣- مرآة الحرمين ٣٢٦: ١.

٤- المصدر السابق.

٥- المصدر السابق.

ص: ١٦١

القسم الثالث مناسك الحجّ

الفصل الأول سرّ العبادة

العبادة، غاية الخلق لا الخالق

ص: ١٦٢

الله سبحانه وتعالى حكيم، لهذا كان لأفعاله أهداف (١)؛ نعم، إنّه تبارك وتعالى منزّه عن الهدف أيضاً بسبب غناه الذاتى، إلّا أنّ العالم نفسه له هدفٌ وجوديٌّ يناله ويبلغه؛ والهدف الأسمى والكمال النهائى للمخلوق يكمن فى صيرورته عبداً لله (٢). (٣) ومن الواضح أنّ الله تعالى ليس محتاجاً حتّى يُعبد: (٣)؛ فالعبادة- بظاهرها وباطنها- غايةٌ للمخلوق، وليست غايةً للخالق الغنى المحض.

«الحجّ» مثل سائر العبادات، غايةٌ للخلق، لا للخالق، لأنّه عين الغنى ومحض الكمال، وبذلك يظهر سرّ الكلام الإلهى واضحاً حيث يقول: (٤)، لأنّ الحجّ

١- المؤمنون: ١١٥.

٢- الذاريات: ٥٦.

٣- إبراهيم: ٨.

٤- آل عمران: ٩٧.

ص: ١٦٣

عبادة فرضت من الله تعالى على عبّاده، وهم الذين يحتاجون لإقامة الحج والعمرة، فإذا كفروا- والحال هذه- فعليهم أن يعلموا أن الله غير محتاج للعالمين، فكيف يحتاج للخلق من الناس وعباداتهم!؟

العبادة، وسيلة الشهود الوحيّة

هدف الإنس والجنّ في نظام التشريع هو تكاملهم العبادي، وإذا ما فتق الإنسان صاحب الروح العقلية المجرد، روحه، فإنه سوف يصبح هدفاً للكثير من المخلوقات التي تقع دونه، وإن كان الهدف النهائي هو الله سبحانه وتعالى.

إنّ هدف خلق العالم هو اطلاع الإنسان على علم الله وقدرته العظيمين (١)، والعلم الحصولي واليقين الاستدلالي وإن كانا كمالاً علمياً وهدفاً مقصوداً إلا أنّهما يعدّان وسيلةً- فقط- مقارنةً بالعلم الحضورى واليقين الشهودى (**)(٢)، أى أنّه يمكن الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

بناءً عليه، يمكن اعتبار اليقين الشهودى بالمعارف هدفاً نهائياً للخلق، وهذا اليقين الشهودى يعتمد دائماً على العبادة التي هي الوسيلة الوحيدة لشهود السالك وظهور الغيب (٣)؛ وهذا ما يعنى إمكانية الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

١- الطلاق: ١٢.

٢- التكاثر: ٥-٧.

٣- الحجر: ٩٩.

ص: ١٦٤

نعم، شكل الاعتماد على العبادة يتناسب في كلّ نشأة مع تلك النشأة، ففي الدُّنيا تعتمد على العبادات التشريعية، وفي الآخرة تقوم على باطن تلك العبادات.

إنّ العبادة وإن كانت- بالمعنى الذى ذكرناه- غاية الخلق، إلّا أنّها فى نفسها مقدّمة لليقين، واليقين هو الغاية (١)، والحجّ أيضاً يمثّل إعداداً لهذا الهدف الرفيع للعبادة، أى اليقين؛ لأنّه نورٌ وبصيرةٌ وشهود، من هنا جاء فى الروايات أنّ تارك الحجّ يحشر أعمى، وأنّه أعمى فى الدُّنيا وفى الآخرة كذلك وأضلّ. (١)

ويُستنتج من الآية الشريفة: (٢)، أنّ هدف ظهور العالم، أى ظهور الحقّ فى مرآة الخلق، هو اطلاع الإنسان السالك على علم الحقّ وقدرته، وهذا العلم الشهودى يجعل العارف الواصل مظهرًا للعليم القدير، بحيث إذا أذن الله تعالى، يمكنه بسم الله الرحمن الرحيم أن يفعل ما كان يتحقّق فى الآخرة بصرف الإرادة... أن يفعله فى الدُّنيا كذلك، وكلّ ما يريد أن يعلمه فإنّه يشاهده.

كشف سبيل سرّ العبادة

إنّ ما يقع داخل إطار عمل الجوارح أو على مستوى خواطر الجوانح، يكون من أحكام العبادات أو من آدابها، وليس أىّ منهما سرّاً للعبادة، فقط ما يقع فى مدار شهود العقل النظرى وانبعث العقل العملى.. هو ما يمكن عدّه سرّاً للعبادة.

١- انظر وسائل الشيعة ١٧: ٨- ١٩.

٢- الطلاق: ١٢.

ص: ١٦٥

وكما تجب مراعاة قوانين الفقه الأصغر، دون أن تكفى فى نيل أسرار العبادات، فإنّ مراعاة الفقه الأوسط، أى فنّ الأخلاق الشريف، يظلّ لازماً أيضاً، لكنّه أيضاً لا-يكفى، بل المطلوب احترام إرشادات الفقه الأكبر، عنيت العرفان النظرى والعملى، حيث يُتمكّن من العثور على السبيل لمصدر نزول العبادّة عبر الضمير الشاهد والسرّ الطاهر، ليتمّ عبر ذلك إنجاز الأمر من خلال السبيل الإدراكية والتحريكية للمعبود، كما يشير إلى زاوية من ذلك حديثُ قرب النوافل (١)؛ وهناك لا يكتفى السالك الواصل ببلوغ سرّ العبادّة، بل يصبح بنفسه فى موقع سرّ المعبود، ومخزن علمه: «هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه».

(٢)

حقيقة الإنسان الكامل سرّ العبادات كافة

ثمّة علامات لبلوغ سرّ العبادات، وتوضيح ذلك أنّ ما من الشروط الطولية لصحّة العبادات- لا الشرط العرضى- يحسب من أسرارها، فمثلاً الطهارة شرط صحّة الصلاة، إلّا أنّ هذا النوع من الاشتراط وإن اشتمل تقدماً رتبياً، إلّا أنّه على مستوى معرفة السرّ يقع فى عرض العبادات المشروطة والموقوفة، لا فى طولها؛ لأنّ الشرط الطولى لقبول الطهارة والصلاة هو الورع والتقوى، قال تعالى: (٣). إنّ قبول التقوى رهن بولاية الإنسان الكامل؛ لأنّ أىّ عبادة- بل تقوى- ليست مقبولةً دون تولّى المعصومين؛ حتّى أنّ القبول بولايتهم دون الاعتقاد بولايتهم

١- بحار الأنوار ٢٢: ٦٧: «ما تحبب إليّ عبدى بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتحبب إليّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، إذا دعانى أحببته وإذا سألتنى أعطيته...».

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ٢، الفقرة: ١٠-١١.

٣- المائدة: ٢٧.

ص: ١٦٦

التكوينية التي هي سرّ كونهم ولاءً، هو الآخر غير مقبول (١)؛ لأنّ القبول بولايتهم وإدارتهم - كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ و... - من فروع الدين (٢)، ولكلّ فرع أصل، يعدّ سرّاً لهذا الفرع، من هنا يُعلم أنّ حقيقة الإنسان الكامل هي سرّ العبادّة، وكلّ سالك ينال سرّ العبادّة بمقدار بلوغه من الكمال الإنساني، وأكمل البشر هم المعصومون: الواصلون للسرّ النهائي للعبادّة؛ لهذا كانوا الصراط المستقيم (٣)، وميزان الأعمال. (٤)

وبغية الوصول إلى هذا الهدف السامي، لا مجال سوى بإعمال العقل واليقظة والوعى فى مراقبة حرم القلب الآمن؛ فالحكمة لا تحصل دون تدبّر وتعمّق، وصيرورة الإنسان أهل رأى ونظر لا تحصل دون حمل السرّ وطهارة الضمير وصيانة الذات: «الظفر بالحزم، والحزم بإجاله الرأى، والرأى بتحسين الأسرار». (٥)

١- انظر: وسائل الشيعة ٩٠: ١-٩٦.

٢- انظر: وسائل الشيعة: ٧-١٩.

٣- راجع: الكافي ٤١٦: ١.

٤- انظر: المصدر السابق: ٤١٩، ٤٣٣.

٥- نهج البلاغة، الحكمة: ٤٨.

ص: ١٦٧

الفصل الثاني سرّ الحج وثمراته

الصورة الباطنية للحجّ

لكلّ عبادة بطنٌ وسرٌّ، وذلك:

أولاً: إنّ العبادات امور تحدّث عنها الله سبحانه في كتابه.

ثانياً: لكتاب الله ظاهر وباطن: «... إنّ لكتاب الله ظاهراً وباطناً» (١)، وهذا معناه أنّ كلّ ما جاء في القرآن - ومنه الحجّ - له ظاهر يعرفه الناس، وباطن لا يراه إلّا الشهوديون والعرفاء، ولا يناله غيرهم.

بعبارة اخرى: كلّ ما أثنى عليه الوحي الإلهي فله ظاهر يتواصل معه الناس بجسدهم وقوالبهم، وباطن يتّصل به الإنسان بالقلب ويناله به. وتنزل العبادات - ومن بينها الحجّ - حالها حال سائر موجودات العالم الاخرى ... من خزائن الغيب الإلهي: (٢)، إنّها كغيرها من الموجودات تنزل إلى واقعيّات متّكئة على مخازن الغيب، وعليه فمن يعرف هذه الامور العبادية ويعمل بها يصل إلى اصولها وجذورها في مخزن الغيب.

١- بحار الأنوار ٩٠: ٨٩.

٢- الحجر: ٢١.

ص: ١٦٨

وهناك روايات واردة في الصور الباطنية للأعمال العبادية، وهي تنظر إلى هذه النقطة التي أشرنا إليها، حيث يتعرّف الإنسان في البرزخ الصعودي أو النزولي على تلك الواقعيّات، وطبعاً عدد قليل من الناس يعرفون هذه الحقائق قبل تنزّل الأعمال لهذا العالم (في البرزخ النزولي)، تماماً كما يعرف سائر الناس بعد الموت (في البرزخ الصعودي) حقيقة الصلاة والحجّ والزكاة ويفهمونها، ويرون صورها الملكوتية.

وكما يقول الحديث: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستّة صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ، عن يمينه، واخرى عن يساره، واخرى بين يديه، واخرى خلفه، واخرى عند رجله، وتقف التي هي أحسنهنّ فوق رأسه؛ فإن أتى عن يمينه منعتة التي عن يمينه، ثمّ كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الستّ، فتقول أحسنهنّ صورة: ومن أنتم جزاكم الله عني خيراً؟ فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التي بين يديه: أنا الصيام. وتقول التي خلفه: أنا الحجّ والعمرة. وتقول التي عند رجله: أنا برّ من وصلت من إخوانك. ثمّ يقلن: من أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً، وأبهانا هيئة. فتقول: أنا الولاية لآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين». (١)

تدلّ هذه الرواية على أنّ للحجّ صورةً باطنيةً تظهر في صورة ملكوتية عندما ينتقل الجميع من عالم الملك إلى عالم الملكوت، ويسافرون ويهاجرون حيث تتبدّل الدنيا إلى آخره.

ولأماكن الحرم - مكاناً مكاناً - وكذلك لمناسك الحجّ والعمرة، أسرار ورموز، لا تنكشف إلّا لزائرين خاصين يشاهدون صاحب البيت في المجالى والمظهرات المختلفة، وينالون اللقاء بربّ البيت وشهود الآيات الآفاقية والأنفسية له، ويمثلون الحجّ الإبراهيمي والاعتماد الأصيل الحسيني (ع).

ص: ١٦٩

ويوضح الإمام الصادق (ع) بعض أسرار الحجّ، والتي تشكّل الوجهة الباطنية له، فيقول:

«... ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصّدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم عن كلّ شيء يمنعك من ذكر الله ويحببك عن طاعته، ولبّ بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عزّ وجلّ في دعوتك، متمسكاً بالعروة الوثقى؛ وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهول هرباً من هواك وتبرّياً من جميع حولك وقوّتك. واخرج عن غفلتك وزلاتك بخروجك من منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه؛ واعترف بالخطايا بعرفات؛ وجدّد عهدك عند الله بوحدانيته، وتقرب إلى الله واتّقه بمزدلفة؛ واصعد بروحك إلى الملاء الأعلى بصعودك إلى الجبل؛ واذبح حنجره الهواء والطمع عند الذبيحة؛ وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات؛ واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك؛ وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعه مرادك بدخولك الحرم؛ وزرّ البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه؛ واستلم الحجر رضاءً بقسمته وخضوعاً لعزّته؛ وودّع ما سواه بطواف الوداع؛ وأصف روحك وسرّك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفا. وكُن ذا مروّة من الله نقيّاً أو صافك عند المروّة ...

واعلم بأنّ الله تعالى لم يفترض الحجّ ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله عزّ وجلّ: (١)، ولا شرع نبيه (ص) سنّة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلّا للاستعداد والإشارة إلى

ص: ١٧٠

الموت والقبر والبعث والقيامة...» (١).

سِرِّ الحَجِّ فِي السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ

كما كان الحَجُّ لله ووجوبه منه: (٢)، كذلك لا بد أن يكون امتثاله والقيام به لله أيضاً؛ فإذا أراد شخص الحَجَّ بقصد السياحة والتجارة وأمثال ذلك فإنَّ حَجَّه هذا ليس له أى سِرٌّ من حيث إنَّه ليس سيرا إلى الله تعالى، فإنَّ أهمَّ أسرار الحَجِّ هو السير إلى الله سبحانه، تماماً كما طبقت بعض الروايات الآية الكريمة: (٣) على الحَجِّ. (٤)

إنَّ سفر الحَجِّ فرار من غير الله إلى الله سبحانه، وحيث الله في كلِّ مكان (٥)، فليس معنى «السير إلى الله» هو السير المكانى أو الزمانى، بل الفرار إلى الله معناه ترك الإنسان ما سوى الله وطلبه لله سبحانه، فإذا سافر إنسان إلى الحَجِّ بقصد التجارة أو الشهرة أو ما شابه ذلك، فقد حَقَّق «الفرار من الله» لا «الفرار إلى الله».

إنَّ مسيرة إقامة الحَجِّ التى تكمن فى الانقطاع عمَّا سوى الله والهجرة إليه سبحانه، كى يُنال لقاءه ... كلِّها «إلى الله» و «فى الله» و «مع الله» و «الله»، من هنا جاء فى بعض أدعية الحَجِّ وأمثاله: «بسم الله وبالله وفى سبيل الله وعلى ملَّة رسول الله». (٦)

زاد سفر الحَجِّ

١- بحار الأنوار ١٢٤: ٩٦-١٢٥.

٢- آل عمران: ٩٧.

٣- الذاريات: ٥٠.

٤- وسائل الشيعة ٥: ٨.

٥- البقرة: ١١٥، الزخرف: ٨٤، الحديد: ٤.

٦- بحار الأنوار ١٢٠: ٩٦.

ص: ١٧١

لم يرد تعبير «الزاد» في القرآن الكريم سوى في الآية الشريفة: (١)، حيث يشتمل صدرها- بل وما قبلها وما بعدها من آيات- على بيان بعض أحكام الحجّ؛ وسرّ المطلب وجود سفر في الحجّ: (٢) وحيث كانت هناك حاجة في السفر للزاد والمؤونة، لذا ذكر الله سبحانه بذاك السفر الأصلي والأصيل الذي هو الآخرة، فأمر بالتقوى.

إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: (٣):

أَوَّلًا: يرشد إلى الطريق، وبدلالته على تعيين الزاد، وهو التقوى، يبيّن أنّ المراد هنا هو السلوك إلى الله تعالى، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى، كما أنّه أهل الجود والجبروت.

ثانيًا: يحذّر الناس بأنّهم جميعاً مسافرون؛ لأنّ التزوّد علامة أنّ الإنسان مسافر.

ثالثًا: يُعَلِّمُ بأنّ المسافر من دون زاد لا يمكنه الحركة ولا التقدّم.

رابعًا: يرشد الجميع إلى أنّ أفضل الزاد هو التقوى.

خامسًا: يبيّن أنّ الحجّ من أبرز مصاديق التقوى.

سادسًا: يذكّر بأنّ أفضل نوع من أنواع التقوى هو التقوى الإلهية، فَاتَّقُونِ، فَإِنَّ زَادَ السَّالِكِينَ الَّذِينَ يَنْشَأُ وَرَعَهُمْ وَتَقْوَاهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ أَوْ الشُّوقِ إِلَى الْجَنَّةِ، يَنْتَهَى فِي وَسْطِ الطَّرِيقِ، وَلَا يَصِلُونَ إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ فِي سَفَرِ الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّ هَدْفَهُمْ كَانَ الْفِرَارَ مِنْ جَهَنَّمَ أَوْ الْوَصُولَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَقِفُونَ فِي حَرَكَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا زَادَ مَعَهُمْ لِغَيْرِهَا.

١- البقرة: ١٩٧.

٢- الحجّ: ٢٧.

ص: ١٧٢

أما تقوى الأحرار التي لا تنشأ من خوف النار ولا طمع الجنة، وإنما من محبة الله سبحانه، فإنها تستمر بهم إلى لقاء الله، فيصلون إليه، لما عندهم من الزاد، فالتقوى التي تنال الله تعالى ليست صفة منفصلة عن روح المتقى وذاته، فصاحبها متق يحظى بقاء الله. إن سفر الحج للزائر الذي وصل للمقصد وعثر على مقصوده في ذلك المقصد ثم رجع، هو سفر «من الحق إلى الخلق بالحق»، وهذا المسافر لديه سفر نفسى إلى جانب السفر الأفقى والآفاقى، وهو يدرك أن الله تعالى معه: (١)، إن مثل هذا الزائر يرجع إلى دياره ومعه مضيفه نفسه (٢)، بنورانية تجعله كأنه ولد من أمه من جديد «من أم هذا البيت حاجاً أو معتمراً مبرئاً من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته أمه» (٣)، والناس مكلفون بزيارة مثل هذا القادم من سفر الحج قبل أن يتلوث حجه بأى معصية أو ذنب، فينالون بذلك من النور الإلهي لحجته. (٤)

تزكية الروح في ضوء معرفة الأسرار

يقع قسم مهم من تزكية النفوس في ضوء معرفة أسرار العبادات والأحكام الدينية، إن تعليم الكتاب والحكمة الوارد في الآية الشريفة: (٥)، مفهوم يستوعب العقائد والأخلاق والأعمال العبادية، كما يستوعب أيضاً القضايا الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، وما شابهها، من هنا

١- الحديد: ٤.

٢- ورد تعبير «الضيف» فى حق زوار بيت الله الحرام فى عدد من الروايات، منها: «ثلاثة نفر من خالصة الله عز وجل يوم القيامة ... والحاج والمعتمر؛ فهما وفد الله، وحق على الله أن يكرم وفده» وسائل الشيعة ٨٤: ٣؛ و «إن ضيف الله عز وجل رجل حج واعتمر فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله ...» وسائل الشيعة ٤٥٨: ١٠.

٣- وسائل الشيعة ٦٤: ٨.

٤- المصدر السابق: ٣٢٧.

٥- البقرة: ١٢٩.

ص: ١٧٣

فالتزيك المذكورة فى هذه الآيه أتت أيضاً لبيان باطن هذه الامور كافه، وكما أن تزيك أى عمل تكون بنيل أسرار ذلك العمل، فإنّ أى عمل له سرّ، يكون الاهتمام به أساساً لتزيك الروح.

والحجّ، مثله مثل سائر العبادات والآداب والسنن والفرائض، جاء لتهديب النفس، فمحرمات الحجّ جاءت لتطهير القوى النفسانية التى تتورط أحياناً بالمعاصى والمهلكات، كما أشارت الآيه الشريفه: (١)، إلى ثلاثه محرمات فى الحجّ، يتعلّق كلّ واحد منها بتطهير قوه من القوى الإنسانيّه، ف- (لارفت) تنظر إلى تطهير القوه الشهوانيّه، و (لافسوق) لتطهير القوه الغضبيّه، و (لاجدال) لتهديب القوى الفكرية.

وبطهاره هذه القوى الثلاث تطهر جملة أعمال الإنسان؛ لأنّ أى عمل يصدر من الإنسان يرجع بالتحليل الدقيق إلى هذه القوى الثلاث، وتفصيل هذا البحث موكول إلى علم الأخلاق.

والجدير بالذكر أنّ أى عمل إنّما يصدر من مصدر خاصّ ويحكى عن خصوصياته، فالصدر المشروح يصدر عنه عمل خالص ومشروح، غير مبتلى بنقص ولا ملوث بعيب؛ وعلى هذا الأساس فإنّ زائر بيت الله الحرام، يغدو حجّه خالصاً وخلوصاً ومشروحاً أكثر بتبع درجه معرفته بأسرار الحجّ نفسه؛ لأنّ الخلوص الذى هو معيار الاستفادة من الثواب، وشأن من شؤون العقل العملى، مسبوّق بالمعرفة؛ والمعرفة من شؤون العقل النظرى، فعلى السالك- فى البدايه- أن يفهم المراحل العبادية ويعيها، حتّى يكون لديه فى مقابل فهمه ومعرفته إقدام خالص على الفعل.

إذن، فبدون التعرّف على أسرار الأعمال لن يتيسّر طى مراحل الإخلاص كامله،

ص: ١٧٤

وهذا الأمر صادق في حقّ التعرّف على أسرار سائر العبادات أيضاً.

وعليه، فعندما يشرع شخص - قبل التعرّف على أسرار الحجّ - بالسفر إلى بيت الله، فحجّه وإن كان يمكن أن يكون صحيحاً بحسب الظاهر، إلّا أنّه بذلك لم يحقق الحجّ الكامل والمقبول، ولم تكن الضيافة من نصيبه؛ لأنّ روح إقامة الحجّ لم تتعالى عنده بسبب عدم اطلاعه على أسرار هذه الفريضة.

ولمزيد من التعرّف على أسرار الحجّ، لابدّ من الرجوع إلى عادات وسيرة الحجاج الصالحين الحقيقيين؛ أعني المعصومين؛ لوضع حجّهم تحت مجهر المطالعة الدقيقة والتأسي بهم في ذلك؛ لأنّ هؤلاء كانوا يراعون - مع الآداب والسنن والفرائض والأعمال الظاهرية للحجّ - العناصر التكوينية التي تقوم عليها هذه الأعمال.

ويظلّ استذكار هذا الأمر مفيداً، وهو أنّ سرّ الكثير من العبادات غير مخفّ ولا مستور عن القائمين بها، إلّا أنّ فهم أسرار مناسك الحجّ يبقى أمراً عسيراً وشاقاً، فالكثير من أسرار الحجّ يصعب شرحها بالعقل البشري أو لا يتيسر ذلك أساساً؛ من هنا احتوت مناسك الحجّ عبوديّة محضّة وتامّة، منسجمة مع التعبّد الشديد الزائد عن أمثاله في سائر الأحكام الدينيّة، تماماً كما قال رسول الله (ص) عند التلبية: «لبيك بحجّة حقّاً تعبدّاً ورقّاً». (١)

التناغم بين سيرة الحاج وسرّ الحجّ

عدّ الله سبحانه الحجّ والمعتمرين من شعائره؛ فقال: (٢) (١)، فالحجّ عندما يعزم على زيارة البيت يغدو

١- المحجّة البيضاء ١٩٧: ٢، وقد أسندت هذه الجملة في بعض النصوص إلى أنس بن مالك.

٢- المائدة: ٢.

ص: ١٧٥

جزءاً من الشعائر الإلهية.

نعم، من الواضح أنّ الذي يقصد من سفر الحجّ والعمرة، السياحة والتجارة والشهرة وما شابه ذلك، لا يكون ضمن الحرمات الإلهية. إنّ الزوّار المدعويين من جانب الحقّ سبحانه واللائقين بالتكريم الإلهي هم الواجدون للشروط والأوصاف الخاصية، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الأوصاف تارةً بنحو العموم، واخرى بذكر مصاديقها.

أمّا الشرائط العامة فقد ذكرها في العهد الذي عهده إلى بنى الكعبة ومساعدته - أي إبراهيم وإسماعيل (ع) - حين قال: (١). (٢) وطبقاً للآية الشريفة: (٣)، فإنّ مصداق «الرّكع السجود» الذين أمر الخليل والذبيح (ع) بتطهير البيت لضيافتهم، هم الامة الحقيقية لرسول الله (ص)، الذين يملكون - إلى جانب الصلاة والركوع والسجود - الصلابة الإبراهيمية ضدّ التمرديين ورؤوس الكفر والنفاق والطغيان، كما لديهم رافة خليل الرحمن بالمسلمين المحرومين في أنحاء العالم الإسلامي.

بناءً عليه، فمن كان ملوثاً بالفكر الباطل أو العمل الطالح لن يكون ضيفاً للبيت الطاهر، فليس الساعي وراء الامتيازات والمقامات والمناصب ضيفاً للبيت المساواة والمواساة، وليس عبد الهوى أو عبد المستكبرين والملحدّين ضيفاً للبيت العتيق الحرّ، بيت الحرية والأحرار، وليس من لديه مئات الأصنام بضيفٍ على بيت التوحيد، ومن

١- البقرة: ١٢٥.

٢- الفتح: ٢٩.

ص: ١٧٦

وجهه للخلف وأدار ظهره للقبلة مصلياً صلواته لا يكون ضيفاً على قبلة المسلمين، ومن وضع مكان التبري من الشرك والنفاق والكفر، الولاية لرموز الإلحاد كيف يكون ضيفاً على مطاف العاكفين؟! فليس من يخضع للاستعمار بضيف على بيت الراكعين والساجدين، ليس كل حاج بعارف لأسرار الحج، أو بتمثل للحج الكامل، إنما هم الحافظون للسّر الإلهي ولمخازن العلوم الربانية من يطلع الله على أسرارها ليحفظوها، فهم مطلعون على سرّ الحكم ويصلون لهذا السّر.

السيرة اللا إنسانية لبعض الحجّاج

تصنع العقائد والأخلاق والأعمال والنيات حقيقةً أيّ إنسان، كذلك الحجّ - كما سائر العبادات - يبنى الإنسان، بل يتناغم سرّ الحجّ مع سريرة الإنسان، فيبنى على أساس ذلك، وإذا لم يوفق شخص لبلوغ السّر، فإنّ صورته تكون صورة الإنسان، إلّا أنّ حقيقته وسيرته ستكونان سيرة الحيوان: «فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان». (١)

يقول أبو بصير للإمام الباقر (ع): «ما أكثر الحجيج وأعظم الضجيج! فقال (ع): بل ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج، أتحبّ أن تعلم صدق ما أقوله، وتراه عياناً؟ فمسح يده على عينيه، ودعا بدعوات فعاد بصيراً، فقال: انظر يا أبابصير إلى الحجيج؛ قال: فنظرت فإذا أكثر الناس قردهً وخنازير، والمؤمن بينهم مثل الكوكب اللامع في الظلماء...». (٢)

وفي حديث آخر: قال عليّ بن الحسين (ع) - وهو واقف بعرفات - للزهرى: «كم تقدّر من الناس هاهنا؟» قال: أُقدّر أربعة ألف ألف [ظ أربعة آلاف أو] وخمسمائة

١- نهج البلاغة، الخطبة: ٨٧، الفقرة: ١٢.

٢- بحار الأنوار ٢٦١: ٤٦.

ص: ١٧٧

ألف؛ كلهم حجاج قصدوا الله بأموالهم ويدعونهم بضجيج أصواتهم؛ فقال له: «يا زهرى! ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج»، فقال الزهرى: كلهم حجاج أفهم قليل؟ فقال: «يا زهرى! أدن إلى وجهك»، فأدناه إليه، فمسح بيده وجهه.

ثم قال: «انظر»، فنظر إلى الناس؛ فقال الزهرى: فرأيت أولئك الخلق كلهم قرده لا أرى فيهم إنساناً إلّا فى كل عشرة ألف واحد من الناس؛ ثم قال لى: «ادن يا زهرى»، فدنوت منه فمسح بيده وجهى، ثم قال: «انظر»، فنظرت إلى الناس. قال الزهرى: فرأيت أولئك الخلق كلهم خنازير.

ثم قال لى: «ادن إلى وجهك»، فأدنت منه فمسح بيده وجهى فإذا هم كلهم ديبه (ذئبة) إلّا تلك الخصائص من الناس النفر اليسير. فقلت: بأبى وامى أنت يا ابن رسول الله، قد أدهشتنى آياتك وحيرتنى عجائبك؛ قال: «يا زهرى! ما الحجيج من هؤلاء إلّا النفر اليسير الذين رأيتهم بين هذا الخلق الجمّ الغفير».

ثم قال لى: «امسح يدك على وجهك»، ففعلت فعاد أولئك الخلق فى عيني اناساً كما كانوا أولاً.

ثم قال لى: «من حجّ ووالى موالينا وهجر معادينا ووطن نفسه على طاعتنا ثم حضر هذا الموقف مسلماً إلى الحجر الأسود ما قلده الله من أمانتنا (أماناتنا) ووفياً بما ألزمه من عهدنا، فذلك هو الحاج والباقون هم من قد رأيتهم».

يا زهرى! حدثنى أبى عن جدى رسول الله (ص) أنه قال: ليس الحاج المنافقون المعاندون لمحمد وعلى ومحبيهما الموالون لشانئيهما، وإنما الحاج المؤمن المخلصون الموالون لمحمد وعلى ومحبيهما المعاندون لشانئيهما، إن هؤلاء المؤمن الموالين لنا المعادين لأعدائنا لتسطع أنوارهم فى عرصات القيامة على قدر مواليتهم لنا؛ فمنهم

ص: ١٧٨

من يسطع نوره مسيرة ثلاث مائة ألف سنة وهو جميع مسافة تلك العرصات، ومنهم من تسطع أنواره إلى مسافات بين ذلك يزيد بعضها على بعض على قدر مراتبهم في مولاتنا ومعاداة أعدائنا يعرفهم أهل العرصات من المسلمين والكافرين بأنهم الموالون المتولون المتبرؤون، يُقال لكل واحد منهم: يا وليّ الله! انظر في هذه العرصات إلى كل من أسدى إليك في الدنيا معروفاً أو نفس عنك كُرباً أو أغاثك إذ كنت ملهوفاً أو كفّ عنك عدوّاً أو أحسن إليك في معاملة فأنت شفيعه...» (١).

وطبقاً لحديث آخر عن الإمام السجاد؛ فإنّ الأشخاص الذين يكون ملكوتهم بصورة إنسان هم المتمسّكون بالقرآن والعترة، والمعتقدون بالوحي والرسالة والولاية، وقد أحاط الدين وأمن ظاهرهم وباطنهم؛ من هنا كان ظاهرهم وباطنهم إنسانياً، أمّا الذين كان باطنهم الفصل بين القرآن والعترة، ويقولون بأنّ الرسول اجتهد في تعيين الإمام بعده، فهو في الحقيقة جحود وإنكار للحق، وهو ما يظهر بصورة حيوانية.

وقد أتضح من الرواية المشار إليها دور الاعتراف بولاية الأئمة المعصومين: وكذلك إنكارهم، في بناء سلوك الإنسان وحقيقته. وفي هذا السياق نفسه، يقول سدير الصيرفي: كنت مع الصادق (ع) في عرفات، فرأيت الحجيج وسمعت الضجيج، فتوسّمت وقلت في نفسي: أترى هؤلاء كلّهم على الضلال؟ فناداني الصادق (ع) فقال: «تأمل!» فتأمّلتهم، فإذا هم قرده وخنازير. (٢)

وسرّ هذا الأمر هو ما جاء في الحديث عينه، وهو أنّ الذي يتغافل النصّ الصريح للنبي الأكرم (ص) فيما يخصّ خلافه الأئمة المعصومين: عامداً عالماً، وينكر ذلك، ولا يعتقد بولايتهم، فإنّ حقيقته ليست إنسانية.

١- المصدر السابق ٢٥٨: ٩٦.

٢- المناقب ٢٣٤: ٤ - ٢٣٥.

ص: ١٧٩

ونتيجة الكلام أنه وإن كان من الممكن أن يكون كل الحاضرين في مراسم الحج زوّاراً لبيت الله الحرام في إحصاء ظاهري، إلّا أنّ الكثير منهم لا يحسبون إنساناً من حيث الإحصاء الباطني والحقيقي لهم، على مستوى أسرار الحجّ. إنّ هذا المشهد الذي رأيناه وإن حصل أن وقع في عرفات، إلّا أنّه يمكن تحقّقه أيضاً في الصفوف الطويلة لصلوات الجماعة التي قد يبلغ العدد فيها أحياناً مبلغاً كبيراً، بحيث لا نجد سوى القليل من المقيمين الحقيقيين للصلاة. والجدير ذكره هنا، أنّ هذا البحث وإن ورد في باب الحجّ؛ إلّا أنّ مرجعه إلى سرّ الولاية، لا سرّ الحجّ، اللهمّ إلّا إذا قيل: حيث كانت الولاية مُرخيةً بظلالها على جميع الأعمال والعبادات، لذا فإنّ حقيقتها سوف تظهر تحت عنوان سرّ الأعمال والعبادات، فمن لا يقبل بسرّ الولاية فقد فقد إنسانيته ولو أدّى الصلاة، والصوم، والزكاة، والحجّ، انطلاقاً من فقدان أعماله السرّ والحقيقة؛ لأنّ سرّ العبادة هو ما يبني الإنسان وينشؤه ويربّيه، ومن لم يبلغ هذا السرّ فلن تكون سريره إنسانيّة.

الفصل الثالث الإحرام

إشارة

الحرم هو الأمن الإلهي وهو أرض الحج، ميزة لا يشاركه فيها شيء، ليس فقط في موسم الحج، وإنما على امتداد العام، حيث لا يمكن الدخول إليه إلا مع الإحرام. كذلك الحال في عدم حق غير المسلم في دخول منطقة التوحيد ومهبط الوحي؛ لأن إحرامه غير صحيح، ودخول غير المحرم إلى الحرم ممنوع.

وقد حدّدت لكل من يريد الدخول إلى الحرم مواقيت للإحرام؛ يقصد بذلك حفظ حرمة الحرم الذي وجد بالمسجد الحرام والكعبة المشرفة؛ فالإحرام من الميقات للدخول إلى الحرم مثل صلاة تحية المسجد التي وضعت لحفظ كرامة المسجد، مع فارق وهو أن تحية المسجد مستحبة، فيما الإحرام لدخول الحرم واجب، ويجب على الحاج عند الإحرام أن يقصد أن يحرم على نفسه ما حرّمه الله عليه.

(١)

١- مستدرک الوسائل ١٦٦: ١٠. وقد أورد هذا الكتاب- لا سيما في قسم الحج- وفي مواضع متعدّدة، الرواية المعروفة برواية الشبلي، وحيث احتوت هذه الرواية على أسرار ولطائف كثيرة حول الحج؛ لذا نقل نصّها الكامل هنا؛ لكن قبل ذلك يجدر الالتفات إلى بعض النقاط:

أولاً: هناك أشخاص متعدّدون معروفون بلقب «الشبلي»، وأقرب شخص منهم إلى عصر الأئمة: هو أبو بكر دُلف بن جحدر، المولود بعد شهادة الإمام السّجاد ٧ بحوالي قرنين، وهذا معناه أنه لا يمكن للملقين ب- «الشبلي» أن يرووا بشكل مباشر عن الإمام السّجاد ٧، وهذا الحديث لا يشبه وزنه وطريقة البيان فيه ما هو المأثور عن الأئمة المعصومين؛ من هنا قيل: إنّه من الممكن أن تكون هذه الرواية من كلمات بعض العرفاء، نُسبت شيئاً فشيئاً إلى الإمام السّجاد ٧.

لكن مثل هذه الروايات المنسجمة مع سائر المعارف أو غير المخالفة لها، لا يشكّل النقص في السند فيها مانعاً عن الاستفادة من متنها الرفيع والنوراني.

ثانياً: لا يتساوى الترتيب الموجود في هذه الرواية لمناسك الحج مع ترتيبها المعروف في الفقه، ولعلّه يمكن القول: مبرّر ذلك أنّ الإمام السّجاد ٧ لم يكن في هذا الحديث بصدد بيان أحكام مناسك الحج والتكاليف الظاهرية للحجاج.

أمّا متن الرواية فهو على الشكل التالي:

العالم الجليل الأواه السيد عبد الله سبط المحدّث الجزائري في شرح النخبة قال: وجدت في عدّة مواضع أوثقها بخطّ بعض المشايخ الذين عاصرناهم مرسلًا، أنّه لما رجع مولانا زين العابدين ٧ من الحجّ استقبله الشبلي، فقال له: حججت يا شبلي؟ قال: نعم يا ابن رسول الله؛ فقال ٧: أنزلت الميقات وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟ قال: نعم. قال: فحين نزلت الميقات نويت أنّك خلعت ثوب المعصية ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا؛ قال: فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك نويت أنّك تجرّدت من الرّياء والنفاق والدخول في الشبهات؟ قال: لا. قال: فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قال: لا؛ قال: فما نزلت الميقات ولا تجرّدت عن مخيط الثياب ولا اغتسلت.

ثمّ قال: تنظّفت وأحرمت وعقدت بالحجّ؟ قال: نعم؛ قال: فحين تنظّفت وأحرمت وعقدت الحجّ نويت أنّك تنظّفت بنورة التوبة

الخالصة لله تعالى؟ قال: لا؛ قال: فحين أحرمت نويت أنك حرمت على نفسك كل محرم حرّمه الله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فحين عقدت الحجّ نويت أنك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟ قال: لا؛ قال ٧ له: ما تنظّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحجّ.

قال له: أدخلت الميقات وصلّيت ركعتي الإحرام ولّيت؟ قال: نعم؛ قال: فحين دخلت الميقات نويت أنك بيّته الزيارة؟ قال: لا؛ قال: فحين صلّيت الركعتين نويت أنك تقوّبت إلى الله بخير الأعمال من الصلاة وأكبر حسنات العباد؟ قال: لا؛ قال: فحين لّيت نويت أنك نطقت لله سبحانه بكلّ طاعه وصمت عن كلّ معصية؟ قال: لا؛ قال ٧ له: ما دخلت الميقات ولا صلّيت ولا لّيت.

ثمّ قال له: أدخلت الحرم ورأيت الكعبة وصلّيت؟ قال: نعم؛ قال: فحين دخلت الحرم نويت أنك حرمت على نفسك كلّ غيبة تستغيها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا؛ قال: فحين وصلت مكّة نويت بقلبك أنك قصدت الله؟ قال: لا؛ قال ٧: فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صلّيت.

ثمّ قال: طفّ بالبيت ومسست الأركان وسعيت؟ قال: نعم؛ قال ٧: فحين سعيت نويت أنك هربت إلى الله وعرف منك ذلك علّام الغيوب؟ قال: لا؛ قال: فما طفّ بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.

ثمّ قال له: صافحت الحجر ووقفت بمقام إبراهيم ٧ وصلّيت به ركعتين؟ قال: نعم؛ فصاح ٧ صيحةً كاد يفارق الدنيا، ثمّ قال: آه آه؛ ثمّ قال ٧: من صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين لاتضيّع أجر ما عظم حرّمته وتنقض المصافحة بالمخالفة وقبض الحرام نظير أهل الآثام.

ثمّ قال ٧: نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم ٧ أنك وقفت على كلّ طاعه وتخلفت عن كلّ معصية؟ قال: لا؛ قال: فحين صلّيت فيه ركعتين نويت أنك صلّيت بصلاة إبراهيم ٧ وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟ قال: لا؛ قال له: فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه ركعتين.

ثمّ قال ٧ له: أشرفت على بئر زمزم وشربت من مائها؟ قال: نعم؛ قال: نويت أنك أشرفت على الطاعة وغضضت طرفك عن المعصية؟ قال: لا؛ قال ٧: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

ثمّ قال ٧ له: أسعيت بين الصفا والمروة ومشيت وترددت بينهما؟ قال: نعم؛ قال له: نويت أنك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا؛ قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا ترددت بين الصفا والمروة.

ثمّ قال: أخرجت إلى منى؟ قال: نعم؛ قال: نويت أنك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا؛ قال: فما خرجت إلى منى. ثمّ قال له: أوقفت الوقفة بعرفه وطلعت جبل الرحمة وعرفت وادى نمره ودعوت الله سبحانه عند الميل والجمرات؟ قال: نعم؛ قال: هل عرفت بموقفك بعرفه معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم وعرفت قبض الله على صحيفتك وإطلاعه على سريرتك وقلبك؟ قال: لا؛ قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أن الله يرحم كلّ مؤمن ومؤمنة ويتولّى كلّ مسلم ومسلمة؟ قال: لا؛ قال: فنويت عند نمره أنك لا تأمر حتى تأتمر ولا تزجر حتى تنزجر؟ قال: لا؛ قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات نويت أنّها شاهدة لك على الطاعات حافظه لك مع الحفظه بأمر ربّ السماوات؟ قال: لا؛ قال: فما وقفت بعرفه، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمره، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثمّ قال: مررت بين العلمين وصلّيت قبل مرورك ركعتين ومشيت بمزدلفه ولقطت فيها الحصى ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم؛ قال: فحين صلّيت ركعتين نويت أنّها صلاة شكر في ليلة عشر تنفى كلّ عسر وتيسر كلّ يسر؟ قال: لا؛ قال: فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنهما يميناً وشمالاً نويت أن لا تعدل عن دين الحقّ يميناً وشمالاً لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك؟ قال: لا؛ قال: فعندما مشيت بمزدلفه ولقطت منها الحصى نويت أنك رفعت عنك كلّ معصية وجهل وثبت كلّ علم وعمل؟ قال: لا؛ قال: فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أنك أشعرت قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزّ وجلّ؟ قال: لا؛ قال: فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفه، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثم قال له: وصلت منى ورميت الجمره، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت في مسجد الخيف، ورجعت إلى مكه وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم؛ قال: فنويت عندما وصلت منى ورميت الجمار أنك بلغت إلى مطلبك وقد قضى ربك لك كل حاجتك؟ قال: لا؛ قال: فعندما رميت الجمار نويت أنك رميت عدوك إبليس وغضبه بتمام حجك النفيس؟ قال: لا؛ قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنك تطهرت من الأدناس ومن تبعه بنى آدم وخرجت من الذنوب كما ولدتك أمك؟ قال: لا؛ قال: فعندما صلّيت في مسجد الخيف نويت أنك لا تخاف إلا الله عزّوجلّ وذنبك ولا ترجو إلا رحمة الله تعالى؟ قال: لا؛ قال: فعندما ذبحت هديك نويت أنك ذبحت حنجره الطمع بما تمسّكت به من حقيقه الورع، وأنتك أتبت سنّه إبراهيم ٧ بذبح ولده وثمره فواده وريحان قلبه وحاجه ظ أحيت سنّته لمن بعده وقربّه إلى الله تعالى لمن خلفه؟ قال: لا؛ قال: فعندما رجعت إلى مكه وطفت طواف الإفاضة نويت أنك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته وتمسّكت بوّده وأديت فرائضه وتقرّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا؛ قال له زين العابدين ٧: فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أديت نسكك، ولا صلّيت في مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت. ارجع؛ فإنك لم تحجّ.

فطلق الشبلى يبكي على ما فرّطه في حجّه وما زال يتعلّم حتّى حجّ من قابل بمعرفه ويقين.

ص: ١٨١

فبعض الامور تحرم على الإنسان مؤقتاً وحال الإحرام فقط. مثل قلع الشعر، والنظر في المرأة، والصيد و... لكن بعضها حرام مطلقاً مثل ما ورد في حديث الشبلي من لزوم ترك تمام المعاصي حال الإحرام. وعليه فالإحرام في الميقات يعني كأنك تقول لله: «إلهي! إنني أتعهد أن احرم على نفسي تمام المحرمات، وأن أتركها دائماً وإلى الأبد».

حقيقة الإحرام

للإحرام أجزاء ثلاثة واجبة، يتحقق الإحرام بوجودها، وهي:

١- ارتداء قطعتي لباس من غير المخيط (للرجال).

٢- قصد الإحرام للحج أو العمرة.

٣- التلبية.

إن الإحرام كما جاء في الكلام النوراني للإمام السجاد (ع) يعني مناداة الله: «إلهي! لقد قطعت تعلقى بغيرك»، وعليه فهذا «العقد» والعهد، يلزمه «حل» الارتباط بغير الله سبحانه، فبدايةً تُقطع التعلقات بغير الله ثم بعد ذلك يحصل الاتصال والارتباط به سبحانه. من الواضح جداً مدى ظهور التوحيد وتجليه البالغ في الإحرام، مرفقاً بالتعزى من كل زينة في الحياة الدنيوية، وكأن في ذلك محاكاةً للحشر والمعاد اللذين هما العودة إلى المبدأ.

ص: ١٨٢

على هذا الأساس، فمن لم يخاطب - عند الإحرام - الله بقلبه: «إلهي! غسلت يدي من غيرك، ولم أرتبط إلّا بولائك»، لم يذهب للميقات حقيقة ولم يحرم واقعاً! طبقاً لتوجيهات الإمام السجّاد (ع).
نعم المراد نفى الكمال، لا نفى الصّحة.

غسل الإحرام

سرّ استحباب الغسل في الميقات، كما بيّن الكلام المنير للإمام السجّاد (ع)، أن يقصد الحاج به تطهير نفسه من الذنوب والخطايا، فالنظافة في الميقات تتعدى تطهير البدن لتدلّ على تطهير القلب، وهذا أول سرّ من أسرار الحجّ.
وبناءً عليه، يتعهد الزائر مع غسل الإحرام:
أولاً: أن لا يلوّث نفسه بعد ذلك بالذنب والمعصية.
ثانياً: من الآن فصاعداً لا يخطو خطوةً إلّا في طريق الطاعة.
ثالثاً: أن يجبر النواقص السابقة ويرممها.
إنّ غسل الإحرام سيكون بهذا القصد غسلًا للتوبة، وعند ذاك سيلبس زائر بيت الله الحرام لباس الطاعة بروحه وجسده الطاهرين.

صلاة الإحرام

تقرأ في الميقات صلاة الإحرام قبل الغسل، ويفتى أكثر الفقهاء باستحباب هذه الصلاة، فيما يقول بعضهم بالاحتياط الوجوبي في أدائها، وبناءً عليه من المناسب أن يوقع الإنسان الإحرام بعد الصلاة.
إنّ العازم على السفر إلى بيت الله الحرام يتوجّه إلى سرّ صلاة الإحرام ويقول:

ص: ١٨٣

«إلهي! إنني أقترُب منك بعمود دينك».

ارتداء لباس الإحرام

إنّ خلع الملابس المخيطة حال الإحرام يعنى الخروج من لباس المعصية، كما أنّ ارتداء لباس الإحرام غير المخيط ولا الملون، والمصنوع من الحلال والطهارة والنظافة، يعنى اشتغال لباس الطاعة.

السرّ الآخر لارتداء هذا اللباس الخاصّ هو تذكّر اليوم الذي يأتي فيه الإنسان بلباس غير مخيط، ألا وهو يوم الموت الذي يرتدى فيه الكفن، من هنا تتجلّى في مناسك الحجّ ومراسيمه بعض أسرار القيامة، فسفر الموت والحضور في عرصات القيامة يتجسّد في نظر الحجيج.

كما أنّ ارتداء لباس الإحرام المتواضع والبسيط يزيل الامتيازات الظاهريّة الشكليّة بين الناس، ممّا يلغى أيّ أرضيّة لخلق رغبة في التفاضل أو التفاخر أو التباهي.

النية

الحجّ (التمتّع - القران - الإفراء) والعمرة من العناوين القصدية والقربية، لهذا يجب فيه مراعاة شيئين وقصدهما: أحدهما عنوان العمل، وثانيهما: غاية الفعل وهدفه، ألا وهو التقرب إلى الله تعالى.

كما أنّ كلّ الأركان والأجزاء الداخلة تحت هذا العنوان تصبح قصدية أيضاً، فيغدو امثالها - كامتثال الحجّ والعمرة - باطلاً غير متحقّق إذا فقد قصد العنوان الخاصّ.

نعم، القصد الإجمالي الأوّل كاف؛ حيث يلقى بظلاله على سائر الامور والأجزاء.

ص: ١٨٤

ويجب في الحج والعمرة - كسائر العناوين القصدية الاخرى - المحافظة على قصد العنوان حتى آخر جزء من العمل؛ لأن العناوين القصدية لا يكفي فيها القصد بمجرد الحدوث وفي مرحلته، بل لابد فيها أيضاً من القصد في مرحلة البقاء. وبعض الامور، يُضاف إلى كونها من الأعمال القصدية، أنها من العبادات، فلا تتحقق من دون قصد القربة بنحو مستمر ودائم، فلا يمكن فيها عروض شائبة الرياء لا حدوثاً ولا بقاءً؛ لأن ذلك يخلّ بخلوص قصد التقرب؛ والحج والصلاة والعمرة والصيام من هذا النوع من الأعمال.

ويكفي في قصد القربة أن ينوى الفاعل من بداية فعله إلى نهايته أن ينجز هذا العمل بدافع الالتزام بالأوامر الإلهية، إن مثل هذا القصد عندما يستمر ويحفظ من عروض الرياء عليه يعدّ كافياً في تحقيق عبادية الفعل.

والإطاعة المذكورة لها غاية حتماً، لأن امتثال الأمر الإلهي لا يقع - غالباً - من دون دافع أو هدف، وغاية الامتثال هنا تتحدّد بقدر معرفة الممثل وهمته ونشاطه وإطلاعه؛ فإن الدرجة الوجودية لأي ممثل تشكّل العلة المعينة لمدى معرفته وقدر همته واستعداده، كما أنّ مرتبة المعرفة ودرجة الهمة تمثّلان علامة دالة على الدرجة الوجودية.

إنّ الحجّاج والمعتمرين يقعون على فئات ثلاث وفقاً لحديث التثليث المعروف (١)؛ فإنّ عبادتهم إمّا من نوع عبادة العبيد، أو عبادة الطالبين للمصلحة، أو عبادة الأحرار؛ لكن مع ذلك هناك مراتب لكلّ صفة من هذه الأوصاف الثلاثة: الخوف، والشوق، والحرية، وأعلىها مرتبة عبادة الأحرار، هناك يكون التعبّد الذي يحصل

ص: ١٨٥

عليه الإنسان الكامل بطى مراحل قُرب الفرائض والنوافل (١)، فيغدو هذا الإنسان محلاً للكون الجامع للحضرات الخمس، ومظهراً للإسم الأعظم فى تدبير ما سوى الله بإذن الله.

بعض الناس يكون دافعهم العبادى راجعاً لما قد حصل ومضى، كالشكر لدفع نعمة أو رفعها، أو حدوث نعمة فيما مضى، وبعضهم صدق عبادتهم يعود للمستقبل؛ لدفع خطر أو جلب منفعة فيما سيأتى، وهذا يمتد إلى القيامة، حيث يسعى العابد للخلاص من نار الله العظيم الجبار أو للوصول إلى جنته العليا. أما الفريق الثالث فدافعه من الامتثال أرفع من دفع ضررٍ أو جلب منفعة بلحاظ الماضى أو المستقبل، بل أرفع من تمام حالات الماضى والمستقبل؛ إنهم يعبدون الله لأن الله عندهم أهل للعبادة يليق بها.

إن دافع الإنسان السالك الصالح من عباداته الواجبة والمستحبة - لا سيما الحج والعمرة - أن يصبح خليفة الله؛ فاولئك الذين يريدون الوصول إلى مقام الخلافة الرفيع، عليهم التحرز - فى مناخ التريية العبادية - من مضارّ المفساد الحيوانية والشيطانية، حتى يصلوا إلى قلّة العلم وأوج العقل، فيكونون أهلاً لعنوان خلافة من لا عنوان له.

وبعد طى مقام «خليفة الله» تصل النبوة لسفرٍ أرفع وأسمى، وهو أن يفوض العبد تمام شؤونه وأوضاعه لمالكه الأسمى ومليكه الحقيقى، حتى يكون مولاه خليفته؛ أى يكون الله خليفته.

من هنا لا يسند أى فعل فى هذا المقام الرفيع للعبد، بل يكون كما جاء فى التعبير القرآنى: (٢)، فالله هنا لا يقول: إرم

١- المصدر السابق: ٣٥٢.

٢- الأنفال: ١٧.

ص: ١٨٦

بإذن الله، وإنما يقول: إنَّ هذا الرمي الظاهري لك هو رمى حقيقى واقعى من جانب الله. إنَّ الوقوع فى مقام خلافة الله معناه صيرورة العبد آيةً ومظهراً له سبحانه، كما أنَّ جعل الله خليفهً للعبد معناه صيرورته قتيماً وولياً عليه، إنَّ هذا المقام يأتى تحت ظلِّ قرب النوافل، فمثل هذا العبد الذى يصبح تحت الولاية الإلهية، يتكلم باللسان الإلهى، لا بلسانه، ويرى بعين الله، لا بعينه، ويسمع بسمع الله، لا بسمعه. (١)

حقيقة النية

حقيقة النية هى قرب العبد من ساحة قدس المولى، وهى لا تحصل دون انبعاث الروح والسير الملكوتى؛ إذ مجرد تصوّر أن امتثال الحج والعمرة هو لله سبحانه، وإن صدق عليه أنه نية بالحمل الأولى، إلّا أنه غفلة بالحمل الشائع، فعندما لا يتخلّق الحاج والمعتمر فى حياته وسلوكه وسيرته بالأخلاق الإلهية، ولا يرى أن هدفه النهائى من تمام شؤون حياته هو نيل رضا الله تعالى ولقائه، فإنَّ نية على أرض الواقع تكون غفلة؛ لأنَّ قصد التقرب لا يحصل دون تحقّق السير الملكوتى، ومجرد تصوّر القصد المشار إليه لا يحقّق مصداق النية.

من هنا، ننتقل لموضوع آخر، وهو أن عبادية أى فعل رهينة لقصد القربة، وقصد القربة لا يتحقّق دون تحقّق القرب، وحصول التقرب قصد بالحمل الأولى وغفلة بالحمل الشائع .. إذاً فالتقرب معتبر فى حقيقة أى أمر عبادى، تماماً كما جاء فى الصلاة: «الصلاة قربان كل تقى» (٢)، وقريب من هذا التعبير جاء فى الزكاة أيضاً، حيث

١- الكافى ٣٥٢: ٢.

٢- الكافى ٢٦٥: ٣.

ص: ١٨٧

ورد: «إن الزكاة جُعِلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام». (١)

من هنا، لزم في الحج والعمرة أن يُمزجا بالتقرب من حيث كونهما عبادة؛ والتقرب لا يحصل من دون السفر الباطني. ومن خلال ما تقدم يمكن ترتيب مراتب نية القربة في ظل الأسفار الأربعة، والمعين لمدارج هذا السير، ومعارض هذا السفر، ومعالي هذا الصعود، ومراقى هذا العروج .. هو معرفة السالك وهمة الناسك.

التلبية

التلبية من الأجزاء الواجبة في عقد الإحرام، وهي ذكرٌ خاصٌ يستحبُّ تكراره أيضاً بعد الإحرام حتى الوصول إلى مكان معين أو متخطياً زماناً خاصاً، إن تكرار التلبية عند كل مرتفع ومنخفض، وعند كل ارتفاع وانحدار يعني تجديد الإنسان في كل آن عهده مع إلهه تبارك وتعالى.

ولعل السر في كون الرسول (ص) هو أعظم مظهر للأسماء الإلهية أنه كان أفضل شخص حج، وفهم أسرار الحج، لا سيما التلبية، إن حج الرسول الأكرم كان يوازي معراجه، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع) في بيانه لعلته إحرام رسول الله (ص) من مسجد الشجرة: «... لأنه لما اسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة، نُودي: يا محمد! قال: لبيك، قال: ألم أجدك يتيماً فأويتك، ووجدتك ضالاً فهديتك؟ (٢)، فقال النبي (ص): إن الحمد والنعمه والمُلك لك، لا شريك لك...» (٣).

رهبانية أمة الإسلام

١- المصدر السابق ٣٧: ٥.

٢- انظر: الضحى: ٦- ٧.

٣- وسائل الشيعة ٢٢٤: ٨- ٢٢٥.

ص: ١٨٨

يقول رسول الله (ص): «ابدلنا بها [الرهبانية] الجهاد والتكبير على كل شرف». (١)

إنّ تعبير «التكبير على كل شرف» ناظر إلى ذكر التلبية الذى يردده زوّار بيت الله الحرام عند كلّ مرتفع، بصوت عال واثق: «لبيك» فهذه هى الرهبانية الممدوحة والمحمودة التى دعا الله سبحانه عباده إليها، قال تعالى: (٢).

إنّ احترام الله المأمور به فى هذه الآية يعنى أخذ حريم اعتقادى له، بمعنى أنّ على الإنسان التواضع والخشوع فى المحضر الإلهى الذى لا يرى غيره، ولا يعتمد على ما سواه، ولا يرتبط قلبه بما دونه، وهناك يعلن القول: لقد لبيت أمرك وأتيت لمحضرك «لبيك...».

مثل هذا الحاج هو راهب الله، وهذا هو الحجّ الذى يشمل الرهبانية الممدوحة والمحمودة، التى دعينا إليها. (٣)

تجلى التوحيد فى التلبية

حول ذكر التلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعم لك والملك، لا شريك لك لبيك، لبيك ذا المعارج لبيك...»، يقول الإمام الصادق (ع): «... واعلم أنّه لا بدّ من التلبيات الأربع التى كُنّ فى أوّل الكلام، وهى الفريضة، وهى التوحيد، وبها لبي المرسلون، وأكثر من ذى المعارج؛ فإنّ رسول الله (ص) كان يُكثر منها، وأوّل من لبي إبراهيم (ع)». (٤)

١- المحجّة البيضاء ١٩٧: ٢.

٢- البقرة: ٤٠.

٣- بحار الأنوار ٢٧٧: ١٤.

٤- وسائل الشيعة ٥٣: ٩.

ص: ١٨٩

وفى نهاية جوابه عن سؤال حول «إشعار البدن» (١) الذى يعدّ بمثابة التلبية فى بعض أقسام الحجّ ... يقول الإمام الصادق: «... ثم قل: بسم الله، اللهم منك ولك، اللهم تقبل منى». (٢)

إنّ هذا الحديث الشريف، مثل دعاء الإحرام: «اللهم إني أسألك أن تجعلني ممن استجاب لك، وآمن بوعدك، وأتبع أمرك، فإني عبدك، وفى قبضتك، لا- أوقى إلها ما وقيت، ولا آخذ إلّا ما أعطيت» (٣) ناظرٌ إلى ما سبق أن تحدّثنا عنه حول تمثّل التوحيد فى الحجّ، حيث المقصود من الحجّ لقاء الله، وطرّد كلّ ما سواه.

إنّ التلبية جواب خالص لله سبحانه، من هنا فهى تُذيب كلّ الخسائس والانحطاطات، وتطرّد كلّ شيطان خبيث متمرد، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع) حول البيداء (٤) التى لبي منها رسول الله (ص): «ها هنا يخسف بالأخابث». (٥)

طرد الجاهلية القديمة والحديثة

يطرد الحجّ بتلبيته الخاصّة المذكورة كلّ جاهليّة، ويكسر كلّ صنم أو علامة للشرك الجاهلى، ويحطّم كلّ أنواع الباطل القديمة والجديدة، وبناءً عليه، فالحجّ شفاءً

١- ينقسم الحجّ إلى ثلاثة أقسام: تمّتع، وإفراد، وقران، ولا- ينعقد إحرام كلّ من العمرة المفردة، وعمرة التمتع، وحجّ التمتع، وحجّ الإفراد، إلّا بالتلبية، أمّا فى حجّ القران فالحجّ مخير بين التلبية والإشعار أو التقليد، والإشعار يختصّ بالإبل المسوقة للأضحية، فيما يشترك التقليد بينها وبين سائر أقسام الأضحية. وفى الإشعار تشقّ بشكل بسيط الجهة اليمنى لسنام الإبل، ثمّ يمسح الدم الخارج على بدن الإبل. أمّا التقليد فيعنى تعليق حذاء فى رقبته الهدى وهو الحيوان الذى يسوقه الحاج معه للأضحية. ولمزيد من الاطلاع يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

٢- وسائل الشيعة ١٩٩: ٨.

٣- المصدر السابق ٢٣: ٩.

٤- البيداء: منطقة قريبة من مسجد الشجرة الكافى ٢٤٥: ٤، ٣٣٣-٣٣٤، وقد جاء فى بعض الروايات أنّه يخسف بجيش الكفر فى آخر الزمان فى هذه المنطقة حال توجّهه نحو مكّة بحار الأنوار ١١٩: ٥٢، ١٨٦، ١٩١، ٢٠٣-٢٠٤.

٥- وسائل الشيعة ٤٩: ٩.

ص: ١٩٠

للقلوب من أمراض الشرك أو ما يتلوث به، كالرياء والهوى والبخل والعجب و...
 ولتوضيح هذه النقطة نذكر بأن التلبية في الحج في العصر الجاهلي كانت نداءً للشرك وصرخةً للوثنية؛ لأن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إنا شريك هو لك، تملكه وما ملك» (١)؛ وبهذا الكلام كانوا يثبتون لله الشريك، رغم كون هذا الشريك مملوكاً لله نفسه!
 أما التلبية في الإسلام، فهي تضرع واستغاثة بالمحضر الواحد المحض وصرخة صاعقة ضدّ مختلف أنواع الشرك الجلي أو الخفي، وهذا أمرٌ واضح لكلّ من شاهد صرخات التلبية في الصحراء القاحلة، وداوم على ذكرها عند كلّ منخفض ومرتفع من الأرض.
 إنّ نصوص أهل البيت: شاهدٌ على ما قلناه، ومن بينها أنّ أيّ شخص يعمل بسنة الجاهلية، أو يتلوث بالمال الحرام، فإنه يقال له عندما يلبي: «لا لبيك عبدى، ولا سعديك» (٢)، من هنا يقول الإمام الكاظم (ع): «إنا أهل بيت، حج ضرورتنا، ومهور نساتنا، وأكفاننا، من طهور أموالنا». (٣)

إنّ الحجّ صرخةً ضدّ الجاهلية، وهذا ما يجعلنا نفهم السبب في أنّ الروايات الواردة في تلبية إبراهيم الخليل وموسى الكليم وخاتم النبيين: أكثر بكثير من الروايات الواردة حول سائر الأنبياء والرسل. (٤)

سِرّ التلبية

١- الكافي ٥٤٢: ٤.

٢- وسائل الشيعة ١٠٢: ٨.

٣- المصدر السابق: ١٠٣.

٤- المصدر السابق ٤٧: ٩- ٤٩، ٥٥.

ص: ١٩١

الإحرام والتلبية استجابة لنداء الوحي والدعوة الإلهية، من هنا يقع الحجاج الحقيقيون عند التلبية في خوف عقلي مهول، يغير لونهم فيصير مصفرًا، يأخذ بأصواتهم، ويدهشون ويقولون: نحن نخشى أن يُقال لنا بأنكم لم تلبوا نداء الحج على نحو الحقيقي، «لا لبيك ولا سعديك» (١).

إن الحاج يعقد في الحقيقة عهداً مع الله عندما يلبي، مضمونه أنني لن أنطق بعد الآن إلّا بطاعتك، وسوف أقفل فمي عن النطق بالمعاصي كلها. (٢)

إن حجم اللسان قليل، لكنّ جرمه كبير وكثير، والتلبية تطهير للسان عن كلّ معصية ترتبط به، من هنا كان اللسان الزائر لبيت الله هو اللسان الطاهر.

من هذا كله يظهر أنّ سرّ التلبية هو إطلاق اللسان بالحق والطاعة، ومنعه وتطهيره من مقولات الباطل والمعصية، وهذا ليس في زمان الحج والعمرة فحسب، بل وإلى الأبد.

مراتب التلبية والمليين ودرجاتهما

تفاوت مراتب الملين طبقاً لتفاوت مراتب التلبية، فبعضهم يلّون إعلان الأنبياء، وبعضهم يلّون دعوة الله سبحانه، بعضهم يقول: إنّنا نستجيب لمن دعانا إلى الله، وقد جئنا نقول: «لبيك داعي الله، لبيك داعي الله» (٣)، وهؤلاء هم المتوسّطون من زوّار بيت الله حيث أجابوا دعوة إبراهيم الخليل، الذي دعا إلى الحجّ بأمر من الله سبحانه: (٤).

١- بحار الأنوار ١٦: ٤٧، و ٣٣٧: ٦٤.

٢- انظر حديث الشبلي المتقدّم.

٣- الكافي ٢٠٦: ٤.

٤- الحجّ: ٢٧.

ص: ١٩٢

وأعلى من هؤلاء، اولئك الذين يسمعون دعوة الله: (١)، ويستجيبون لهذه الدعوة.

نعم، إن جواب خليل الله هو جوابُ الله سبحانه، ولا جواب لله من دون جواب دعوة الخليل، إلا أن التفاوت يقع في شهود الزائر العارف لبيت الله، فكل إنسان يقع في درجة هويته ومرتبته إيمانه، ويعرف الله طبقاً لها، ويمضى معه الميثاق كذلك، كما يمثل أوامره بالطريقة عينها.

بعضهم يعرفون الله بالواسطة، وبعضهم مثل الأنبياء: يعرفونه بلا واسطة، ويعقدون معه العهد، ويعملون بأحكامه.

إن الذي يظهر في نشأة الشهادة هو حصيلة عهد مرتبة الغيب، وبناءً عليه، رغم أن الجميع عقدوا العهد مع نداء الله الجليل سبحانه، إلا أن بعضهم كان بواسطة الخليل وبعضهم بلا واسطة، ولهذا لم تكن التلبية واحدة عند الجميع، بل يمكن أن يقول شخص: «لبيك ذا المعارج لبيك»، إلا أنه في واقع الأمر يلبي (٢)، ويُجيب دعوة الخليل، لا دعوة الجليل، فالتلبية في مقام الظاهر تابعة لاستجابة الدعوة الإلهية في عالم الميثاق الإلهي.

وتجليةً لهذه النقطة، نلاحظ أن الناس جميعاً يلتون مرتين، وهاتان المراتان تقعان في طول بعضهما، إن هذه الإجابة والاستجابة ليست أمراً تاريخياً حتى يكون قد مضى وانتهى، وإنما هي امتداد واستمرار.

لقد تحدّث الله سبحانه عن الأولى منهما بقوله: (٢).

أما الثانية؛ فكانت أمر الله لإبراهيم الخليل بإعلان الدعوة العامة للحج: ()

١- آل عمران: ٩٧.

٢- الأعراف: ١٧٢.

ص: ١٩٣

(، وقد وصلت هذه الدعوة للناس جميعاً حتى للذين هم في أصلاب آبائهم، واستجابوا لهذه الدعوة. يقول الإمام الصادق (ع) في هذا المصمار: «لَمَّا أَمَرَ إبراهيم وإسماعيل (ع) ببناء البيت وتمّ بناؤه، قعد إبراهيم على ركن، ثم نادى: هلم الحجّ، هلم الحجّ... فلبى الناس في أصلاب الرجال: لبيك داعي الله، لبيك داعي الله عزّ وجلّ... فَمَنْ لَبَّى عَشْرًا يَحِجَّ عَشْرًا... وَمَنْ لَبَّى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَبَعْدَ ذَلِكَ، وَمَنْ لَبَّى وَاحِدًا حِجَّ وَاحِدًا، وَمَنْ لَمْ يَلْبُ لَمْ يَحِجَّ». (١)

إنّ مشهد التلبية لدعوة الخليل تشابه مشهدها لدعوة الله سبحانه في عالم الذرّ والذرية، فكما أنّ القضية مستمرة في المشهد الأوّل، كذلك هي في المشهد الثانی؛ لأنّ حديثنا هنا عن استجابة الفطرة والروح، لا عن استجابة الذرّات في الأصلاب والأرحام بوصف ذلك حدثاً تاريخياً.

إنّ تفاوت المراتب المذكورة للملئين، حدثت يتكرّر في الكثير من القضايا الدينيّة الأخرى، مثل تلاوة القرآن الكريم وتلقّي السلام الإلهي.

محرّمات الإحرام

الحجّ مجموعة منتظمة من سلسلة عباديّة خاصّة، تستحقّ كلّ حلقة فيها تأمّلاً ونظرة؛ فكما تحرم امور عديدة بأداء تكبيره الإحرام في الصلاة وتصبح غير منسجمة مع العبادة، لتظلّ محرّمةً حتى يؤدّى المصلّي التسليم نهاية الصلاة، كذلك الحال في الحجّ والعمرة، فبالإحرام والتلبية تحرم الكثير من الامور (٢) التي يكون البعد التعبدي في

١- الكافي ٢٠٦: ٤-٢٠٧.

٢- محرّمات الإحرام على ثلاثة أقسام بلحاظ المكلف هي:

- أ- المحرّمات المشتركة بين الرجال والنساء، وهي: ١- قلع الشعر عن البدن، أو بدن الآخرين سواء المحرم وغيره. ٢- إخراج الدم من البدن. ٣- قصّ الأظافر. ٤- قلع الأسنان. ٥- قلع شجر الحرم أو نباته.
- ٦- حمل السلاح إلّا في حال الضرورة. ٧- الصيد إلّا مع الخوف منه. ٨- أنواع الاستفادة من الطيب.
- ٩- الاكتحال. ١٠- النظر في المرأة. ١١- الجدال. ١٢- دهن البدن. ١٣- العقد سواء الدائم أم المنقطع، وكذلك الشهادة على العقد.
- ١٤- الاستمنا. ١٥- العمل الجنسي مطلقاً؛ مثل النظر بشهوة، أو التقبيل، أو الجماع، وأيّ لذّة جنسيّة. ١٦- لبس الخاتم للزينة وكذلك الحنّاء. ١٧- الفسوق، وهو الكذب والافتخار والفحش والتباهي. ١٨- قتل حشرات البدن أو رميها.

ب- المحرّمات الخاصّة بالرجال، وهي:

١- تغطية الرأس. ٢- التظليل حال الحركة والسفر. ٣- لبس المخيط. ٤- لبس الحذاء أو الجوراب الساتر لظهر القدم بتمامه.

ج- المحرّمات الخاصّة بالنساء، وهي:

١- تغطية الوجه. ٢- لبس الحلّي للزينة.

وبناءً عليه، فمحرّمات الإحرام عددها أربعة وعشرون. وللإطلاع على خصائصها وتفصيل أحكامها، وكذلك كفّاراتها وما يترتب على عدم مراعاتها، يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

ص: ١٩٤

اجتنابها قوياً، والاختبار الإلهي فيها كذلك، وبهذا تكون دورة الإحرام رحلةً تعبديةً محضةً وامتحاناً صرفاً. (١)

وبالقيام بمناسك الحج والوصول إلى مراسم التحليل ينفك عقد الإحرام، ويخرج المحرم من دائرة المنع في هذه المحرمات. إن الإحرام ورعاية حدوده يحزّر الروح من أي قيد لا سيما قيود الشهوة والغضب، ويطهر العقل من كل فكر باطل، وينجّي القلب من الخيال الغافل؛ لأن كل ما يوجب ظلمة الروح وتلؤن النفس قد حرم حال الإحرام، حتى تكون الروح الطاهرة والنفس الخالصة أهلاً للطواف في بيت الله، ذلك البيت المنزه عن كل لوث وقذارة.

بيت الله هو محور الحرية ومدارها، فلا يحق للمحرم الآتي لزيارته أن يأسر فيه الصيد، أو يساعد على أسره، أو ينفره أو يدلّ الصياد عليه؛ لأن هذه الأعمال كلها تتنافى مع روح الرغبة في الحرية، وما لم يُحرّر الإنسان نفسه فلن يكون لديه

١- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ القاصعة، الفقرة: ٥٣-٦٥.

ص: ١٩٥

صلاحية الطواف في محلّة الحرّية.

من هذا كلّه، وضع الله سبحانه مكاناً مقدّساً بظروف مناطقيّة غير ملائمة ليُجعل مركزاً للاختبار في سياق إيجاد التناغم بين التكوين والتشريع، حتّى يتمكّن الخلق من التخلّص من الملوّثات والتعلّقات والأفذار والتطهّر من الخبائث والنجاسات في رياضاتهم الممدوحة التي تتمّ من خلال محرّمات الإحرام، وكذلك عبر مناسك الحجّ والعمرة. (١)

وكأنموذج على الاختبار المذكور، جرى تحريم الاستفادة من العطور والروائح الجميلة حال الإحرام من جهة، كما منع - من جهة أخرى - من إغلاق الأنف ووضع اليد عليه عندما يحتكّ الإنسان حال أداء مناسك الحجّ والعمرة أو يجالس أشخاصاً تفوح منهم الرائحة الكريهة، وكذلك عند العبور من مكان ذبح الأضاحي ... إنّ مثل هذه الامور تكسر أنانيّة الإنسان وعنجهيته وكبرياءه وتفآخره، بحيث تحوّل بعد إنجاز أعمال الحجّ والعمرة إلى عبد حرّ مُنعتق لله.

هذه الدورة البانية للإنسان، تؤثر تأثيراً كبيراً في المجتمع، فاولئك الذين لم يكونوا ليتورّعوا عن أكل العظاية في عصر الجاهليّة الوحشي، وكانوا يتسابقون في اصطياد هذا الحيوان، أصبحوا الآن يترفّعون عن ظبي الصحراء، حتّى تمكّنوا في عصر التمدّن الإسلامي من الانتصار على كلّ الميول والرغبات الذاتية بتأثير من الأوامر الإلهيّة.

لدورة الإحرام الغتيّة بالمُعطيات تأثير كبير على بناء الشخصية الإنسانيّة، تشاهد نتائجها العمليّة الرائعة في المجتمع المعتقد والملتزم بمحتوى الحجّ والزيارة.

الفصل الرابع الطواف

أدب الدخول إلى المسجد الحرام

على الحاج - طبقاً للبيان النوراني للإمام السجّاد (ع) - أن يتذكّر لحظة دخوله إلى الحرم وقبل كلّ شيء حرمة غيبة أهل الإسلام، و عليه أن يبعث هذا القصد من أعماقه عندما يقول: إلهي! إنني لن أستغيب أحداً من المسلمين أو أفتش عن عيوبه. على الزائر عند دخوله مكة المكرمة أن يقصد هذه التية: إلهي! لقد أتيت إلى هنا قاصداً لك (١)، و لم آتٍ لا بقصد التجارة، و لا الشهرة، و لا السياحة، و لا الفرجة، و لا النزّهة، و لا أمثال ذلك.

يستحبّ لزائر بيت الله الدخول إلى المسجد الحرام من باب «بنى شيبه» و من حيث كان الحج توحيداً أصيلاً خالصاً لا شرك فيه، بل تطرد عنده الأصنام كلّها، كان لهذا الاستحباب سرّ مرتبط بهذا الأمر، و هذا السرّ هو ما يذكره لنا الإمام الصادق (ع) عند ما يقول: «إنه موضع عبد فيه الأصنام و فيه أخذ الحجر الذي نحت منه هُبل الذي رمى به علي (ع) من ظهر الكعبة لما علا ظهر رسول الله (ص) فأمر به، فدفن عند باب بنى شيبه، فصار الدخول إلى المسجد من باب بنى شيبه سنّة لأجل ذلك». (٢)

١- أنظر حديث الشبلي.

٢- وسائل الشيعة ٣٢٣: ٩.

ص: ١٩٧

هذا المنهج، أى وضع هبل تحت أقدام المخطين لئيداس، يمثل أنموذجاً راقياً لنسيان الشرك، و سحقه، و إسقاطه إلى أدنى الأشكال؛ فعندما يتجلى الحق لا يبقى مجال للباطل السابق أو اللاحق، قال تعالى: (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ). (١)

أدب الحضور

العالم كله محضر الله سبحانه، فله تعالى علم شهودى حضورى بكل ذرات العالم و ما هو أقل من ذلك، و لا أقول لأى شىء عن مجال أفق شهوده، قال سبحانه: (وَ مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ مَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَا فِي السَّمَاءِ وَ لَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَ لَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ). (٢)

بل حتى أعضاء الإنسان، و جوارحه و ضميره، يعدّ شاهداً و جاسوساً عليه «إن الله سبحانه و تعالى لا يخفى عليه ما العباد مقترفون فى ليلهم و نهارهم لطف به خبراً و أحاط به علماً؛ أعضاءكم شهوده، و جوارحكم جنوده، و ضمائركم عيونه، و خلواتكم عيانه. (٣)

فعلى الإنسان فى كلّ حالاته أن يراعى أدب الحضور فى المحضر الإلهى و كما يراعى الأدب فى مستحبات دخول المساجد و المكوث فيها (٤)، كذلك لا بدّ أن يراعى

١- سبأ: ٤٩.

٢- يونس: ٦١.

٣- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٩، الفقرة: ١٣-١٤.

٤- بحار الأنوار ١: ٨١-٢٧؛ لقد كان الإمام المجتبى ٧ كلما قام إلى الوضوء ارتعدت فرائصه و تغير لونه، و كان يبزر ذلك بأنه لا بدّ أن يكون الإنسان كذلك فى المحضر الإلهى، و عندما كان يصل إلى المسجد كان يقول: «إلهى ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسىء، فتجاوز عن قبيح ما عندى بجميل ما عندك يا كريم». بحار الأنوار ٣٣٩: ٤٣

ص: ١٩٨

الأدب أكثر فأكثر في المساجد ذات الحرمه الخاصه، و بالأخص في حريم الكعبه التي هي أصل المساجد كافه، و التي تسند إلى الله تعالى بالإسناد الشريفى، حيث لم يسند أى بيت إليه غيرها، حين قال: (بَيْتِي). (١)

ينقل أهل المعرفة عند بيانهم لبعض أسرار الحج، قصصاً قد لا تكون لها واقعيه و حقيقه خارجيه، إلا أن روحها وجوهرها حق، و من ذلك ما قيل عن أحد أهل القلوب، أنه دخل على أحد الزعماء بلباس عتيقه متسخه فقالوا له: أتدخل بهذا اللباس على شخص بهذا المقام والمنزله؟ فأجاب: إن الحضور أمام الكبار بلباس متسخه ليس عيباً، إنما العيب لو عاد شخص من عند هذا الكبير بلباس باليه قدره، ذلك أن هذا يعنى أنه لم يره لائقاً بل رده، ولم يمنحه من عطايه وهداياه شيئاً.

إن مقصود قاص هذه القصة أن المشكله ليست في الحضور بين يدي الله تبارك و تعالى محملين بالذنوب، ماديين له أيدينا الخاطئه، إنما العود من محضره سبحانه غير مقبولين لديه، و لا مغفوري الذنوب، بل ملطخين بالآثام لما فعلناه في سالف الأيام.

كذلك قالوا: دخل عارف على صاحب منصب و مكانه، فسأله: ما الذى أتيت به؟ فأجاب: لايسأل القادم على العظيم: ماذا حملت معك؟ و إنما يسأل: ما الذى تريد؟ فلو كان لديه شيء لم يأت إليه.

لا يمكن لأحد أن يقول: لقد أتيت إلى الله تعالى مليئاً بالعلم و العمل، ممتلئاً جعبتى بالعمل و الجهد، لأن ذلك كله ملك له، قال سبحانه: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) (٢)، فلا يذهب أحد إلى المحضر الإلهي بيد ممتلئه، من هنا لايسأل الذهاب إلى

١- البقرة: ١٢٥؛ الحج: ٢٦.

٢- النحل: ٥٣.

ص: ١٩٩

بيت الله الحرام- بيت الضيافة و الكرم الإلهي (١)-: ما أحضرت؟ و إنما يقال له: ماذا تريد؟ و لو قالوا له السؤال الأول لكان المقصود ما هو مقدار حاجتك؟ و ما الذى أحضرته من حاجتك حتى تأخذ مقداره؟ هذا كله مع الانتباه إلى أن الزائر يطلق لسانه عند حضوره فى بيت الحق قائلاً: «اللهم إن البيت بيتك، و الحرم حرمك، و العبد عبدك، هذا مقام العائذ بك من النار» (٢)، تماماً كما يقول الإمام السجّاد (ع) بين يدي الله: «سیدی عبدك بیابک، أقامتہ الخصاصه بین یدیك». (٣)

الطواف

الطواف أحد أركان الحج الهامة، و مظهر من مظاهر تجسّد التوحيد فى الحج، لأنّ الطواف حول الكعبة و إن كان بمنزلة الصلاة، «الطواف بالبيت صلاة» (٤)، إلّا أنه تتجلى فيه العبادة الخاصة (فَأَيُّمًا تُولُّوْا فَنَّمَّ وَجْهَ اللَّهِ) (٥)، على خلاف الصلاة التى يتحتم فيها الأمر الإلهي: (وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ). (٦) الكعبة تنزل العرش و تمثله، تقع فى محاذاة العرش الإلهي و البيت المعمور (٧)، فإذا طاف بها العبد بشكل لائق فإنه يصعد إلى البيت المعمور فى عالم المثال، وإذا ما أتم وظائف تلك المرحلة و وفى بحقوقها، فإنه يرقى إلى مقام العرش الإلهي. و الأرفع من ذلك، مقام العترة الطاهرة: التى تمنح الفخار لحقيقة الكعبة، لأنّ

١- وسائل الشيعة ٨٤: ٣، و ٤٥٨: ١٠.

٢- بحار الأنوار ٣٤٢: ٩٦، و بالمضمون عينه ما فى الكافي ٤٠١: ٤-٤٠٢.

٣- مفاتيح الجنان، دعاء أبى حمزة الثمالى.

٤- عوالى اللثالى ٢١٤: ١.

٥- البقرة: ١١٥.

٦- البقرة: ١٤٩.

٧- بحار الأنوار ٥٧: ٩٦؛ و انظر: المصدر السابق، هامش صفحة ٨٦.

ص: ٢٠٠

عبادتهم و طوافهم يدور حول «سبحان الله» و «الحمد لله» و «لا إله إلا الله» و «الله أكبر».

و لكي يرفع الله تعالى الإنسان إلى مستوى الملائكة، لتظهر عليه آثارهم، طلب منهم الصيام كي يتزهاوا- كالملائكة- و يحذروا الأعمال الحيوانية ...

إذا كان هذا هو الحال ... فإنه جعل الكعبة موازية في الأرض للبيت المعمور، و تمثلاً لعرشه سبحانه، فأمر العباد بالطواف حولها، و الهممة في ذلك بذكره سبحانه، و طلب المغفرة منه لنفسه و الآخرين، و بهذا تحصل المشابهة مع ملائكة العرش الإلهي و الاقتداء (١)؛ لأن الملائكة تطلب المغفرة للمؤمنين و التسييح للذات المقدسة بطوافها حول عرش الحق سبحانه (٢)، و لا سيما بعد الاختبار الذي خضعت له عند خلق آدم (ع) و السجود له. (٣)

ملاحظة

لكل اسم من أسماء الله الحسنى ظهور خاص به، يكون موجداً لأثر خاص بتلاقح الأسماء الأخرى، إن العدد والرقم والكمية المتجلية في ركعات الصلاة، وتليية الإحرام، وأشواط الطواف، والسعي، ورمي الجمرات ... كل واحد من هذه يمكن أن يكون مظهراً لتزاوج الأسماء الإلهية بحيث يعطى أثراً ضمن هندسة خاصية، تماماً كما كان في عدد الأربعين رسالة خاصية، فإذا كان لرقم (ع) شواهد الخاصة، مثل تكبيره بداية الصلاة، و عدد أشواط الطواف و السعي، فإن لعدد ثمانية، الذي تغلب عليه

١- المصدر السابق ٩٦: ٩٦-٩٧، و انظر كذلك: ٢٩-٣٠، كذلك صفحة ١١٣ بمنتها و هامشها.

٢- سجود الملائكة لآدم لم يكن طاعة له ولا عبادة، وإنما طاعة لله تعالى وعبادة، و تكريماً و تحية و تعظيماً لآدم.

٣- بحار الأنوار ٧٧: ٦٥؛ مع الإشارة لقوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا غافر: ٧.

ص: ٢٠١

الصبغة الرحمانية علائمه الخاصة به أيضاً؛ بمعنى أنه إذا كانت أبواب جهنم ثمانية (١)، و حملة العرش يوم القيامة ثمانية: (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةً) (٢)

، و أمثال ذلك، فإنه لا شك في وجود سرّ و رمز في ذلك، مختفٍ و مستور عن المحجوبين في نشأة الكثرة، مع انكشافه لشاهدي ساحة الوحدة.

كما أنّ وضع الكعبة على الجانب لا في المقابل عند الطواف، وكذلك جعل هذا الجانب هو الأيسر لا الأيمن مستنداً أيضاً إلى سرّ يمكن أن يكون الإطلاع عليه صوم الزائرين أو رزق كتاب أسرار الحج و رموزه.

الطواف الجاهلي

كان المشركون في العصر الجاهلي يطوفون حول الكعبة، إلّا أنّ القرآن وصف عبادتهم في أطراف الكعبة بالصفير و ضرب الكفّ، حيث قال: (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً). (٣)

إنّ من يضع الكتاب الإلهي خلفه، و يضع الأصنام مكان الله سبحانه، هو مصداق (كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (٤) ، و كلام البهائم مبهم لا مبين، لهذا فكلّ ما يصدر من فمهم إنّما هو بمثابة الصفير، و حيث إنّ تتمّة الشرك ليست بياناً إنسانياً، عبّر القرآن عن طوافهم المشوب بالشرك بالصفير لا البيان، من هنا فالصفير الواقعي و القولي كلاهما مصداق للآية الشريفة. إنّ الجاهلين بأسرار الحج يدورون حول الكعبة، كما كان أهل الشرك في الجاهلية يدورون كثيراً حولها، و عندها الأصنام و الأوثان، و كما يدور الكثير من العصاة

١- بحار الأنوار ٣٩: ٨، ١٣١، ١٤٤، ١٧٠.

٢- لحاقه: ١٧.

٣- الأنفال: ٣٥.

٤- الأعراف: ١٧٩.

ص: ٢٠٢

حولها، فالزائر الذي لا يلتفت إلى سرّ الطواف، قد يرتكب في تلك الحال معصيةً، كما قال الإمام الصادق (ع): «إن امرأة كانت تطوف و خلفها رجل، فأخرجت ذراعها، فنال بيده حتى وضعها على ذراعها، فأثبت الله يده في ذراعها حتى قطع الطواف و أرسل إلى الأمير و اجتمع الناس، و أرسل إلى الفقهاء فجعلوا يقولون: اقطع يده، فهو الذي جنى الجنايه، فقال: هاهنا أحد من ولد محمد رسول الله (ص)؟ فقالوا: نعم، على بن الحسين قدم الليلة، فأرسل إليه فدعاه، و قال: أنظر ما لقياً ذان، فاستقبل القبلة و رفع يده، و مكث طويلاً يدعو، ثم جاء إليهما حتى خلص يده من يدها، فقال الأمير: ألا نعاقه بما صنع؟ فقال: لا». (١)

ففي هذا المورد الخاص رغم أن فقهاء الجمهور حكموا بقطع اليد إلا أن الرجل و المرأة فتحت أيديهما و نال الرجل العاصي شفاعه الإمام زين العابدين فنجى من الحد.

إن تفاوت مراتب الطائفين يمكنه أن يكون مصداقاً لهذا الكلام التير للإمام الصادق (ع) في ذيل الآية الشريفة: (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ) (٢)، حيث يقول (ع): «الظالم يحوم حوم نفسه، و المقتصد يحوم حوم قلبه، و السابق يحوم حوم ربه عزوجل». (٣)

لأنّ دين أيّ إنسان، ينظمه له ربه و يشرّعه، فمن يكون إلهه هواه فسيكون نبيّه رسول هذا الهوى و جنته و ناره صنائع لهذا الهوى أيضاً؛ و ما قاله رسول الله (ص): «يأتي على الناس زمان، بطونهم آلهتهم، و نساؤهم قبلتهم، و دنانيرهم دينهم» (٤)، ناظر إلى هذا الأمر، حيث لا يمكن أن يكون هناك شخص بلا دين.

١- وسائل الشيعة ٣٣٨: ٩.

٢- فاطر: ٣٢.

٣- بحار الأنوار ٢١٤: ٢٣.

٤- المصدر السابق ٤٥٣: ٢٢.

ص: ٢٠٣

استلام الحجر الأسود

لقد رغب كثيراً في استلام الحجر الأسود، نظراً للخصوصيات المعنوية التي فيه، لهذا يستحب وصول يد الطائف إليه، و من اللائق و الجدير بالطائفتين طوافاً مستحباً أن يفسحوا في المجال لمن يطوف طوافاً واجباً أن يستلموا الحجر الأسود، و يقبلوه، و يقدمونهم على أنفسهم، و لا يشكّلون مانعاً أمامهم. (١)

يقول الحكيم المتأله الأستاذ إلهي قمشه اي ١ في هذا المصمار: إن الحجر الأسود هو الخال الذي على شفتي المحبوب، فقبل هذا الخال لحظة الوصال و الحضور بين يدي المحبوب. (٢)

إن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، (٣) و «كلتا يديه يمين» (٤)، فالله ليست له يد كأيدي الناس حتى نفرض له يميناً و شمالاً، إنه مجرد محض، منزّه عن الجسم و الجسمانيات، فهذا الكلام إنما هو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس.

إن المولى سبحانه و تعالى أمر- لكي يكون له محلّ ميثاق في نشأة الحسّ و الطبيعة- بوضع حجر خاصّ في أحد أركان الكعبة، تحت عنوان: «يمين الله عزّوجلّ في أرضه- و- في خلقه»؛ فالزائر عندما يستلم الحجر يبايع الله سبحانه بيده اليمين؛ لهذا لاحظنا أنه عندما سأل الإمام السجّاد (ع) الشبلي عن مصافحة الحجر الأسود، كيف اضطرب حاله، مشيراً إلى أن من يستلم الحجر الأسود فإنما يصفح الله تعالى. (٥)

و النتيجة: إن سرّ ملامسة الحجر الأسود أن يتعهد الحاج و الزائر بذلك بعهدته مع

١- وسائل الشيعة ٤٠٢: ٩- ٤٢٢.

٢- كليات ديوان إلهي قمشه اي، قسم أسرار الحج: ٩٥٦.

٣- وسائل الشيعة ٤٠٦: ٩.

٤- المصدر السابق ٤٣٢: ١١.

٥- تقدم حديث الشبلي فيما مضى، فليراجع ٧.

ص: ٢٠٤

الله سبحانه، أن لا يضع يده فى حرام أو معصية، فلا يأخذ الرِّبا و الرشوة، و لا يعطيها، و لا يمضى أمراً باطلاً، و لا يخون أمتة بعلاقته
بالغرباء و الأجانب و الأعداء و ...

ص: ٢٠٥

الفصل الخامس صلاة الطواف

إشارة

لابد بعد الطواف- وفقاً للترتيب الواجب في أعمال الحج والعمرة، و مناسكهما، من أداء صلاة الطواف، التي تحدت القرآن عن مكانها بقوله: (وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ). (١)

الكعبة مرجع البشر؛ لهذا كانت العودة لها كثيرة و الطواف حولها أكثر و لما كان الطواف متلوّاً دوماً بصلاته، عبّر عن مكان هذه الصلاة- و هو الموضع الذي وقف فيه النبي إبراهيم (ع)- بالمصلي، في تعبير مشير إلى الحضور المتواصل للمصلين فيه، و هذا ما يرشد إلى أن انعقاده للصلاة صار ملكةً فيه، إذ لا يقال: مصلي، إلّا للمكان الذي تقام فيه الصلاة دائماً.

و لابد في صلاة الطواف- انطلاقاً من روايات أهل بيت النبوة:- أن تكون إما إلى جانب مقام إبراهيم أو خلف المقام (٢)، بل التقدّم على المقام كما لو فرض المقام مأموماً يعدّ هتكاً لحرمة، لهذا تحرم صلاة المصلين و المقام خلفهم.

إن النبي إبراهيم (ع) هو أسوأ سالكي حتى الحق (٣)، و الاقتراب من موضع قدمه و

١- البقرة: ١٢٥.

٢- وسائل الشيعة ٤٧٨: ٩- ٤٨٢.

٣- الممتحنة: ٤.

ص: ٢٠٦

الحضور المادى إلى جانب مقامه الظاهرى يشكل أرضية لإدراك مقاماته المعنوية التى منها: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (١) ، (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) (٢)، (كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٣)، والأوضح هنا قوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا). (٤)

ف- (ظاهر) صلاة الطواف هو أن يقف الإنسان فى المكان الذى وقفه إبراهيم (ع)، يصلى عنده، أما (الباطن) فإدراك مكانة خليل الله والاستقرار فيها، والصلاة كصلاته، وكما يفهم من الكلام التير للإمام السجاد (ع)، يجب الانفتاح على كل طاعة، والانزجار عن كل معصية. (٥)

إن من يقيم الحج أو العمرة عارفاً بأسرار العبادة، إنما يضع قدمه موضع قدم الأنبياء والأئمة: ومع الالتفات إلى ما وجهه الإمام زين العابدين (ع) للشبلى من سؤال حول ما إذا صلى كما صلى إبراهيم و مرغ أنف الشيطان فى التراب ... هناك يصل إلى مقام إبراهيم (ع) ويقف فى مكانته، ويصلى صلاته و يذل الشيطان.

أما من يفقد عند الصلاة الخلوص والخضوع وحضور القلب، ويقع فريسةً للوساوس والدسائس و ... فلم يقف فى حقيقة الحال فى مقام إبراهيم (ع)، بل كان طعمه للشيطان، قد مرغ الشيطان أنفه فى التراب!!

التبزيك بماء زمزم

١- النجم: ٣٧.

٢- هود: ٧٥.

٣- النحل: ١٢٠-١٢١.

٤- البقرة: ١٢٤.

٥- تقدم الحديث سابقاً عن خبر الشبلى، فراجع.

ص: ٢٠٧

يستحب لزائر بيت الله، بعد الطواف و صلاته، التوجه إلى جانب بئر زمزم و الشرب منه، و أن يصبّ مقداراً منه على رأسه و يتبرّك به. (١)

و بعد شرب ماء زمزم يسأل الله تعالى العلم و غيره متّبِعاً في ذلك رسول الله (٢)، في دعائه الذي يقول فيه: «اللهم اجعله علماً نافعاً و رزقاً واسعاً و شفاءً من كلّ داء و سقم». (٣)

لقد سأل الإمام السجاد (ع) الشبليّ: هل تحدّث مع الله عند بئر زمزم و عاهده أن يقبل بكلّ طاعة له و يترك كلّ معصية؟ و عندما أجاب الشبليّ بالنفي، أجابه الإمام بأنه لم يشرف - إذاً - على ماء زمزم. (٤)

و بناءً عليه، فعلى الزائر العارف بأسرار الحج أن يقصد عندما يصبّ ماء زمزم على رأسه و صدره كأنه ينادى الله قائلاً: إلهي! لقد شربت من كأس طاعتك، و تركت كؤوس المعصية كلّها.

١- وسائل الشيعة ٣٥٠: ٩-٣٥٢، ٥١٤-٥١٥، و ٢٠٦: ١٧-٢٠٧.

٢- الكافي ٢٥: ٤.

٣- المصدر السابق: ٤٣٠.

٤- أنظر حديث الشبليّ فيما تقدّم.

ص: ٢٠٨

الفصل السادس السعي

إشارة

السعي بين الصفا و المروة أحد مناسك الحج و العمرة، فالسعي هرولة خاصة من الله و إلى الله، هي فرار و هجرة و التجاء من الله إليه و به، تماماً كما يقول الإمام الباقر (ع) حول الآية الشريفة: (فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ) (١).
: «حَجُّوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» (٢)، و هذا هو التوحيد الخالص.

لقد نصب العرب الجاهليون على جلي الصفا و المروة أصناماً، و هذا ما دفع ببعض المسلمين أن يتجنبوا السعي بين الصفا و المروة على أساس أنه سعي بين صنمين و هو غير صحيح (٣)، فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى مَا يَرْفَعُ هَذَا التَّوَهُّمَ وَالْحَذَرَ، فَقَالَ: (إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) (٤)، فالسعي بينهما كسائر الشعائر الإلهية علامة لتقوى القلب (وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ). (٥).

١- الذاريات: ٥٠.

٢- وسائل الشيعة ٥: ٨.

٣- الكافي ٤: ٤٣٥؛ و بحار الأنوار ٢٣٥: ٩٦.

٤- البقرة: ١٥٨.

٥- الحج: ٣٢.

ص: ٢٠٩

و ليس للسعي بين الصفا و المروءة استحباب نفسى، و ربّما من هنا كان جزءاً من الحج أو العمرة، لا مستحباً بنفسه، قال تعالى: (فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ).

أسرار السعي

١. السعي بين الصفا و المروءة هرولة نحو الله تعالى، كما أن التردد بين هذين الجبلين تعنى الحالة الممدوحة فى الوقوف بين الخوف و الرجاء (١)، فالمؤمن دائماً يعيش بين الخوف و الرجاء، حتّى مع اختلاف نسبته إليهما فى مراحل حياته المختلفة، و هذا ما يجلى لنا السرّ فى السعي بين الصفا و المروءة.

٢. على الحاج عندما يكون مستقبلاً فى سعيه الصفا أن يصفى نفسه، و يتحلّى بالصفاء الإلهى، و عندما يستقبل المروءة فهو يسعى للاتصاف بالمروءة و الشهامة و النبيل؛ لأنّ المروءة من المروءة، و الصفا علامة التصفية، و تهذيب الروح، كما قال الإمام الصادق (ع): «و اصف روحك و سرّك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، و كن ذا مروءة من الله نقياً أوصافك عند المروءة». (٢)

إن أصل و منشأ تشريع الذهاب و الإياب هذا هو ما حدث مع هاجر ٣، عندما سعت سبع مرّات بين الجبلين، آملّة الحصول على ماء لولدها الصغير (٣)، إلّا أنّ سرّ السعي هو ما أشرنا إليه من تحصيل الصفاء و المروءة.

و بناءً عليه، فعندما يحقق الحاج أو المعتمر سرّ السعي و يناله، فإنه لا يمدّ يده بعد ذلك

١- راجع حديث الشبلى المتقدم.

٢- بحار الأنوار ١٢٤: ٩٦.

٣- جاء فى بعض الروايات تفسير آخر لأصل هذا التشريع، و هو أن الشيطان ظهر بصورة متكررة لإبراهيم الخليل ٧ فى الوادى بين الصفا و المروءة، و كان إبراهيم كارهاً للحديث معه، فكان يفرّ إلى هذه الناحية تارةً و إلى تلك أخرى. أنظر: وسائل الشيعة ١٧٠: ٨؛ و بحار الأنوار ١٠٨: ١٢.

ص: ٢١٠

إلى الأعمال المذلة الدنيئة، لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولأقر فرار العبيد». (١)

١- بحار الأنوار ١٩١: ٤٤، وفي ٧: ٤٥، لم ترد الجملة الأخيرة بهذه الطريقة، بل «لا أقر لكم إقرار العبيد».

ص: ٢١١

الفصل السابع التقصير

إشارة

التقصير أحد أعمال الحج والعمرة، مع اختلاف أنه واجب تعيينى فى حالات، وتخييرى فى حالات أخرى، وتفصيله موكول إلى كتب الفقه.

إنّ الحلق والتقصير أثناء الإحرام يعدّان من محرّمات الإحرام، إلّا أنّهما من الواجبات فى نهايته، إذ بإنجازه تحلّ الكثير من الأمور التى كانت محرّمة على المحرم، فالحلق أو التقصير فى مناسك الحج كالتسليم فى فريضة الصلاة، فالتسليم الابتدائى والعمدى فى أثناء الصلاة حرام لكن فى نهايتها يصبح واجباً، وبالإتيان به يخرج المصلّى من حالة الصلاة، و تحلّ كلّ تلك الأمور التى كانت واجبةً عليه بهذا التسليم الخاص.

إنّ وجوب التقصير فى عمرة التمتع تعيينى، فيما هو تخييرى فى العمرة المفردة، نعم الحلق للرجال أفضل من التقصير، أما التقصير للنساء فهو تعيينى.

و دليل رجحان الحلق على التقصير فى الرجال فى العمرة المفردة هو قول رسول الله (ص) فى الذين اعتمروا عمرةً مبتولةً مفردةً: «أللهم اغفر للمحلّقين» و لما طلب منه أن يطلب المغفرة للمقصرين كثر «أللهم اغفر للمحلّقين»، و فى الثالثة أجاب: «وللمقصرين». (١)

ص: ٢١٢

يقول صاحب الفتوحات المكية معلّقاً على هذا الحديث: «الغفر الذى هو الستر للمحلّقين، و هم الذين حسروا عن رؤوسهم الشعر فانكشفت رؤوسهم، فطلب من الله سترها، ثواباً لكشفها، والمقصر ليس له ذلك، فلما لم يفهموا عنه، قال: و للمقصرين، خطاباً لهم، إذ قد قال (ص): «خاطبوا الناس على قدر عقولهم...» (١).

تساوى الرجل و المرأة فى تمصيل الكمال

الروح الإنسانية ليست مذكرةً ولا مؤنثة؛ لأنها موجود ملكوتى مجرد، و هو منزّه عن الخصوصيات المادية من الذكورة و الأنوثة، من هنا تساوت الأحكام الإسلامية بين الرجل و المرأة فى كلّ الجهات المرتبطة بالروح الإنسانية، سواء من ناحية تعليم الكتاب و الحكمة، أم تزكية الروح و تهذيبها، ولا يوجد هنا أى امتياز لأحد صنفى البشرية فى تمصيل الكمالات النفسانية، ولا يوجد أى كمال وجودى- من حيث هو كمال- مشروط بالذكورة أو ممنوع بالأنوثة.

نعم، هناك أمور تنفيذية تستدعى التواصل المباشر مع أفراد المجتمع- الأعم من الرجال و النساء- مثل قيادة الأمة، لها حساباتها الخاصة، و إلا فالولاية التكوينية التى هى أرفع مقام منبع للإنسانية يتساوى فيها الرجل و المرأة. و غرضنا من ذلك أنّ الكمالات الروحية متساوية فى الصنفين، لكنّ الوظائف البدنية لكلّ منهما تتناسب مع بنيتها الجسدية، و من أشكال الاختلاف البدنى بين الرجل و المرأة ما يظهر فى بعض أعمال الحج و العمرة، مثل قضية الحلق و التقصير، حيث الرجل مخير أحياناً بينهما و متعين عليه أحياناً أخرى، فيما المرأة مكلفة دائماً بالتقصير و لا تكلف أبداً بالحلق أو تخير بينه و بين التقصير، حيث الحلق صعب جداً على النساء و لا يتناسب معهنّ.

١- ابن عربى، الفتوحات المكية ٧٥٥: ١.

ص: ٢١٣

الفصل الثامن الوقوف في عرفات

إشارة

الوقوف في أرض عرفات في النصف الثاني من يوم عرفة- وهو يوم التاسع من ذى الحجة- هو أول مرحلة من مناسك حج التمتع بعد إحرامه، كما عرض الله تعالى مناسك الحج لإبراهيم (ع) وعلمه، وهو الحج الإبراهيمي الذي علمه رسول الله (ص).
يكفي في أهمية عرفة ما قاله الإمام الصادق (ع): «من لم يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى قابل، إلا أن يشهد عرفة» (١)، «إن من الذنوب ما لا يغفر إلا بعرفة والمشعر الحرام» (٢).

أسرار الوقوف

يقول الإمام علي (ع) حول سرّ الوقوف بعرفات: «لأنّ الكعبة بيته والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين، وقفهم بالباب يتضرّعون» (٣)، من هنا كان ليوم عرفة وليلتها أذعية خاصة، تعدّ من فضائل هذا اليوم البارزة ووظائفه الهامة.
إنّ أسرار الوقوف بعرفات كثيرة، وقد أشير إلى بعضها في حديث الشبلي المتقدم،

١- الكافي ٤٦: ٤.

٢- بحار الانوار ٢٦١: ٩٦.

٣- الكافي ٢٢٤: ٤، وانظر: المصدر السابق: ٤٦.

ص: ٢١٤

وهي:

١. على الحاج بوقوفه في عرفات أن يقف على المعارف والعلوم الدينية، ويطلع على الأسرار الإلهية في نظام الخلق، ويعلم أن الله سبحانه واقف على كل حاجاته، وقادر على رفعها بأجمعها.

من هنا يقول الإمام السجاد (ع) للسائل الذي استجده في يوم عرفة:

«ويحك! أغير الله تسأل في هذا اليوم، إنه ليرجى لما في بطون الجبال في هذا اليوم أن يكون سعيداً». (١)

إن من يطلب هنا من غير الله تعالى يضرب نفسه، هؤلاء يقول الإمام السجاد (ع) فيهم: «هؤلاء شرار من خلق الله، الناس مقبلون على الله وهم مقبلون على الناس». (٢)

٢. على الحاج أن يدرك في عرفة أن الله تعالى مطلع على ما يظهر ويعلن وما يسر ويخفي حتى ما يخفي على الحاج نفسه ويكون مستكناً بطريقه لا شعورية في أعماقه، فعندما يعلم الإنسان أن قلبه في محضر الحق تعالى ومشهده، يتجنب الذنوب الجوانحية كما يتحاشى التلوث بالذنوب الجوارحية، وينزه قلبه عن الخواطر السيئة والملوثة.

يقول الإمام السجاد (ع): «... الله عز وجل إذا كان عشية عرفة وضحوه يوم منى، باهى كرام ملائكته بالواقفين بعرفات ومنى، وقال لهم: هؤلاء عبادي وإمائي حضروني ههنا من البلاد السحيقة البعيدة شعناً غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخذانهم ابتغاء مرضاتي، ألا- فانظروا إلى قلوبهم وما فيها، فقد قويت أبصاركم يا ملائكتي على الاطلاع عليها، فتطلع الملائكة على قلوبهم فيقولون...». (٣)

تملك الملائكة بعض الاطلاع على الغيب، وعندها معلومات عن الكثير من مسائل

١- وسائل الشيعة ٢٨: ١٠.

٢- بحار الانوار ٢٦١: ٩٦.

٣- المصدر السابق: ٢٥٩.

ص: ٢١٥

ما بعد الطبيعة، إلّا أنّ ستر الحقّ تعالى ولطفه ورحمته لا يسمحان للملائكة- من أولئك المعنيين بتسجيل أعمال البشر وخواطرهم- بفهم الكثير من أسرار الناس، لكن وفقاً للحديث المتقدم يطلع الملائكة في يوم عرفة والعيد بإذن من الله تعالى على خفايا قلوب الزائرين، ويرون أنّ قلوب بعض الحجاج سوداء جداً تتعالى منها خيوط الدخان الأسود، وهنا يقول الله سبحانه للملائكة: أولئك الذين لم يصدّقوا النبي (ص) ولم يعتبروه صادقاً- والعياذ بالله- ويقولون عن بعض ما يتصل بخلافه أمير المؤمنين علي (ع): إنّ رسول الله (ص) لم يفعل ذلك ولم يصدر منه هذا! ثم يرى الملائكة فريقاً آخر قلوبهم تيرة، وهنا يقول الله سبحانه: إنّ هؤلاء كانوا يطيعون الله ورسوله، ويعتبرون النبي (ص) أميناً على الوحي وأنه لم يقل شيئاً من عنده، وأنّ كل ما قاله وأتى به- بما في ذلك الإمامة والقيادة من بعده- إنّما صدر عنه طبقاً لما جاءه من الوحي.

وسرّ ذلك كما أسلفنا فيما مضى، أنّ الولاية هي سرّ الأعمال كافة، فالمؤمنون الحقيقيون يبلغون سرّ الولاية، فيصلون أسرار الحج، فيظهرون في أرض عرفات بصورة الإنسان الواقعي، فيفتخر الله بهم في مقام الفعل.

نعم، إنّ ما جاء في الحديث الشريف ليس قضية تاريخية، وليس من نوع «قضية في واقعة» ينحصر بمراسم الحج وأيام عرفة، وعيد الأضحى، إنّ هذا المشهد مستمر متواصل، غايته أنّ ظهوره التام يكون في الحج.

٣. يصعد (١) بعض الحجاج يوم عرفة على «جبل الرحمة» (٢)، والسر في الصعود أعلى

١- إنّ ما ذكرناه في المتن أعلاه من الصعود على جبل الرحمة ناظر إلى حديث الشبلي، والّا فبناءً على رأى مشهور الفقهاء، الأفضل الوقوف يوم عرفة أسفل الجبل وفي الأرض السهلة، فيما الصعود على الجبل مكروه، فقد سئل الإمام الكاظم ٧ عن الوقوف بعرفات فوق الجبل أحب إليك أم على الأرض؟ فقال: «على الأرض..»، وسائل الشيعة ١١: ١٠. وقال الإمام الصادق ٧: «عرفات كلّها موقف وأفضل الموقف سفح الجبل»، الكافي ٤٦٣: ٤. وفي رواية أخرى ورد: «عرفات كلّها موقف وما قرب من الجبل فهو أفضل»، وسائل الشيعة ١٩: ١٠.

٢- يقع الجبل الرحمة في أرض عرفات، وقد وقف رسول الله ٩ على مرتفع حجري فيه وألقى الخطبة المعروفة بعرفات، كما أنّ الإمام الحسين ٧ قرأ دعاء يوم عرفة على سفح هذا الجبل، وتوجد هناك قبة باسم آدم ٧ تكره الصلاة عندها.

ص: ٢١٦

الجبل أن يعلم الإنسان أن الله تعالى رؤوف رحيم بكل مسلم من ذكر أو أنثى و أنه متوليهم، فالله وإن كانت له بالنسبة للجميع ولاية تكوينية واحدة، وهو ولي الجميع (١)، ومع أن رحمته عامه وشاملة للموجودات كافة (٢)، إلا أن له رحمه خاصة بالمتقين، قال سبحانه: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ). (٣)

٤. يقع على جانب من أرض عرفات يماس الحرم جبل يسمى ب- «نمرة» وفي تلك المنطقة مسجد يأخذ هذا الاسم أيضاً، إن معنى الحضور في نمرة هو: يا الله! لا آمر بشيء إلا أن أكون مؤتماً به قبل ذلك، ولا أدع شيئاً إلا وأكون قد حذرته من قبل وتجنبته.

لم ترد في شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الأمر والنهاي عادلاً طاهر النفس، وإنما المطلوب هناك هو العلم بالمعروف والمنكر، واحتمال التأثير في الأمر والنهي؛ إلا أنه باطن ذلك يرجع وفقاً للأساس الذي يقوم عليه سر الوقوف في (نمرة)؛ إن العدالة، أي أن على الأمر بالمعروف أن يأتمر بما يأمر به، والنهاي عن المنكر أن يتزجر عما ينهى عنه.

٥- على الحاج عند حضوره في وادي «نمرة» المعبر عنه في حديث الشبلي ب- «نمرات» أن يدرك أن هذه الأرض هي أرض شهادة ومعرفة وعرافان، أي كما أن الله تعالى وملائكته شاهدون، فإن هذه الأرض الواسعة هي أيضاً شاهدة على أعمال

١- الكهف: ٤٤.

٢- الأنعام: ٥٤.

٣- الأعراف: ١٥٦.

ص: ٢١٧

زوار بيت الله الحرام، وتعلم بأى نية أتى؟ وبأى دافع يرجع؟ وبماذا تشهد؟

عرفات أرض الدعاء

يتضح دور الدعاء فى الوصول إلى الرحمة الإلهية الواسعة من خلال كلام الإمام الصادق (ع)، حيث قال: «الدعاء كهف الإجابة كما أن السحاب كهف المطر»؛ (١) فكما أن السحاب مقرّ المطر، كذلك الدعاء مقرّ الإجابة وموطنها، وبعبارة أخرى: الإجابة تقع فى داخل الدعاء، تماماً كما يستقرّ المطر ويخزن فى الغمام.

إنّ حالات الحياة كلّها مناسبة للدعاء والتضرّع، إلّا أنّ فترة الحج الزاخرة المعطاءة والحضور فى مواقفه يمنح الدعاء هيبةً وعظمةً، ويقدم له تأثيراً إضافياً وافراً، فكما أنّ الدعاء من ضمير صاف مورد للقبول، وللإحرام وصبوب الكعبة الحزّ الطاهر أثراً خلاقاً فى تصفية هذا الضمير، لذلك كان للتضرّع فى الحج والدعاء فى مواقفه أفضل الآثار وأسمائها، وكان لكل برنامج فى الحج قوانينه ونظمه الخاصة فى مجال الدعاء، وعمدة ذلك كلّ هو دعاء عرفه فى صحراء عرفات.

يوم عرفه هو يوم الدعاء والتضرّع، فصحيح أن صيام هذا اليوم مستحبّ إلّا أنه لو كان الصوم موجباً لحصول الضعف للإنسان بحيث لا يتمكن من الدعاء، فإنّ الدعاء يكون مقدماً على الصيام حينئذ. (٢)

لقد نقلت لنا روايات كثيرة حول أعمال يوم عرفه وعند الوقوف فى عرفات، لاسيما فيما يخصّ كيفية الدعاء، حيث تتحدث بعض هذه المرويات عن خصوص أدعية ذلك اليوم فيما يتحدث بعضها الآخر عن الترغيب فى الدعاء للآخرين، حتّى

١- الكافي ٤٧١: ٢.

٢- بحار الأنوار ١٢٣: ٩٤-١٢٤.

ص: ٢١٨

أن بعض تلامذة أهل بيت العصمة والطهارة: كان كل همة في هذا اليوم في تلك الأرض التي تستجاب فيها الدعوات أن يدعو لغيره. ينقل على بن إبراهيم في هذا المجال عن والده إبراهيم بن هاشم أنه قال: رأيت عبد الله بن جندب في الموقف، فلم أر موقفاً كان أحسن من موقفه، مازال ماداً يديه إلى السماء، ودموعه تسيل على خديه حتى تبلغ الأرض، فلما صدر الناس قلت له: يا أبا محمد! ما رأيت موقفاً قط أحسن من موقفك، قال: والله ما دعوت إلا لإخواني، وذلك أن أبا الحسن موسى (ع) أخبرني أن «من دعا لأخيه بظهر الغيب نودي من العرش ولك مائة ألف ضعف مثله»، فكرهت أن أدع مائة ألف مضمونة لواحدة لا أدري تستجاب أم لا. (١)

قرب الله من عباده

للحج مواقف ومناسك، كل واحدة منها تحمل خصوصية لا تحويها التالية، أو تحوى قدراً بسيطاً منها، من هنا وبقرينة الحديث النبوي الشريف: «الحج عرفة» (٢)، ليس من البعيد أن تظهر في عرفات معرفة لا تتحقق في أى مكان آخر، فالحج سبب لتعالى الإنسان، ونيله أعلى قمم عالم الإمكان، أى «الخلق العظيم» بركة هذه المعرفة الخاصة التي لا تتحقق إلا في عرفات. فليوم عرفة وأرض عرفات مقام خاص ليس ميسراً إلا بأن يحقق الحاج خصائص الأزمنة والأمكنة الأخرى في الحج ليكون مهيباً لإدراك الدعاء، وبذلك تتعلق الروح بعز العرش الإلهي، فتصل إلى معدن العظيم وتصبح عظيمة. (٣)

إن لقرب الله تعالى من عباده مراتب ودرجات، حيث يمكن الوصول إلى المرحلة

١- الكافي ٥٠٨: ٢، و ٤٦٥: ٤.

٢- المحجّة البيضاء ٢٠٤: ٢.

٣- مفاتيح الجنان، المناجاة الشعبانية.

ص: ٢١٩

اللاحقة بطي ما قبلها، وخصوصية ذلك منحه شعاعاً جديداً من التضرع، وانجذاباً مستحدثاً للدعاء، إن هذه المراتب بعضها أقرب من الآخر، وهي بناءً على الآيات القرآنية كالتالي:

١. وفقاً للآية الشريفة: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ). (١)

إن القرب الإلهي بلغ أن الله تعالى في هذه الآية لم يقل لنبيه: فقل لهم، بل بادر هو إلى الجواب بشكل مباشر، مذكراً بقربه من عباده.

٢. إن الله قريب من المحتضر المشرف على الموت أكثر من قرب أقربائه ولكن الناس لا ترى ذلك، قال تعالى: (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لَكِن لَّا تُبْصِرُونَ). (٢)

٣. قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَ نَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (٣)، فهو أقرب من الإنسان من شريان حياته.

٤. إن الله تعالى أقرب إلى الإنسان من نفسه.

إن فهم هذه المرحلة فهماً صحيحاً وكذلك فهم الكلام التبر لأمر المومنين (ع): «هو في السماء على غير ممازجة، خارج منها على غير

مباينة» (٤)، إنما يسهل ذلك في ضوء قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ). (٥)

على الحاج طي هذه المراحل الأربع ليلغ نهايتها، وهذا ما لا يحصل إلّا

١- البقرة: ١٨٦.

٢- الواقعة: ٨٥.

٣- ق: ١٦.

٤- بحار الأنوار ٢٧: ٤.

٥- الأنفال: ٢٤.

ص: ٢٢٠

للموحدين الحقيقيين الخالصين.

وخلصه القول، إنه لا ريب في القرب الإلهي، والحجاب الوحيد بين العبد ومولاه هو العبد نفسه وذنوبه، «ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه» (١)، و «أن الراحل إليك قريب المسافة، وأنتك لاتحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك» (٢)، ولكي يتحرر الإنسان من هذا الحجاب لا بد له من السفر عن ذاته والرحيل، وعليه أن يهاجر عن رغباته ومراداته لكي يكون مصداقاً لقوله تعالى: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا). (٣) وإذا استطاع الإنسان أن ينجو من رؤية الذات، فإن مشاهدة الأسرار الإلهية، ونيل جنه اللقاء يصبح ميسراً مفتوحاً أمامه.

إن أيام الحج ومناسكه لاسيما أرض عرفات هي أكبر فرصة للتحرر من رؤية الذات، وللهجرة من بيت النفس، لقد بين القرآن الكريم هذه الهجرة في المكانة بقوله: (وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ) (٤)، فمن يهاجر أرض الرجز والانحطاط، ويخرج من ضيق الطبيعة، ثم يواجه موتاً أمامه، فإن أجره سيكفله الله تعالى له، قال سبحانه: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا). (٥)

١- بحار الأنوار ٣: ٣٢٧.

٢- مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

٣- النساء: ١٠٠.

٤- المدثر: ٥.

٥- النساء: ١٠٠.

مقاطع من دعاء عرفة للإمام الحسين (ع)

تخترن أديعة الحج الخاصة الكثير من البركات الزمانية والمكانية وغيرها، وأفضل مناجاة وتضرع تبين كذلك الأبعاد السياسية والعبادية للحج والزيارة هو دعاء عرفة، لسيد شهداء حيّ الشهود والشهادة الإمام الحسين بن علي (ع)، فهو في هذا الدعاء أعطى الأوامر بمواجهة الكفر، ومحاربة سبيل الطاغوت، والوقوف الشجاع أمام المجرمين، بتأسيس منهج مواجهتهم وإسقاطهم، كما أنه من جهة أخرى دّل على مدح الدولة الإسلامية وتقديرها، وظهور الولاية الإلهية، وعلى خط ثالث كشف عن التجلي الوجودي للذات الإلهية الأقدس، وظهورها الشامل التام مع خفاء كل ما سواها في ضوئها وشعاعها، وفهمه بها، وإسقاط قيمة غيرها، ومعرفة غيرها بها، لتكون ذاته الغنية عن أن يستشهد لها.

وهذه بعض ملامح ومؤشرات هذا الدعاء:

في مقطع من هذا الدعاء يتحدث عن القدرة الإلهية فيقول: «وهو للدعوات سامع، وللكربات دافع، وللدرجات رافع، وللجبابرة قانع». وفي موضع آخر يتحدث الدعاء عن عناية الله تعالى بدولته، والعيش في كنفها، والنجاة من الكفر وحكامه، إنه يخاطب الله تعالى فيقول: «... لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي وإحسانك إليّ في دولة أئمة الكفر الذين نقضوا عهدك وكذبوا رسلك، لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسرتني وفيه أنشأتني».

لقد بينت في هذا الدعاء الشريف أعلى مراتب التوحيد، ففي بعضها جرى الحديث بشكل واضح وصريح، بأن فهم الله والوصول إليه عبر آثاره وآياته كبلوغ الشمس في جو صاف وتير عبر ضوء الشمعة الضعيف، لأن الذات الإلهية الأقدس هي أظهر من كل ظاهر وأنور من كل نور، فلم تغب قط ولا تغيب أبداً، حتى تحتاج

ص: ٢٢٢

إلى من يدل عليها، والعارف لا يرى قبله سواه ثم يرى بعده آثاره.

لقد جاء في بعض المقاطع الأخيرة لهذا الدعاء ما يلي: «إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار، فاجمعني عليك بخدمته توصلني إليك، كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟ عميت (١) عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً...» (٢).

إن الإمام الحسين (ع) يخاطب هنا ربه: إلهي! وإن كان العالم كله آيات توحيدك وعلاماته لكن لا ترجعني إلى هذه العلامات، فإنك إن أرجعتني إلى العلامات الآفائية أو الأنفسية كي أصل عبرها إليك فسوف يطول الطريق، أظهر لي نفسك، فإن هذه الآثار عاجزة عن أن تجليتك بصورة ناصعة تامة، حتى أرض عرفات ومكة ومواقف الحج التي قلت فيها: (فيه آيات بينات) (٣) لا تملك ظهوراً يظهر ك ويجليك.

إلهي! أنت (الله نور السماوات والأرض) (٤)، فأنت أوضح من أي علامة وأقرب إلي منها، فلماذا تحيلني عليها؟ ربي! إن الاستدلال يكون لبلوغ الغائب فمتى كنت غائباً حتى ألتجئ إليك؟! فأنت بنفسك قلت: (أ و لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (٥)، فأنت غير محتاج إلى دليل حتى أستعين بالآيات فأصل إليك، فإظهر على قلبي بالشهود بلا واسطة حتى أراك.

١- أخطأ بعض المترجمين لهذا الدعاء عن العربية ففسروا «عميت» و «خسرت» بالدعاء على هذه العين والصفة، مع أنهما إخبار لا إنشاء تنبئان عن أمر غير مشهود.

٢- مفاتيح الجنان، دعاء عرفة للإمام الحسين. ٧

٣- آل عمران: ٩٧.

٤- النور: ٣٥.

٥- فصلت: ٥٣.

ص: ٢٢٣

من المناسب أن يكون هذا الدعاء لباً لكل العبادات، فالعبادة ليست سوى ما يحقق مجالاً لظهور المعبود لا غير، فلا يطلب بها سواه، ولا يقصد من ورائها إلا معرفته بنفسه.

لقد منح هذا الدعاء الحكماء الإسلاميين المتألهين، برهان الصديقين وعلمهم إياه، ودفع العرفاء لشهوده، وحذر العباد ووعظ السالكين، حتى يضعوا أقدامهم في الوادي الأيمن، ويطأوا الطريق لبلوغ عين الهدف، فإن الوصول إلى الله من الله، يعنى نيل المقصود من المقصد.

حضور إمام الزمان في الحج

يحضر بقية الله الحجة بن الحسن (ع) كل عام مراسم الحج، لاسيما في عرفات ومنى، وفي هذا يقول الإمام الصادق (ع): «يفقد الناس إمامهم، يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه» (١)، ويقول النائب الخاص لإمام الزمان (ع)، محمد بن عثمان العمري: «والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة، يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه» (٢).

إن الكثير ممن تربى على يديه وتلمذ يكون حاضراً في الموسم، ويطلعون بعنايته الخاصة على ملكوت الأفراد. الأمر الجدير بالذكر هنا، أنه ليس المقصود أن حلّ مشكلات الحجاج، أو أيّ عمل خارق للعادة، وكرامة تقع في أيام الحج وفي أرض منى وعرفات، لا بد أن تكون لليد المباركة لإمام الزمان (ع) دور مباشر فيها، فقد يتيه عجوز أو غريب عن

١- الكافي ٣٣٧: ١- ٣٣٨.

٢- من لا يحضره الفقيه ٥٢٠: ٢.

ص: ٢٢٤

منزله أو يظلّ بلا زاد ولا راحلة وسط الطريق، فيعيّنه ويرشده وليّ من الأولياء الإلهيين الذين تربوا فى مدرسة ولايته (ع). إنّ التشرف والحضور المباشر فى المحضر النوراني لإمام الزمان- أرواحنا فداء- يحتاج لخواص ولياقات لازمة، من هنا لا يوفق إلّا الأوحى من الموحدين كى يحضر إليه الوجود المبارك للحجة (ع)، نعم عنايته (ع) شاملة للأولياء والصالحين والشهداء الذين ربّاهم، وهم يقومون بحلّ مشكلات الآخرين بأمر منه (ع).

الفصل التاسع الوقوف في المشعر الحرام

يجب على الحاج - بأمر من الله تعالى - أن يخرج بعد غروب الشمس في التاسع من ذى الحجة من أرض عرفات، ويتجه نحو المشعر الحرام، قال سبحانه: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ) (١)، ويقضى ليله هنا.

إن الوقوف في المشعر من أركان الحج كالوقوف بعرفات تماماً، وهنا يشتغل الحجاج في بعض هذا الليل بجمع الجمار لرمى الجمرات بها فيما بعد.

المشعر الحرام يقع في الحرم وهو أول مدخل يأتى الحرم منه (٢)، فمن يعرف في يوم عرفته وأرض عرفات العلوم والمعارف الإلهية ويتعبد بالآداب الدينية الخاصة، يليق به أن يرد الحرم وأن يبيت عند مدخله فيجمع الجمار كي يرمى بها في اليوم العاشر جمرات منى والشيطان.

إن سرّ الوقوف في المشعر الحرام والمبيت فيه أن يذكر الحاج قلبه بشعار التقوى

١- البقرة: ١٩٨.

٢- الكافي ٢: ٢٢٤؛ وانظر المصدر السابق: ٤٦.

ص: ٢٢٦

ويجعل عنوان قلبه الخوف والورع (١)، فيعرف بهما، وشعار كل قوم هو المعرف لهم، وعليه فالتقوى مع وجودها في تمام مناسك الحج، إلا أن تجليها الخاص يكون عند الوقوف في المشعرالحرام ويظهر مشهوداً للواقفين على الأسرار. عندما يقف الحاج في المزدلفة، ويجمع الحصيات، إنما يأخذ بذلك القوة، ويتسلح لمحاربة الشيطان، ويهبّ مواجهاً لأي عصيان، ويخلق رأسه في محضر الطاعات.

وعندما تطلع الشمس وينتهي المبيت في المشعرالحرام، يتجه الحاج إلى منى فيدخلها، وهنا يستحب له عند حركته إليها أن يسير برفق وهدوء، ولا يتمايل يميناً ولا شمالاً، ويطوى المسافة الفاصلة بين المشعر ومنى في المسير المحدد، وسرّ هذا الحكم أن يتعلم الحاج الحركة على الصراط المستقيم، فلا يميل إلى الشرق ولا إلى الغرب؛ لأنّ اليمين واليسار انحراف، والسبيل الوسط هو الصراط المستقيم. «اليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة». (٢)

١- أنظر: حديث الشبلي المتقدم.

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ١٦، الفقرات: ٧-٨.

ص: ٢٢٧

الفصل العاشر الإفاضة إلى منى والمبيت فيها

إشارة

يتوجه الحجاج إلى منى بعد طلوع الشمس من العاشر من ذي الحجة، عقب مضيهم الليلة السابقة في سفرهم من عرفات إلى المشعر والوقوف فيه، وذلك لكي يؤدوا أعمال منى الخاصة.

وهنا يتحدث الإمام السجاد (ع) مع الشبلي فيقول له: «وصلت منى، ورميت الجمره، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصليت في مسجد الخيف، ورجعت إلى مكة، وطفت طواف الإفاضة؟...»

يحب الإنسان الخلود، من هنا يأمل في تهيئه ما يظل معه دائماً، فالذى يفكر في جمع المال يرتكب خطأ، ويكون في واقع الحال قد ترك تهيئه نفسه، ولم يجمع سوى الوزر والوبال عليه، أما ذاك الساعي في الإنتاج، والقانع في المصروف والاستهلاك، والناجح في توفير الحلال مما يملكه، أى إنه عزيز الإنتاج قليل الاستهلاك، لا يكل ولا يمل، ويحل مشاكل الآخرين طلباً لرضا الله تعالى.. إن مثل هذا الشخص يرسل رأس ماله مسبقاً إلى القيامة والديار الأبدية، وبالموت يبلغ ماله ويصل إليه.

وخلاصة القول: إن الفريق الأول لديهم أمل مذموم، أما الفريق الثانى فعنده التمنى الممدوح، ومنى هى أرض نيل الأمانى الصادقة، لا تلك الكاذبة، والآمال

ص: ٢٢٨

الباطلة، والمُنى الفاسده.

لقد سأل الإمام السجاد الشبلي فقال له: «أخرجت إلى منى؟ قال: نعم؛ قال: نويت أنك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا؛ قال: فماخرجت إلى منى».

وعليه، فعلى الناس أن ترتاح بخاطرها من لسان الحاج ويديه وقلبه، بمعنى أن الحاج لا يذهب بماء وجه أحد، لا بنحو الجد ولا بنحو الهزل تحت مسميات الطرفة والنكتة السافرة، الملفوظة أو المكتوبة، ليس ارتياح الناس من لسان الحاج ويديه، بل من قلبه أيضاً حيث لا ينال بالسوء أحداً، فالضرر القلبي والأذية القلبية هي أن يخترن الصدر حقداً على أحد أو يحسده ويضمهر له السوء.

تصفيه المناسك من العادات الجاهلية

لقد شرع الله تعالى لعرفات والمشعر ومنى أحكاماً، ولكل حكمٍ من هذه الأحكام حكمٌ مبيته، كالأمر بالتعظيم، وذكر اسم الله، وتذكره وشكره على نعمة الهداية الإلهية. (١)

ومن أرفع رسالات الحج نشر العقائد التوحيدية، فإلى اليوم مازال هناك الملايين من الناس في أرجاء العالم يعبدون الأوثان، نعم إن عبادة الأوثان اليوم لم تعد مذهباً ومدرسة عريقة راسخة، فتطور العلم سحب البساط من تحت الأصنام وعبادتها، لكن إذا لم يجر نشر العقائد التوحيدية وبسطها في أرجاء المعمورة، فإن الخطر سيظل قائماً في ضلالة الملايين من الناس يا ضلال من الآخرين، فيقعون في الإلحاد واللا دينية، فبدل أن ينتقلوا من الديانة الباطلة إلى الديانة الفضلى، ينتقلون منها إلى اللادينية!!

ص: ٢٢٩

لقد جرت سنّة الجاهلية على أنه بعد الفراغ من الحج يجتمع الناس في منى، ويتفاخرون بقوتهم وأعرافهم وأنسابهم، فيذكرون أصولهم النسبية التي يُعرفون بها وآباءهم بالشعر والنثر، معتمدين في ذلك على القيم الجاهلية، ككثره عدّة أفراد القبيلة وعدتها، وقدرتها على الحرب والغارة.

أما نظام الحج في الإسلام، فقد قضى على هذا النظام الجاهلي المهترئ واستبدله ببيان نظام إلهي قيمى هدى الناس إليه، وأمر بعد إتمام المناسك في منى بذكر الله كثيراً، وطلب المغفرة منه، وإرادة الحسنات. وقد جاء في إحدى الروايات:

قال رجل لعلى بن الحسين (ع): يا ابن رسول الله! إنّنا إذا وقفنا بعرفات و منى وذكرنا الله ومجّدهناه وصلينا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ذكرنا آباءنا أيضاً بما آثرهم ومناقبهم وشريف أعمالهم نريد بذلك قضاء حقوقهم.

فقال على بن الحسين (ع): «أولاً- أنبئكم بما هو أبلغ في قضاء الحقوق من ذلك؟» فقالوا: بلى يا ابن رسول الله. قال (ع): «أفضل من ذلك وأولى أن تجدوا على أنفسكم ذكر توحيد الله والشهادة، وذكر محمد رسول الله والشهادة له بأنه سيد النبيين، وذكر علىّ ولّى الله والشهادة بأنه سيد الوصيين، وذكر الأئمة الطاهرين من آل محمد الطيبين بأنهم عباد الله المخلصين، وبأنّ الله عزّوجلّ إذا كان عشيّة عرفه وضحوه يوم منى باهى كرام ملائكته بالواقفين بعرفات و منى، وقال لهم: هؤلاء عبادى وإمائي حضرونى ههنا من البلاد السحيقة البعيدة شعثاً غبراً، قد فارقوا شهواتهم وبلادهم وأوطانهم وأخذانهم ابتغاء مرضاتى، ألا- فانظروا إلى قلوبهم وما فيها، فقد قويت أبصاركم يا ملائكتى على الاطلاع عليها». قال: «فتطلع الملائكة على قلوبهم، فيقولون: يا ربنا اطلعنا عليها، وبعضهم سود مدلهمة يرتفع عنها كدخان جهنم؛ فيقول

ص: ٢٣٠

الله: (الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) (١)؛ تلك قلوب حاوية من الخيرات، خالية من الطاعات، مصرّة على الموزيات المحرمات؛ تعتقد تعظيم من أهناه، وتصغير من فخمناه وبجلناه؛ لئن وافونى كذلك لأشددن عذابهم ولأطيلن حسابهم، تلك قلوب اعتقدت أن محمداً رسول الله (ص) كذب على الله، أو غلط عن الله فى تقليده أخاه ووصيه إقامة أود عباد الله، والقيام بسياساتهم، حتى يروا الأمن فى إقامة الدين فى إنقاذ الهالكين، ونعيم الجاهلين، وتنبية الغافلين، الذين بئس المطايا إلى جهنم مطاياهم. ثم يقول الله عزّوجلّ: يا ملائكتى! انظروا، فينظرون فيقولون: ربنا وقد أطلعنا على قلوب هؤلاء الآخرين وهى بيض مضيئة، يرتفع عنها الأنوار إلى السماوات والحجب، وتخرقها إلى أن تستقرّ عند ساق عرشك يا رحمان.

يقول الله عزّوجلّ: أولئك السعداء الذين تقبل الله أعمالهم، وشكر سعيهم فى الحياة الدنيا، فإنهم قد أحسنوا فيها صنعا؛ تلك قلوب حاوية للخيرات، مشتملة على الطاعات، مدمنة على المنجيات المشرفات؛ تعتقد تعظيم من عظمناه وإهانته من أردلناه، لئن وافونى كذلك لأثقلن من جهة الحسنات موازينهم ولأخففن من جهة السيئات موازينهم، ولأعظمن أنوارهم، ولأجعلن فى دار كرامتى ومستقر رحمتى محلهم وقرارهم؛ تلك قلوب اعتقدت أن محمداً رسول الله (ص) هو الصادق فى كل أقواله، المحقّ فى كل أفعاله، الشريف فى كل خلاله، المبرز بالفضل فى جميع خصاله، وأنه قد أصاب فى نصبه أمير المؤمنين علياً إماماً، وعلماً على دين الله واضحاً، واتخذوا أمير المؤمنين إمام هدى وواقياً من الردى، الحقّ ما دعا إليه، والصواب والحكمة مادلاً عليه، والسعيد من وصل حبله بحبله، والشقى الهالك من خرج من جملة المؤمنين به والمطيعين له...».

ص: ٢٣١

يقول أنس بن مالك، من ذلك عن الرسول الأكرم (ص) أنه قال: «إن الله تعالى يباهى بأهل عرفات الملائكة، يقول: يا ملائكتي! انظروا إلى عبادي شعناً غرباً أقبلوا، يضربون إلي من كل فج عميق، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسألتهم لمحسنتهم، وأعطيت محسنتهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم؛ فإذا أفاض القوم إلى جمع ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله، يقول: يا ملائكتي! عبادي وقفوا وعادوا من الرغبة والطلب، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم، وشفعت رغبتهم، ووهبت مسألتهم لمحسنتهم، وأعطيت محسنتهم جميع ما سألني، وكفلت عنهم بالتبعات التي بينهم». (١)

وبناءً عليه، من المناسب لزائري بيت الله الحرام عند المبيت بمنى، التباحث حول الأصول والعقائد؛ فإن ليالي منى ليالي درس، وليست وقت إقامة حفلات الأنايس والمسامرات. وهنا يتم الحديث عن التوحيد والرسالة والولاية وأمثال ذلك، فينال الحاج فضيلة علمية ومعنوية، ويفي حق آباءه وأجداده بشكل أفضل؛ لأن نداءهم له بأن كل خير نزل علينا فإنما هو بتوفيق وإمداد إلهي، فهو خير حامد وخير محمود، فبدل التفاخر بفضائلنا، علينا أن نحمده، ونثنى على الأنبياء والأولياء الإلهيين: الذين كانوا واسطة في الفيض بيننا وبينه.

الحج فياض بإسم الله وذكره

نظراً لما يمتاز به الحج من ذكر خاص يقل مثله في سائر العبادات، فإنه يغدو أساساً لنيل الحاج شهود أمور لا يشهدها غيره، فالحج وإن كان بنفسه مذكراً بالله سبحانه، إلا أن الذهاب إلى الحج يمنح في بعض الأوقات حالة ذكرية تنسيه غير الله ولا يعير غير الله بها اهتماماً.

١- مستدرک الوسائل ٤٢: ١٠؛ ومجمع البيان ٧- ١٢٩: ٨.

ص: ٢٣٢

ذكر الله هو لبّ الحج وروحه، كما أنّ نسيان الله وآياته باعث على عدم القدرة على رؤية شهود أسرار مناسك الحج، وهو عمى سوف يظهر في يوم القيامة، تماماً كما قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى). (١)

فالحج الذي يذكر بالله تعالى، يرى الحاج ما لا يراه غيره ويكونون عاجزين عنه ومحرومين منه، ولعله لهذا السبب جعل الله الحاج حراماً، ولم يجز إحلاله من إحرامه، إنّ الحاج نفسه شعيرة من شعائر الله (٢)، وما لم يرتكب ذنباً يظل بنفسه نورانياً.. «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يَلْمَ بذنب». (٣)

تفاوت مراتب الحجّ

ينقسم الحجّاج الحاضرون في منى - وفقاً للآية الشريفة (فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً) (٤)، وما يليها من آية - إلى فريقين:

١. من يذهب للحج للسياحة، والتجارة، والشهرة، وأمثال ذلك، فمنطق هؤلاء ومطلوبهم هو الدنيا، أ كانت حلالاً أم حراماً، وليس حسناتها، من هنا فهم لا يقولون: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) وهؤلاء ليس لهم في الآخرة حظ ولا نصيب، لأنّ منتهى أفق رؤيتهم لم يكن سوى نشأة الطبيعة، قال تعالى: (فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ

١- طه: ١٢٤-١٢٦.

٢- المائدة: ٢.

٣- وسائل الشيعة ٦٨: ٨، ٣٢٨.

٤- البقرة: ٢٠٠.

ص: ٢٣٣

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ. (١)

٢. من يذهب للحج ويريد من الله حسنات الدنيا والآخرة، وهؤلاء هم من يعطيهم الله، قال سبحانه: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ). (٢)

فمن حسنات الدنيا، المال الحلال، والأرحام، والأقارب المؤمنون، وأهل الفضل، والقيام بالخدمات الاجتماعية، ومجالس الأئمة الإلهي، وتعليم الكتاب والحكمة، والتركية، وصله الرحم وغير ذلك.

و الدنيا بدون هذه الأمور ليس فيها حسنة حتى تطلب من الله.

إن أرفع الحسنات وأعلاها مصداقاً، هو أجر رسالة النبي الأكرم (ص)، أي تولى الأولياء الإلهيين وأتباع العترة الطاهرين، قال تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا). (٣)

١- المصدر السابق.

٢- البقرة: ٢٠١-٢٠٢.

٣- الشورى: ٢٣.

ص: ٢٣٤

الفصل الحادى عشر رمى الجمرات

تجذب النباتات والحيوانات والإنسان- كلُّ على طريقته- كلُّ ما يلائمه كما تدفع عنها كلُّ ما لا ينسجم معه، والجذب والدفع على مستوى الطبيعة وعلى مستوى الأفراد العاديين تارةً يظهر بصورة الشهوة، والغضب؛ وأخرى على صورة المحبة والعداوة؛ وثالثة بصورة الإرادة والكراهة ..

أمَّا فى المؤمنين فتظهر الصورة بشكل أرق، وهى التوى والتبرى، فالحج الذى يبلغ مرحلة التوى الحقيقى والتبرى الصحيح، يتجلى جذبه و توىه فى المبيت بمنى فى ذكر الله تعالى، كما يظهر دفعه و تبريه فى مناسك أيامها.

وليكن القول- مع الأخذ بنظر الاعتبار- قوله تعالى حول ذبح الأضاحى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ).

(١)

إن بيان القرآن حول مجلى التبرى- وهو رمى الجمرات- هو أن الحجاره لا ترجم الشيطان ولا تطرده، وإنما الذى يدفعه هو الانزجار الباطنى والداخلى لكم، فهذا هو الذى يجعل شياطين الجن والإنس تفرّ، ويجعلك محمياً من كل شيطنة داخلية وخارجية.

ص: ٢٣٥

ولابد من الالتفات فى مسألة رمى الجمرات إلى أن تلك الجمرات ليست شياطين، ولا ذلك الرمى للحجارة رمياً للشيطان؛ لأن رمى الجمرات كان أمراً مرسوماً فى الجاهلية، كما أن بعض شياطين الإنس اليوم يمارسون رمى الجمرات هذا، فمن البديهي أن الشيطان لا يطرد برميه فيها سبعة أحجار، وإنما السبيل الوحيد لطرده والبقاء فى مأمن من ضرره هو الاستعاذة العملية، والتحصن بالحصن الإلهي، قال تعالى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ). (١)

إن رمى الجمرات بالحجارة ما هو إلا تعبير رمزي وإشاري إلى رمى الشيطان الداخلى والخارجي، وطرد شياطين الجن والإنس، فإذا كان هناك شخص هو بنفسه شيطاناً إنسياً، فإنه لن ينال شرف التبرى، والرمى الحقيقى ولا لياقتهما، تماماً كما إذا كان الشيطان قريناً لشخص (٢)، فإنه لن يتمكن من رمى قرينه، أى شيطانه.

إشارة: جرت سنة العرب وعادتهم على أنه إذا غضبوا من شخص غضباً استثنائياً، فإنهم يرمونه فى حياته ومماته، كما حصل مع أبى رغال، قائد جيش أبرهه، فقد مات قبل الوصول إلى مكة، فعمد الناس إلى رجم قبره، وكذلك جرير الذى كان منافساً للفرزدق، نجده يقول:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبى رغال. (٣)

١- الأعراف: ٢٠٠.

٢- الزخرف: ٣٦؛ النساء: ٣٨.

٣- دائرة معارف القرن العشرين ٤٦٥: ٩.

ص: ٢٣٦

الفصل الثاني عشر ذبج الأضاحي

إشارة

يجب على الحجاج بعد رمي جمرة العقبة، وقبل حلق رؤوسهم، أو التقصير، ذبح بقره أو غنم أو نحر جمل أضحية يوم العيد، قال تعالى: (وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ... فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ). (١)

إن هذه السنة الإلهية الخاصة في الحج توجب تقرباً خاصاً قلماً نجده في أى عبادة أخرى.

وتوضيح ذلك أن الذبح أو النحر، لم يسلم في الجاهلية من لوث الشرك، بل كانا كالتلبية (٢)، وصلاة المشركين (٣)، ممزوجين بالشرك، فطريقتهم أنهم بعد الذبح أو النحر كانوا يلطخون الكعبة بدم الأضحية، ويعلقون قسماً من لحمها على الكعبة حتى يقبلها الله تعالى! (٤)

أما الإسلام، فقد جعل للأضحية حرمة خاصة، بحيث لا يجوز إحلالها، قال

١- البقرة: ١٩٦.

٢- الكافي ٥٤٢: ٤.

٣- الأنفال: ٣٥.

٤- بحار الأنوار ٢٧٥: ٦٧.

ص: ٢٣٧

تعالى: (لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْآلَانَ). (١)

ولإبعاد سنّة الجاهليّة، وبياناً للتقرب الناتج عن تقديم الأضحية، ربما سميت الأضحية أضحية، قال تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ) (٢)؛ لأنّ هذه الآية الشريفة طهرت الكعبة من سنن الجاهلية التي أشرنا إليها، كما طردت التوهم القائل: «بما أنّ الله لا يحتاج للعالم وللناس، فلا يجب النحر والذبح على الحاج!» وذلك أنها شرّعت أصل التضحية رغم أنّ الله لا يحتاج إلى لحومها، فالذي يصل إلى الله تعالى روح الفعل ولبّ العمل، أي التقوى، لا اللحم ولا الدم.

ومن حيث إنّ التقوى نعت وصفة خاصة تتحد مع المنعوت، فلا فرق وجودي بين التقوى، ونفس المتقى المتحد معها، وعليه فإذا بلغت التقوى أوجها وكمالها، ووصلت - بالمعنى المعقول - إلى الله تعالى، فهذا معناه أنّ الحاج الذي تكون أضحيته خالصة لله تعالى، يصل بنفسه إلى الله كما تصل تقواه إليه تعالى؛ لأنّ تقواه ليست شيئاً غيره في عالم الوجود، ولعلّه لهذه التقوى الثمينه التي وعد بها في النحر، أطلق على يوم النحر يوم «الحج الأكبر». (٣)

إنّ هذه التقوى ونيل نفس المتقى لله تعالى، هما الهدف الرفيع الذي يكون الحج وآدابه وسننه المتعالية مظهراً له، وقد سبقت الإشارة لذلك عند حديثنا عن سرّ الحج وثمراته، فليراجع.

وقفات حول التضحية و أسرارها

يمكن انطلاقاً مما تقدّمت الإشارة إليه، الحديث عن بعض النقاط ذات الصلة، وهي:

١- المائدة: ٢.

٢- الحج: ٣٧.

٣- التوبة: ٣؛ وسائل الشيعة ٨٦: ١٠-٨٨؛ وانظر المباحث السابقة.

ص: ٢٣٨

١. إنَّ الحكمة من التضحية هي تقرب المضحي وتعالیه مع تقواه نحو الله تعالى، فما يصل إلى الله إنما هو روح العمل وباطنه، قال تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ). (١)
- وعليه، إنما تقبل الأضحية إذا كانت التقوى معها، وكان روح ذبحها أو نحرها هي التقوى، ووفقاً للآية الشريفة: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) (٢)، لا يقبل أى عمل بلا تقوى، كما أنه لو كان العمل مع التقوى لكن عامله لم يراع تقوى الله في غير هذا العمل، فإنَّ هذا العمل وإن قبل منه، لكن لا يرتفع إلى الله كما ينبغي؛ لأنَّ الله تعالى إنما يقبل العمل من العامل الذي تكون كل شؤونه - سواء في هذا العمل أم في غيره - قائمة على التقوى ومنظمةً وفقها.
٢. كل عمل يقع بقصد القرية فهو أضحية، حيث ورد في بعض الأحاديث «إن الزكاة جعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام». (٣)
٣. سرّ تقديم الأضحية أنَّ الحاج والمضحي يتمسكان بحقيقته الورع، ويقطعان رقبته الشيطان ويقتلانه (٤)، وعليه فمجرد ذبح البقرة، أو الماعز، أو نحر الجمل، ثم تركها دون تأمل في سرّ هذا العمل، لا يحقق أساس تعالى الحاج وتساميه.
٤. يقول الإمام الباقر (ع): «إنَّ الله عزوجل يحب إطعام الطعام وإراقة الدماء» (٥)؛ ومن الممكن أن تكون الحكمة من ذلك في ضمن حكمة استفادة الجوعى والمحرومين، وانتفاعهم من لحم الأضحية، رغم أنه في هذا الزمان لا يستفاد بشكل صحيح ومناسب من هذه السنّة الإلهية، وهذا النظام الجامع والمفيد.

١- الحج: ٣٧.

٢- المائدة: ٢٧.

٣- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٩، الفقرة: ٧.

٤- أنظر حديث الشبلي المتقدم.

٥- وسائل الشيعة ٣٧٤: ١٦، وفي صفحة: ٥٣٦ نقلت الرواية عن الإمام الصادق ٧ أيضاً.

ص: ٢٣٩

في حديث آخر نشاهد فيه الاهتمام بذبح القرابين والأضاحي؛ يقول الإمام الصادق (ع): «إن رسول الله (ص) ساق في حجته مائة بدنة، فنحر نيفاً وستين، ثم أعطى علياً فنحر نيفاً وثلاثين، فلما قدم النبي (ص) مكة فطاف وسعى، نزل عليه جبرئيل...» (١). وقد نقل هذا الحديث بشكل آخر أيضاً.

٥. إن هذه الآية الشريفة: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) (٢). اعتبرت ذكر الله سبحانه هدفاً إلى جانب المنافع الصورية والمعنوية للأمة الإسلامية، وجعلت بدل ذكر اسم القربان، ذكر اسم الله تعالى، وذلك حتى يعلم أن الهدف من التضحية هو تسمية الله سبحانه، لا مجرد الذبح والنحر، فبدل أن يقول: ليضحوا، قال: أن يذكروا اسم الله أن رزقهم من الأنعام الحلال كالأغنام، بحيث تبدأ التضحية باسم الله، ويذكر الله أيضاً على تمام النعم التي قدمها للناس جميعاً على امتداد حياتهم.

٦. لم يذهب سيد الشهداء الإمام الحسين (ع) إلى منى عام ٦٠ هـ، إلا أنه قدم أضاحي كثيرة وثمينه، كما قدم نفسه الشريفة فداء، لكي تبقى مكة ومنى؛ من هنا عرف الإمام السجاد (ع) نفسه في الشام بقوله: «أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن مروة والصفاء» (٣). وعليه، فمن يقدم نفسه فداء لله تعالى، فإنه يرث من منى وعرفات، لأن الأرض مال الله وهو يورثها لمن يريد؛ قال تعالى: (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ) (٤)، كما أن أرض الكمال تعود إليه، ويمكنه أن يورثها من يشاء، وعلى هذا الأساس فإن كل

١- وسائل الشيعة ١٦٨: ٨.

٢- الحج: ٢٨.

٣- بحار الأنوار ١٦١: ٤٥، وقد تقدم منا توضيح مفصل نسبياً حول علاقة الحج بالولاية فيما مضى من أبحاث فليراجع.

٤- الأعراف: ١٢٨.

ص: ٢٤٠

شهداء وسالكي طريق الإمام هم ورث عرفات، والمشعر، ومنى، وأسرارها.

ص: ٢٤١

الفصل الثالث عشر ملق شعر الرأس

إشارة

لشعر الرأس تأثير كبير على الجمال الظاهري للإنسان، ولاسيما الشباب، من هنا يندر أن نجد من يخلق شعر رأسه تماماً، وقد ورد أن من يخلق رأس غيره عن إجبار ويسلبه هذا الجمال، فإنّ عليه ديةً واجبةً.

ومع ذلك، يجب على الحاج أن يقطع قلبه عن هذا الجمال الظاهري والصوري الذي يظنه أمراً ذا قيمة، ويقوم- بأمر من الوحي الإلهي- بنثره أمام أقدام الجميل المحض، وطلباً لرضاه.

لقد بلغت صعوبة هذه القضية مبلغاً بين العرب، أن ابن أبي العوجاء- بعد خسارته في المناظرة التي جرت بينه وبين الإمام الصادق (ع)- سئل عنه: كيف وجدت الإمام الصادق (ع) في المناظرة؟ فأجاب مشيراً إلى الحجاج وقال: «... هو ابن من خلق رؤوس من ترون!». (١)

إنّ خلق شعر الرأس في منى إشارة إلى التطهر من تمام التلوثات الأخلاقية، والتنظف من صدأ الروح، والخروج من ثقل الذنوب وظلمتها. (٢)

١- بحار الأنوار ٢١٠: ١٠.

٢- أنظر حديث الشبلي المتقدم سابقاً.

ص: ٢٤٢

ولعله لذلك يدعو الحاج ربّه، فيقول عند الحلق: «اللهم أعطني بكل شعرة نوراً يوم القيامة». (١)

استمباب دفن شعر الحاج في منى

من وجب عليه في الحج الحلق أو التقصير، لزمه - إضافة إلى مراعاة ترتيب الأعمال يوم العاشر من ذى الحجة، أى رمى جمرة العقبة، ثم ذبح الهدى، ثم الحلق أو التقصير - أن يقوم بهذا كله فى أرض منى، وليس له الحق أن يحلق أو يقصير عمداً خارج منى، لكنه لو نسى وكان عوده إلى منى عسيراً، أجزأه الحلق أو التقصير خارجها.

إن أرض منى أكثر الأمكنة مناسبة لدفن شعر الحاج، ليس فقط من باب عدم سلامة إخراج الشعر من منى عند الحلق فيها، بل حتى لو حلق خارج منى لزمه العود إليها لدفن الشعر، أو إرساله كى يدفن هناك.

يقول الإمام الصادق (ع): «إن المؤمن إذا حلق رأسه بمنى ثم دفنه، جاء يوم القيامة وكل شعرة لها لسان تلبى باسم صاحبه» (٢)، فعندما يقال: إن شعري يشهد بالتوحيد، فإنّ هذا القول مأخوذ من الروايات. (٣)

١- وسائل الشيعة ١٩٠: ١٠.

٢- المصدر السابق: ١٨٤.

٣- بحار الأنوار ١٣٩: ٤٥، و ٢٠٩: ٩٤.

ص: ٢٤٣

الفصل الرابع عشر نهاية الحج

الدخول والخروج الصادق

كما كان الله تعالى مبدأ عالم الوجود ومنتهاه (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ) (١)، كذلك مبدأ انطلاق كل الموجودات من الله وخاتمتها وأعمالها بالرجوع إليه (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (٢)، (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ). (٣)

بناءً عليه، لزم أن يبدأ كل موحد عمله وأى عمل، باسم الله تعالى، و تكون خاتمة عمله ذكره سبحانه، ولا يشرع بعمل دون اسم الله، ولا يخرج من أى عمل دون ذكر الله، إن معنى اسم الله وذكره، فى بداية ونهاية أى عمل، هو حضور الاعتقاد التوحيدي فى بنية عمله، والانتباه إلى الحضور الإلهي فى أعماله ومستوياتها.

ومن أهم هذه الأمور الحج؛ لأن بدايته والدخول فيه يكون بالإحرام والتلبية، وعلى أساس التوحيد وصدق النية، كما أن الخروج منه، وإتمام الحج، ووداع الكعبة، يقوم على أساس التوحيد وصدق الإرادة. (٤)

١- الحديد: ٣.

٢- البقرة: ١٥٦.

٣- الشورى: ٥٣.

٤- الإسراء: ٨٠.

ص: ٢٤٤

من هنا يقول الإمام الرضا (ع) عند وداع الكعبة: «اللهم إني أنقلب على أن لا إله إلا أنت» (١)؛ أي إني يا إلهي أنهى عملي، وأعود مجدداً إلى مكة على أساس التوحيد ونفي مختلف أشكال الطواغيت.

وعن هذا المحور العام يقول الإمام الباقر (ع) في حديثه عن الدخول في الكعبة، وهو المصداق الكامل (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) (٢)، يقول (ع): «الدخول فيها دخول في رحمة الله، والخروج منها خروج من الذنوب». (٣)

ومن آداب وداع الكعبة الدعاء والتضرع لله سبحانه، يقول الإمام الصادق (ع): «اللهم اقلبني مفلحاً منجحاً مستجاباً لي بأفضل ما يرجع به أحد من وفدك من المغفرة والبركة والرضوان والعافية مما يسعني أن أطلب ..». (٤)

ومن الآداب الأخرى، أن يضع الحاج أو الزائر يده على الكعبة عند آخر لقاء معها، ويقول مخاطباً ربّه: «المسكين على بابك، فتصدق عليه بالجنة». (٥)

الحج المقبول

يقول الرسول الأكرم (ص) في بيانه لمعيار الحج المقبول: «من علامة قبول الحج، إذا رجع الرجل عما كان عليه من المعاصي، هذا علامة قبول الحج، وإن رجع من الحج، ثم انهمك فيما كان عليه من زنا، أو خيانة، أو معصية، فقد ردّ عليه حجّه» (٦)، و «آية قبول الحج ترك ما كان عليه العبد مقيماً من الذنوب». (٧)

١- وسائل الشيعة ٢٣٢: ١٠.

٢- البقرة: ١١٥.

٣- وسائل الشيعة ٣٧٠: ٩.

٤- المصدر السابق ٢٣١: ١٠-٢٣٣.

٥- المصدر السابق.

٦- مستدرک الوسائل ١٦٥: ١٠-١٦٦.

٧- المصدر السابق: ١٦٦.

ص: ٢٤٥

إنّ هذا ما يشير إلى سرّ آخر في الحج؛ لأنّ أسرار العبادات تظهر في القيامة، وهي اليوم الذي تظهر فيه بواطن الأفراد وأعمالهم. (١)
وفي ذلك اليوم لا يرى الإنسان نتائج عمله فحسب، بل أسباب ردّها أو قبولها أيضاً.
وبناءً عليه، فمن تمكّن في الدنيا أن يفهم قبول حجّه أو نكوله، فقد بلغ زاويةً من زوايا أسرار الحج، وتلقائياً سوف يدرس أسباب القبول أو الردّ حينئذٍ.

إنّ المعيار الذي قدّمه كلام رسول الله (ص) حول علامات الحج المقبول، يتحقق في سائر العبادات أيضاً، تماماً كما يقول الله تعالى حول الصلاة: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) (٢)، فحقيقة الصلاة لها أثر تكويني في المصلّي، بحيث تؤدي إلى إيجاد تحولات وتعديلات في دوافعه، وإراداته، ورجباته، وقراراته، وعزمه و... فهو بالنسبة إلى الخير عازم ومصمم، وبالنسبة إلى الشرّ كاره ومستقذر، يختار الابتعاد عنه.

إنّ الأحاديث المتقدّمة تبين لنا أنّ روح الحج وحقيقته أمر تكويني، وهي التي تحول دون عزم الحاج أو إرادته ما لا يليق ولا ينبغي.
وخلاصة القول: الحاج يتطهّر بالقيام بأعمال الحج من كل ألوان التلوّث، ومادام لا يلوّث بذنب أو قذاره فهو نوراني، كما يقول الإمام الصادق (ع): «الحاج لا يزال عليه نور الحج ما لم يلمّ بذنب». (٣)

١- الطارق: ٩.

٢- العنكبوت: ٤٥.

٣- وسائل الشيعة ٦٨: ٨، ٣٢٨.

ص: ٢٤٤

إنّ مشاهدة هذه النورانية تجعل الحاج آملاً بقبول حجّه من الله تعالى.

ارشادات النبي (ص) في حجة الوداع

وختاماً نحاول أن نتعلّم من الكلمات النورانية لخاتم النبيين (ص) في حجة الوداع، بعضاً من نظام الحج وأسراره. (١)

خاتم الأنبياء (ص) إنسان كامل يتحلّى بالكمالات الظاهرة، والمقامات المعنوية، من هنا قال في تعليمه أحكام الحج الفقهية والعملية: «خذوا عني مناسككم» (٢)؛ تماماً كما قال حول تعليم أحكام الصلاة: «صلّوا كما رأيتموني أصلي». (٣)

وقد تحدث رسول الله (ص) حول تعليم أسرار الحج وبيان بعض زواياه في حجة الوداع، و ذكر بعض التوجيهات، ومنها:

١. تهذيب النفس وتزكية الروح في المحاور الثلاثة: التوحيد، الارتباط بالإمام، والاتحاد والاتفاق وحفظ الانسجام العام بين المؤمنين، قال (ص): «ثلاث لا يغفل عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة لأئمة المسلمين، واللزوم لجماعتهم». (٤)

وعليه، فالحاج يعبد الله سبحانه، مع إخلاص العمل الكامل الذي لا تشوبه شائبة في الدين، وينصح أئمة وقادته، ويريد الخير لهم، ويلزم المجتمع الإسلامية.

١- حج رسول الله ٩ في حياته ٢١ مرة، كانت واحدة منها فقط بعد الهجرة، ورغم أنه في ذى القعدة من العام السادس والسابع والثامن بعد الهجرة قد اعتمر، عمرة الحديبية في العام السادس، وعمرة القضاء في العام السابع كما اشتهرت التسمية، إلّا أنه ٩ بعد الهجرة لم تتسنّ له فريضة الحج إلّا مرة واحدة في العام العاشر للهجرة، وهي المعروفة بحجة الوداع، وأحياناً تسمى حجة الإسلام وحجة البلاغ، وقد تحدّثت النصوص الحديثية عن هذه الحجة، واعتبرت أساساً لأعمال الحج عند المسلمين. أنظر الكافي ٢٤٤: ٤ - ٢٥٢؛ وبحار الأنوار ٣٧٨: ٢١ - ٤٠٧.

٢- عوالي اللئالي ٢١٥: ١.

٣- المصدر السابق: ١٩٧.

٤- الكافي ٤٠٣: ١ - ٤٠٤، والجملّة الأخيرة جاءت في تاريخ يعقوبى ١٠٩: ٢، على الشكل التالي: «والنصيحة لأئمة الحق واللزوم لجماعة المؤمنين» وقد جاءت هذه الخطبة في حجة الوداع في مسجد الخيف في منى.

ص: ٢٤٧

٢. إقامة الأمن على مختلف الصعد، وحفظ أموال الناس ودمائها من الاعتداء، قال (ص): «فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم ... واتقوا الله، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها». (١)
- وعليه، فعلى الحاج أن يكون أميناً على أعراض الناس وأسرارها، فإن قلوب الأحرار كنوز الأسرار.
٣. حفظ مبدأ المساواة الشخصية والعرقية، قال (ص): «الناس في الإسلام سواء ... لأفضل عربى على عجمى ولا عجمى على عربى إلا بتقوى الله»، فالحاج قاصد لمساواة الخلق، ولا يرى نفسه خيراً منهم، ولا قومه خيراً من الآخرين، بل يساوى بين الناس والأمم والشعوب.
٤. تطهير المجتمع الإسلامى وتصفيته عن العادات الجاهلية في قضايا المال والدم والبغض والحقد والضعينة، بمعنى أن الدماء التي كانت تراق في الجاهلية على قانون الانتقام والثأر والأحقاد قد انتهت، وتهاوى الربا الذى يمثل امتصاصاً اقتصادياً لدماء الناس، قال (ص): «كل دم كان في الجاهلية موضوع تحت قدمى ... وكل رباً كان في الجاهلية موضوع تحت قدمى، و أول رباً أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب».
٥. رعاية حقوق المرأة، وحسن التعامل معها، ومجازاتها بالعدل، قال (ص): «أوصيكم بالنساء خيراً ... ولكم عليهن حق، ولهن عليكم حق، كسوتهن، ورزقهن بالمعروف».
- وعليه، فالحاج ناظر مراقب لمراعاة الآيات القرآنية الشريفة: (وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً

١- تاريخ اليعقوبى ١٠٩: ٢-١١٢، إن ما سننقله بعد الآن من كلمات، هو جزء من خطبة أخرى للرسول ٩ في حجة الوداع، وما ذكرناه أعلاه ذكره اليعقوبى في الخطبة التي ألقى عند بئر زمزم، وقد جاءت هذه الخطبة عينها بنص مختصر، وبعض الاختلاف في العبارات، بوصفها خطبة للنبي في عرفات أو منى، في مصادر أخرى. أنظر: الكافي ٢٧٣: ٧-٢٧٥؛ وبحار الأنوار ٣٨٠: ٢١، ٤٠٥، و ١١٣: ٣٧، و ٣٤٩: ٧٣.

ص: ٢٤٨

وَرَحْمَةً (١)، (هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) (٢)، و (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ). (٣)

٦. احترام حقوق العمال والعيبد، ورفع حاجاتهم في المأكل، والمشرب، والملبس، «فأوصيكم بمن ملكت أيمانكم، فأطعموهم مما تأكلون و ألبسوهم مما تلبسون».

فالحاج يحبّ العاملين عنده، ولا يرى نفسه أرفع منهم، بل يجلس معهم على سفرة واحدة، ويلبسهم مما يلبس.

(ع). مراعاة أصول الأخوة، والفضائل الأخلاقية مع الأخوة في الدين، والمحافظة على مكانتهم، و ماء وجههم، وعلى أموالهم، ودمائهم؛ قال (ص): «إنّ المسلم أخو المسلم، لا يغيّسه، ولا يخونه، ولا يغتابه، ولا يحلّ له دمه، ولا شيء من ماله إلا بطيبة نفسه».

إنّ الحاج يراعى مع أخيه المسلم قواعد الأخوة الدينية، فهو طاهر ولا يقصد إلا ما هو طاهر نقي.

٨. تكريم القرآن، وأهل بيت النبوة والإمامة، وكسب الإلهام منهما، وعدم الانفصال عنهما: «إني قد خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

فالحاج يتمسك بحبل الله، ومن تمسك بهذا الحبل نال الهداية. (٤)

٩. أن يعتبر الجميع مسؤولين أمام القانون الإلهي، ويدافع عن أحكام الإسلام، ويبلغ ما رآه في مشهد الحج وزياره الكعبة لغيره، قال (ص): «إنكم مسؤولون، فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

فالحاج فقيه لمن لم يحضر من المسلمين المشاهد والمواقف، ولم يدرك الحرمين، وما

١- الروم: ٢١.

٢- البقرة: ١٨٧.

٣- البقرة: ٢٢٨.

٤- آل عمران: ١٠١.

ص: ٢٤٩

فيهما من لقاءات وتجمّعات.

١٠. طرح ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وتعريف الأمة بإمامها، واعتبار إطاعته كطاعة النبي (ص)، وفي نهاية المطاف إيجاد حياة إسلامية معقولة، والنجاة من حياة الجاهلية.

عندما رجع الرسول (ص) إلى المدينة، قال في غدیر خم: «من كنت مولاه فعليّ مولاه، أللهم وال من والاه، وعاد من عاداه» (١)؛ فبوصول الإمام علي (ع) إلى هذا المقام، تمت النعمة وكمل الدين. (٢)

١- تاريخ اليعقوبي ١١٢: ٢، والكافي ٢٩٥: ١.

٢- المائدة: ٣.

ص: ٢٥٠

القسم الرابع: الزيارة

القسم الرابع الزيارة

الفصل الأول إتمام الحج والعمرة بالزيارة

إشارة

ص: ٢٥١

ثمة في «إتمام الحج والعمرة» المأمور به في الآية الشريفة (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ) (١)، أبحاث فقهية حول دلالتها على تحصيل الأجزاء والشرائط، وتجنب الموانع، كما جاء في بعض الروايات أن تشرف الحاج بزيارة الإمام المعصوم (ع) هو من مصاديق إتمام الحج.

ومن الطبيعي أنه ليس المراد من الزيارة المدعو إليها في الحج هو زيارة القبور فقط، وإن كانت هذه الزيارة من حقوق الولاية، وإنما المراد لقاء القائد الإسلامي، والوعى بمراتب الولاية، وعرض النصرة عليه، تماماً كما أن الهدف من الحضور إلى

١- البقرة: ١٩٦. والإتمام تارة يكون بلحاظ الامتداد الزماني، مثل الإتمام المأمور به في قوله تعالى: ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ البقرة: ١٨٧، وأخرى بلحاظ رعاية تمام الشروط والقيام بتمام الأجزاء وتجنب تمام الموانع المانعة عن الفعل المأمور به، وهذا مثل قوله تعالى: وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، وعلى هذا الأساس فإتمام الحج هو الإحرام من المواقيت المعينة وسائل الشيعة ٢٣٤: ٨، ٢٤١-٢٤٣، وقد اعتبر لقاء الإمام المعصوم ٧ من المصاديق الباطنية لإتمام الحج، كما اعتبرت مراعاة التقوى الإلهية وتجنب اللغو واللغو من مصاديقه أيضاً، وفي هذا يقول الإمام الصادق ٧: «إتمامها أن لارفت ولافسوق ولاجدال في الحج» وسائل الشيعة ١١٠: ٩ وهذا معنى أن الآية اللاحقة لهذه الآية هي المبينة للمراد من الإتمام، كما قال ٧ في رواية أخرى حول ذلك: «إذا أحرمت فعليك بتقوى الله وذكر الله كثيراً وقلة الكلام إلا بخير، فإن من تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير». الكافي ٣٣٨: ٤.

ص: ٢٥٢

قبره هو السلام عليه، والدعاء والتضرع بمحضر الله المتعال سبحانه.

وهذه بعض الروايات الواردة في هذا المجال:

١. يقول الإمام الباقر (ع): «إنما أمر الناس أن يأتوا هذه الأحجار فيطوفوا بها، ثم يأتونا ويخبرونا بولايتهم ويعرضوا علينا نصرهم». (١)
 ٢. يقول الإمام الباقر (ع): «تمام الحج لقاء الإمام» (٢)، أى أنه المصداق البارز لإتمام الحج، فالحج بدون لقاء الإمام غير تام.
 ٣. ويفسّر الإمام الصادق (ع) ظاهر الآية الشريفة: (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ) (٣)، بتقصير شعر الشارب، وقصّ الأظفار وأمثال ذلك، لكنه يذكر أن باطنها (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)، هو لقاء الإمام، كما أن (وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ) هو القيام بمناسك الحج. (٤)
- فعلى أساس هذا الحديث يكون ظاهر الآية إصلاح البدن، أما باطنها فأصلاح الباطن بلقاء الإمام (ع).

فضيلة التشرف بزيارة المدينة بعد الحج

يستفيد الحاج لأداء مناسك الحج والعمرة عن طريق المدينة إلى مكة، أنه يكسب فضيلة الإحرام من مسجد الشجرة، وهو المكان الذى أحرم منه رسول الله (ص)، أما الذين يتوجهون إلى المدينة بعد الحج، فإنهم يكسبون فضيلة أخرى وردت فى الروايات، فقد سئل الإمام الباقر (ع) عن جعل مكة أو المدينة بدء سفر الحج؟ فقال: «إبدء بمكة واختم بالمدينة، فإنه أفضل» (٥)، وفى حديث آخر قال (ع): «ابدؤوا بمكة»

١- الكافي ٥٤٩: ٤.

٢- المصدر السابق.

٣- الحج: ٢٩.

٤- الكافي ٥٤٩: ٤.

٥- المصدر السابق.

ص: ٢٥٣

واختموا بنا». (١)

وطبقاً لبعض الروايات (٢)، وللكتير من المنقولات الآتية من المشاهدات في زمن الغيبة، إنَّ حضور إمام الزمان (أرواحنا فداه) في موسم الحج ومراسمه كل عام أمر مسلّم، لكن حيث إنَّ التشرف بلقائه (ع) لا يكون إلَّا نصيب الأوحدي من الناس، لذا ورد في روايات متعدّدة، الأمر بزيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة، وعرض مظاهر الأدب والمحبة بين أيديهم وفي محضرهم. (٣)

١- الكافي ٥٤٩: ٤.

٢- المصدر السابق ٣٣٧: ١؛ من لا يحضره الفقيه ٥٢٠: ٢.

٣- وسائل الشيعة ٢٥١: ١٠-١٠٠: ٤٥٥.

الفصل الثانی الزیارة حضور فی مقام الإنسان الكامل

لأهل بیت العصمة والطهارة: - من حيث كونهم الإنسان الكامل ومظهر الاسم الأعظم الإلهي - مزايا وجودية خاصة تستدعي حقوقاً واستحقاقات خاصة أيضاً.

وللتعرف على وظائف الآخرين تجاه هذه الذوات المقدسة، من اللازم الإشارة إلى بعض خصائصهم حتى يتسنى العلم بواجب الآخرين تجاههم، أي العلم بمقامهم.

۱. أهل بیت الوحي: هم الجامعون للكلام التكويني والتدويني، والواجدون لكتاب الحقيقة والشريعة، الشاملون لنشأتی الحقيقة والاعتبار، ويقصد بجامعتهم العلمية والعينية أنهم حائزون على كل كمال ممكن بلانقص، وأن كل ما عندهم مصون من العيب، وكل ما عندهم في مرحلة الحدوث فهو عندهم في مرحلة البقاء أيضاً.

۲. لاسييل لمعرفة الإنسان الكامل إلّا بصيرورة الإنسان كاملاً، وعليه، فلا يمكن إدراك كنه ذاتهم النورية لغيرهم، لا بالعلم الحضوري والمعرفة العرفانية الشهودية، ولا بالعلم الحصولي والمعرفة الحكمية الفلسفية، هم الكاملون ومظهرو الله الذي قيل فيه: «لا يدركه بعد الهمم ولا يناله غوص الفطن» (۱).

وبعد اتضاح أن إدراك مقام الإنسان الكامل غير مقدور لغيره، نأتى للحديث عن

ص: ۲۵۵

وظيفة الآخرين تجاهه، فوظيفة المجتمع الإنساني أن يدرك بعقله حقانية أهل بيت العصمة:، وبقلبه محبتهم، ويحيى بجسمه وروحه ذكرهم وإسمهم، كالعطشان الذي يبلغ الكوثر الزلال، فيبرد كبده الحزى به، ويقر عينه، ويبعث الحياة في قواه المتهالكة، فيبعث النشاط في نفسه، ويرطب فمه الجاف «وبينكم عترة نبيكم وهم أئمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش». (۱)

ويمكن شرح وظائف المجتمع الإنساني بكلمات الإمام الهادي (ع) النيرة في الزيارة الجامعة الكبيرة حيث يقول: «أشرق الأرض بنوركم، وفاز الفائزون بولايتكم، بكم يسلك إلى الرضوان، وعلى من جحد ولايتكم غضب الرحمن». (۲)

۳. الإنسان الكامل خليفة الله، والمظهر التام لبسيط الحقيقة، وهو الآية الكبرى ل-: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (۳)، من هنا لا يكون في كل عصر أكثر من خليفة مطلق واحد، وهو شخص واحد جامع لكافة الشؤون الكمالية.

۴. جاء عن رسول الله (ص): «نحن أهل بيت لا يقاس بنا أحد» (۴)؛ وهو ما ذكره أمير المؤمنين (ع) بعبارة أخرى حيث قال: «لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبدأ؛ هم أساس الدين، وعماد اليقين، إليهم يفى الغالى، وبهم يلحق التالى، ولهم خصائص حق الولاية، وفيهم الوصية والوراثة». (۵)

أى لا- يمكن أن يقارن أو يقاس إنسان عادى بأهل بيت العصمة والطهارة؛ لأن الخلفاء الواقعيين والإنسان الكامل يقاسون ببعضهم، وليس بسائر الناس.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۷، الفقرة: ۱۴- ۱۵.

۲- مفاتيح الجنان.

۳- الشورى: ۱۱.

۴- بحار الأنوار ۴۴: ۶۵.

۵- نهج البلاغة، الخطبة: ۲، الفقرة: ۱۲- ۱۴.

ص: ۲۵۶

إنّ أهل بیت الوحی: هم مجاری النعم وأولیاؤها، ولا یقاس المتنعّم أبداً مع مجاری النعمة وأولیائها، إنّ هذه الذوات النورانیة هی مظهر للأسماء الحسنی الإلهیة، والذات الإلهیة الأقدس لا تقاس بأی شخص آخر ... «ولا یدرک بالحواس، ولا یقاس بالناس ...» (۱) .
 وعلیه، فلا یقاس أهل بیت العصمة و الطهارة بأحد أبداً، و هم بمثابة لیلۃ القدر فی الزمان، والکعبة فی المكان.
 ۵. من أفضل وسائل التقرب إلى الله، مما أمر به و بابتغائه و الاعتصام به، هو ذکر مناقب آل طه و یاسین، والشعور بالسرور فی موالیدهم، والإحساس بالهم والألم فی ذکری مصائبهم؛ لأنّ الارتباط العقلی والعاطفة بهذه الذوات النوریة- وهی إنسان کامل- یعدّ أساساً للانتفاع بمعارف القرآن، والاستفادة بسنة المعصومین:، تماماً كما یتوفر التعهد الإلهی فی ظلّ الارتباط بخلیفه الله تعالی.
 یقول الإمام علی بن موسی الرضا (ع): «إنّ لكل إمام عهداً فی عنق أولیائه وشیعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زیارة قبورهم؛ فمن زارهم رغبة فی زیارتهم، وتصدیقاً بما رغبوا فیہ، کان أتمّتهم شفعا لهم یوم القيامة» (۲).

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۸۲، الفقرة ۱۴- ۱۵.

۲- الکافی ۵۶۷: ۴.

الفصل الثالث الزيارة مظهر المحبة

الزيارة هي حضور المحبة في محضر المحبوب، وابرار المودة والمحبة لقادة الدين هو إظهار للتواضع أمام الدين وأعلام الإيمان، وذلك:

أولاً: ليس الدين سوى المحبة. (١)

ثانياً: حب محبوب الله هو حبُّ الله تعالى، والزيارة مظهر من مظاهر المحبة.

يضاف إلى ذلك، من يحب مظهر المحبة الإلهية الكاملة وحبب الله تعالى، أى رسول الله (ص)، فهو يطيعه، وإطاعة محور المحبة الإلهية هذا، يدفع الإنسان للتسامي، ومحبة الله تعالى له؛ قال سبحانه: (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ). (٢)

وهناك روايات كثيرة حول محبة النبي (ص) وعترته الطاهرين: نكتفى هنا بنقل أنموذجين منها:

١. يقول أنس بن مالك: جاء رجل من أهل البادية- وكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية يسأل النبي (ص)- فقال: يا رسول الله! متى قيام الساعة؟ فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال (ص): «أين السائل عن الساعة؟» قال: أنا يا

١- بحار الأنوار ٩٤: ٢٧-٩٥.

٢- آل عمران: ٣١.

ص: ٢٥٨

رسول الله، قال: «فما أعددت لها؟» قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل: صلاة ولا صوم، إلّا أنى أحبّ الله ورسوله، فقال له النبي (ص): «المرء مع من أحبّ»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشدّ من فرحهم هذا. (١)

٢. وفي حديث آخر على حدّ سلسلة الذهب، يقول أمير المؤمنين الإمام على (ع): «جاء رجل من الأنصار إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله! ما أستطيع فراقك، وإنى لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضيعتي، وأقبل حتى أنظر إليك حباً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة، وأدخلت الجنة، فرفعت في أعلى عليين، فكيف لى بك يا نبي الله؟ فنزل: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) (٢)، فدعا النبي (ص) الرجل فقرأها عليه وبشره بذلك». (٣)

الجدير بالذكر - كما أشرنا مطلع هذا الفصل - أنّ زيارة قبور أهل بيت العصمة والطهارة: مظهر للمحبّة، وجانب من وظائف المؤمنين فى حقّ هذه الأسرة، ومن الطبيعى أنّ المؤمنين ينتفعون بهذا العمل ويستفيدون منه، قال سبحانه: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) (٤)، (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ). (٥)

١- بحار الأنوار ١٣: ١٧.

٢- النساء: ٦٩.

٣- بحار الأنوار ١٨٨: ٨.

٤- الشورى: ٢٣.

٥- سبأ: ٤٧.

ص: ٢٥٩

الفصل الرابع أدب المقصّر

بين الله سبحانه أن من شرط الدخول على النبي (ص) أخذ الإذن منه والدعوة، قال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ...). (١)

وينهى الله تعالى المتشرفين بمحضر رسول الله (ص) عن أعمال وأقوال وأفكار تؤذى النبي (ص): (وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثِ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ) (٢)؛ لأن مجلسه (ص) مجلس علم وحكمه وليس محفلاً للهو والأنس، وسوف يأتي مزيد توضيح لهذه الآية إن شاء الله.

لقد دعا القرآن الكريم المؤمنين إلى مراعاة أدب المقصّر عند النبي الأكرم (ص) إنه يقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) (٣)، وهذه التصرفات تستدعى إحباط الأعمال ومحوها: (وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ). (٤)

في المقابل، تعد مراعاة قواعد الأدب هذه علامة على التقوى القلبية، والغفران

١- الأحزاب: ٥٣.

٢- المصدر السابق.

٣- الحجرات: ٢.

٤- المصدر السابق.

ص: ٢٦٠

الإلهي، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَعُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ). (١)

أما من لا يراعى الأدب معه (ص)، ويتكلمون معه بصوت مرتفع، فهم ممن لا عقل لهم: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ). (٢)

وعلى أساس هذه الآيات، وآيات أخر مثل: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا* لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ) (٣)، يكون تجليل النبي (ص) بوصفه شعاراً إسلامياً، وظيفته حياة تستمر في حياته وبعد وفاته، لأن مقام الرسالة حتى على الدوام، فاليوم عندما يتشرف الزوار بزيارة حرمة المطهر، يلزمهم أيضاً مراعاة أدب الحضور.

الجدير بالذكر أن ما قلناه حول مراعاة حرمة وأدب اللقاء بمحضر رسول الله (ص) ومركده وحرمة، يجرى أيضاً في حق خلفائه المعصومين وذريته الطيبين، على ما له (ص) من كرامته خاصة وحرمة.

١- الحجرات: ٣.

٢- الحجرات: ٤.

٣- الفتح: ٨- ٩.

الفصل الخامس ضيافة النبي (ص)

ثمة آيات في القرآن الكريم تبين آداب التشرف بالحضور عند رسول الله (ص)، وكيفية مناداته، والتحدث إليه وأمثال ذلك، إن مراعاة آداب التشرف، والحضور هذه، لها دور فاعل في الاستفادة من المواهب والعنايات الخاصة. يستفاد من الآية الشريفة: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ...) (١)، عدة أمور: أولاً: يسمح للمؤمنين فقط بضيافة الرسول الأكرم (ص)؛ لأن الخطاب هنا كان موجهاً إلى أهل الإيمان. ثانياً: يجب أن يكون هذا الحضور عن استئذان مسبق من قبل الضيف أو الزائر، بأن يكون يأذن من المضيف أو دعوة، لهذا جاء: (إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... وَ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ...)، وفي هذه الحالة سيكون الإطعام إطعاماً نبوياً، قال سبحانه: (فَإِذَا طَعِمْتُمْ ...). إن هذا الإطعام كما يمكن أن يكون ظاهرياً ومادياً، كذلك يمكن أن يكون باطنياً ومعنوياً، أي من غذاء الروح لا الجسد، تماماً كما يقول الإمام الصادق في ذيل قوله

ص: ٢٦٢

تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) (١): «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه». (٢)

إن الله يتحدث عن شروط الاستفادة من التغذية العلمية والمعنوية للرسول الأكرم (ص): فى محضر النبى لا-تجلسوا للمؤانسة، و لا تتحدثوا بكلام فاقد لأى نوع من المعرفة والحكمة، إن مجلس النبى مجلس علم وحكمة وليس محفلاً للانس، والتلهى وتمضية الوقت، فإذا أتيتم لكسب المعرفة ونيل الكمالات فلا تخوضوا بما يؤذى النبى (ص) .. (وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لِحَدِيثِ إِنْ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ). (٣)

إن الأكل السيء، والتخمة، والاستئناس، والمؤانسة، ومجالس الأانس فى الفنادق، ومنازل المسافرين ... ذلك كله مانع عن الإحساس بلذة المناجاة والزيارة فى المدينة المنورة، وفى الرواية أنه أتى أبو حنيفة النبى (ص) وهو يتجشى، فقال (ص): «اكفف جشاءك، فإن أكثر الناس فى الدنيا شبعاً أكثرهم جوعاً يوم القيامة». (٤)

لابد من الالتفات إلى أن الباب والحائط وأمثالهما ليست حاجباً أو مانعاً عن الحضور، وإنما لم يقل الزائر: «اللهم إنى ... أعلم أن رسولك وخلفاءك: أحياء عندك يرزقون، يرون مقامى ويسمعون كلامى ويردون سلامى ...» (٥)، «وأشهد أنك تسمع الكلام وترد الجواب». (٦)

لقد حدد الله تعالى الغذاء المعد للضيوف الرسالة، ومنه صلاة الليل، وهى صلاة خاصة لرسول الله (ص) قال تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً) (٧)، إن الضيوف الحقيقيين للرسول الأكرم (ص) لا يمكن أن يبقوا محرومين من

١- عبس: ٢٤.

٢- الكافى ٤٩: ١.

٣- الأحزاب: ٥٣.

٤- بحار الأنوار ٣٣٢: ٦٣.

٥- مفاتيح الجنان، إذن الدخول إلى الحرم والمشاهد المشرفة للأئمة:.

٦- المصدر السابق، زيارة الإمام الحسين ٧ فى النصف من رجب.

٧- الإسراء: ٧٩.

ص: ٢٤٣

إحياء الليل، فإن ضيافة النبي (ص) التهجد، أما التهجد في الليل مع السَّيْح الطويل في النهار والذي يسلب الإنسان مجال التهجد في الليل، فهو أمر غير متناغم ولا منسجم.

إن الزوار الحقيقيين ليسوا فقط ضيوفاً، بل ورث للرسول (ص)، وسهم الورثة ونصيبهم أرفع وأفضل وأكثر من حظ الضيوف، إنه ليبلغ حد صلاة الله وملائكته عليهم، قال سبحانه: (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ). (١)

وعليه، فإن حاصل ضيافة الرسول الأكرم (ص) هو صلوات الله وملائكته على الزوار الحقيقيين، ونتيجة هذا السلام وهذه التحية الإلهية صيرورتهم نورانيين، والإنسان النوراني لا يلحظ ولا يرتبط بالظلمة وبالماديات فاقدة القيمة والاعتبار، إنه لا يتعلق بظواهر الدنيا الخادعة؛ فقد قال رسول الله (ص): «ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة، ما أسقى فيها كافراً شربة ماء». (٢)

١- الأحزاب: ٤٣.

٢- بحار الأنوار ٢٠: ٤٣.

الفصل السادس بيوت الحق الرفيعة

يقول الله تعالى - وهو مؤدب أولياءه-: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ) (١)، إن البيت في هذه الآية وبعض الآيات الأخرى لا يقتصر على المسكن المتعارف، بل قد يراد منه بيت النبوة والولاية وأمثالهما، كما قال النبي نوح (ع): (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا). (٢)

من ناحية أخرى، لا تقف مصاديق البيوت الواردة في الآية الشريفة: (فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ) (٣)، عند المساجد وأمثالها، بل تتعدى لمشاهد المعصومين؛ كما أنه- بالاستعانة بما قدمناه- تشمل مقام الرسالة والولاية والإمامة أيضاً.

ويؤيد ما ذكرناه حديث جاء فيه أن قتادة جاء إلى الإمام الباقر (ع): ... والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس، فما اضطرب قلبي قدام أحد منهم ما اضطرب قدامك؛ فقال له أبو جعفر (ع): «أتدرى أين أنت؟ أنت بين يدي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ..». (٤)

١- الأحزاب: ٥٣.

٢- نوح: ٢٨.

٣- النور: ٣٦.

٤- الكافي ٢٥٦: ٦.

ص: ٢٦٥

فمقام الرسالة والولاية والإمامة بيت الله الرفيع؛ على هذا، من المناسب للزائرين أن لا يدخلوا إلى حرم أئمة البقيع: بأحذيتهم، (فأخْلَع نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) (١)، وليس من التجليل لهذه الذوات النورانية أن يرمى الزائر نفسه على القبر، بل من الأدب والاحترام أن يكسب إذن الدخول أولاً عندما يرد البقيع، ثم يدخله حافياً وبهدوء وترو، وبكل مظاهر التواضع، وعندما تجرى على لسانه أسماء الحسن بن علي المجتبي، وعلي بن الحسين السجاد، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق:، أو يرى قبورهم يشعر باللذة، ويمكنه أن يقول: «فما أحلى أسماءكم...» (٢)، وما أحلى أثركم وما أشد جاذبية قبوركم.

وفي هذه الحال وهذا المقام، إذا أحس الإنسان في نفسه بتغير حالته، فعليه أن يعلم بأن هؤلاء الأئمة المعصومين: قد تركوا- بإذن الله تعالى- أثراً، إن (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) (٣)، أخذ يتحدث إلى قلوب الزائرين، إذا شعر الزائر بتغير حاله، فليعلم أن هذه الذوات النورانية تتحدث معه، وفي غير هذه الحالة ستكون زيارته بدون روح، ومثل هذه الزيارة وإن لم تعدم الثواب، إلا أنها كعدمها على المستوى الباطني، وعليه أن يتضرع إلى الله تعالى كي لا يظل محروماً من نيل هذا الفيض العظيم.

إن قساوة القلب، وجمود العين الناشئين من الميل إلى الدنيا، لا يسمحان للإنسان بالإحساس بنور الأئمة المعصومين:، وبسماع كلماتهم، بأذن القلب والروح.

والحمد لله رب العالمين

١- طه: ١٢.

٢- مفاتيح الجنان، الزيارة الجامعة الكبيرة.

٣- الشعراء: ١٩٣-١٩٤.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم
 جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).
 قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرَّضَا - عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ
 كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - فِي تَلْخِيصِ بَحَارِ الْأَنْوَارِ، لِلْعَلَامَةِ فِيضِ الْإِسْلَامِ، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرَّضَا(ع)، الشَّيْخُ
 الصَّدُوقُ، الْبَابُ ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه
 المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و
 بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠
 الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.
 مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)
 تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب
 الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و
 عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسائل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل
 (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و أهل البيت
 -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم
 الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
 - منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات -
 في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
 - من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد
 جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الالكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصححان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

